

نخب السيرة المحفوظ

سيرة ذاتية و أدبية

بقلم: حسين عيد



الدار المصرية اللبنانية

مجموعه محفوظ
سيرة ذاتية وأدبية

الناشر : السطام المحمودة للبنائنة

١٦ ش عبد الحالى ثروت - القاهرة

تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣

فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ - برقياً : دار شادو

ص . ب : ٢٠٢٢ - القاهرة

رقم الإيداع : ٧٢٨٢ / ٩٧

الترقيم الدولى : 5 - 364 - 270 - 977

جميع رطب : سرية الطهاة والنشم

المنزل : ٧ - ١٠ شارع السلام - أرض اللواء - المهتمين

تليفون : ٣٠٣٦٠٩٨ - ٣٠٣١٠٤٣

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : جماد أول ١٤١٨ هـ - أكتوبر ١٩٩٧ م .

تصميم الغلاف الفنان : محمد حجي .

نحيب محفوظ

سيرة ذاتية وأدبية

بقلم : حسين عياد

المنشأ
دار الفكر اللبناني

كلمة لا بد منها .

كثرت مطالبة الكاتب نجيب محفوظ بكتابة سيرته الذاتية ، خاصة بعد أن أصدر رواية « المرايا » (١٩٧٢) ، التي اعتبرها عملاً ذا طبيعة خاصة أقرب إلى السيرة الموضوعية .

لكن نجيب محفوظ لم يكتب سيرته الذاتية حتى الآن (أطال الله عمره) ، واعتقد - طبقاً لتأكيداته المتكررة - أنه لن يفعل ! .

أما لماذا لم يكتب سيرته الذاتية ، فلأسباب كثيرة ، بعضها (خاص) باهتمامات وطبيعة نجيب محفوظ ، وبعضها الآخر (عام) .

وقبل أن نخوض في هذه الأسباب ، لتبين أولاً مفهوم « السيرة الذاتية » ، وأهم الأركان التي يشتمل عليها . . قدم فيليب لوجون تعريفاً جامعاً للسيرة الذاتية - في كتابه « أدب السيرة الذاتية في فرنسا : المفاهيم والتصورات » - حين أوضح أنها هي : « الرواية الثرية التي يروي فيها شخص ما قصة حياته بعد مضي فترة من الزمن ، مسلطاً الضوء على حياته الشخصية ، وخاصة على تكوين شخصيته » .

أما أهم أركان التعريف - كما بينها فيليب لوجون - فهي (أولاً) الصيغة اللغوية للسيرة ، فهي بناء من الكلمات قد يتخذ صورة ثرية أو يكون على شكل رواية . و(ثاني) الأركان هو موضوع تلك السيرة الذي قد يتناول الحياة الفردية لشخص معين ، أو قصة تكوين وتطور تلك الشخصية . و(آخر) الأركان هو كاتب السيرة نفسه ، التي يتم تناول تلك السيرة من منظوره بحيث تتطابق شخصية الكاتب والراوي

والشخصية الرئيسية فيها ، أو قد يتبدى موقف الكاتب من طريقة سرده أو معالجته للأحداث .

وقد حاول عديد من كتابنا العرب المحدثين كتابة سيرتهم الذاتية ، منهم أحمد أمين (حياتي) ، طه حسين (الأيام) ، المغربي عبد الكبير الخطيبي (الذاكرة الموشومة) ، العراقي يوسف الصائغ (الاعتراف الأخير لمالك بن الرب) ، وغيرهم كثير .

والآن ، لنعرض للأسباب التي استند إليها نجيب محفوظ في رفضه كتابة سيرته الذاتية . سواء (الخاص) منها الذي يرتبط بشخصيته ، أو (العام) الذي يشكل مصاعب أو عوائق أمام إنجاز السيرة الذاتية بالشكل المطلوب .

أما الأسباب (الخاصة) التي ترتبط بشخصية نجيب محفوظ ، فمنها ما يرجع إلى وعيه بطبيعة مجتمعاتنا الشرقية ، وتفهمه للتقاليد العربية التي لا تجتذ الصراحة والمواجهة ، وقد عبّر عن ذلك تارةً على شكل استفهام منفي حين قال : « ما هي الفائدة في كتابة شيء لا يمكن إكماله أو التصريح به ؟ » ، وتارةً أخرى بشكل تفصيلي : « الحقيقة أن الترجمة الذاتية بصفتها الصريحة وبصوريتها التقليدية المألوفة ، لم تكن جذابة لي في الطفولة أو في غيرها من المراحل . ربما بسبب أن هذا الضرب من ضروب الأدب لم يكن ممكناً في بلادنا ، وأذكر أن عبد الحميد جودة السحار كتب مرة عن أسرته ومدح أخاه ، ولكنه منى بشيء من البخل ، فقاطعه أخوه ، وقامت بينهما خصومة امتدت لفترة من الزمن . مع أنه كان حريصاً على أسرته وكأنه يقدم أفرادها لأغراب أو لعبون فضولية معادية . ومع هذا لم يعفه الحرص من الخناقة » (انظر حوار نجيب محفوظ مع صبرى حافظ - مجلة الآداب - يوليو ١٩٧٣) .

أما السبب الثاني (الخاص) فهو يرتبط بمفهوم نجيب محفوظ لكتابة السيرة الذاتية ، بمعنى أنه كي يكتب عن حياته (بصدق) فإنه يحتاج إلى سيل متدفق من التفاصيل اليومية الدقيقة تغطي سنوات عمره ، وتكشف حركة تطور شخصيته ، وهو ما لا يتوفر له . وقد عبّر عن ذلك بقوله : « إن الرجل الذي يستطيع أن يكتب سيرة ذاتية لنفسه لابد أن يكون من نوع الرجال الذين يكتبون مذكرات يومية مثل سعد زغلول . . مذكرات يومية عن أحداث يومهم وانطباعاتهم عن الناس الذين التقوا بهم . . إلخ . . وأنا لست من هذا النوع » (المصدر السابق) .

أما السبب الثالث (الخاص) ، فقد بينه نجيب محفوظ بصراحة في حوار مع صبرى حافظ : « وثمة سبب آخر خاص بى ، وهو أنى من أسرة من المعمرين ، كل أفرادها أحياء ، وليس من حقل أن تكتب عنهم وهم أحياء . . وأن تناول بعض الأمور الجوهرية في حياتهم وهم أحياء » .

وهناك سبب (عام) يبرز كعائق أمام كاتب السيرة الذاتية ، وهو ما أوضحه الكاتب الفرنسى أندريه موروا بأنه : « الرغبة المشروعة في حماية أولئك الذين شاركونا الأعمال التى نصفها حتى لو اعتزمنا قول الحقيقة كلها عن حياتنا ، فإننا لا نملك قول الحقيقة كلها عن حياة الناس الآخرين » .

هناك أيضا مجموعة أسباب (عامة) تشكل مصاعب أو عوائق أمام كاتب السيرة ، وتتعلق بعمل الذاكرة . كتب الكاتب الروسى ايليا اهرنبورج يوما في مذكراته : « إن الذاكرة تحفظ شيئا وتغيب عنها أشياء » . وقد أشار هربرت سبنسر إلى أن : « الذاكرة تسقط وتكون وتشذب وتغير الحقيقة ، لأنها لا تترك للحياة اليومية والأحداث البسيطة والفترات الساكنة التى لا يحدث فيها حدث غير متوقع والتى تشكل كلها ، مع ذلك ، المادة الأساسية للوجود الإنسانى » . أما أندريه موروا فقد أضاف في سياق عرضه للأسباب التى تجعل السيرة الذاتية زائفة وغير دقيقة . . إنا ننسى ، وأن هناك نسيان متعمد ، لأن : « الذاكرة فنان عظيم ، فهى تجعل من ذكريات كل شخص عن حياته عملاً فنياً وسجلاً غير أمين » . كما أن هناك : « الرقابة الطبيعية التى يمارسها العقل على كل ما هو كرهه وسمح » . وهذا هو التحدى الحقيقى الذى يواجه كاتب السيرة ، حين يسبح وسط رياح غير مواتية ، كى يسجل جوانب صراع وتطور النفس البشرية : « لقد كان أفلاطون يتصور نفس الإنسان وكأن حصانين أحدهما أبيض والآخر أسود يسحبانها على نحو دائم ، يسحبها أحدهما إلى أعلى ما فى طبيعة الإنسان ويسحبها الآخر إلى أدنى ما فى طبيعته ، وكاتب السيرة الجيد هو مَنْ يوسع أن يرى كليهما الأبيض والأسود ، وأن يرى كيف يمكن للإنسان الذى يتوجب عليه أن يسوق هذا الزوج الصعب أن ينجح مثلما ينجح » .

وقد حذر فليب لوجون من أن السيرة الذاتية تركز على سلسلة من الخيارات أهمها الاختيار الذى يقوم به الكاتب بين الذكريات التى تقدمها له ذاكرته : كما أن الكاتب

يركز على العناصر التى لها صلة بها يعتقد أنه الخط الموجه لحياته . هنا تظهر ضرورة التوفيق بين هذه العناصر من حيث درجة أهميتها ، فيكون (الاختيار) من بين تجارب الكاتب الوفيرة المتنوعة ، فيحتفظ بالأهم منها وينظمه ، وييسطه . عندئذ يتبدى خطران : أحدهما حين يرخى الكاتب العنان لكل تجاربه ، فتحول السيرة إلى مجرد نزهة بين ذكريات متفرقة ، أو حين يتشدد فى الاختيار (بمعيار الأهمية) فتبدو السيرة كبرهان جاف ومصطنع .

تثير كتابة السيرة الذاتية قضية أخرى على جانب كبير من الأهمية ، تتعلق بعمل المخيلة . قال أندريه مورو فى كتابه « أوجه السيرة » : « إننا نتذكر الأشياء عندما نريد أن نتذكرها ، ونودع فى طيات النسيان كل ما يؤذينا ، نغيره بوعى فى البداية . نجعل قصتنا أكثر إمتاعاً وأكثر حيوية وأكثر إثارة من الحدث الفعلى . نجاحنا يشجعنا على المضى فى مسعانا حتى نبلغ بالتدريج مرحلة لا نتذكر عندها سوى القصة ونفسى الحدث الفعلى ، وبمرور الزمن ، يحلّ عمل مخيلتنا محل الصور الباهتة لواقع زائل » .

وقد أكد نجيب محفوظ ذلك ، وإن استبدل المخيلة بالخلق الفنى ، وذلك فى حوار مع صبرى حافظ ، كما كشف أيضا انعكاسها على القارئ « لقد وجدت أن هناك أشياء وتفاصيل متعددة لم أجد أذكر منها شيئاً ، وامتلات الذكريات بالفجوات فأكملتها » ، « فى تصويرى أن قدرة الإنسان على الخلق غير محدودة ، وأن قدرته على التذكر محدودة جداً جداً . وهذه حقيقة لا نعرفها إلا بالتجربة . . افترض أننى سأحكى لك حكاية عن والدى ، فلا بد عندئذ أن تشك بنسبة ٧٠ بالمئة فى أن ما أقوله لك مخالف للواقع ، وخصوصاً إذا ما وجدت فى هذه الحكاية بعض التحسينات اللطيفة وبعض المواقف الحلوة والتفاصيل المحبوبة . . عند ذلك لابد أن تشك كثيراً فى أن الذى يعمل فى صياغة هذه القصة ليس القدرة المحدودة على التذكر ، ولكنها القدرة اللاحدودة على الخلق » .



كانت تلك هى الأسباب (الخاصة) و (العامة) التى كانت وراء رفض نجيب محفوظ كتابة سيرته الذاتية .

هنا ، لابد أن يطرح سؤال نفسه . . هل هناك ثمة مخرج ، للغوص الكاشف عن حياة الكاتب الخاصة ، في غية سيرته الذاتية ؟ .

يبدو في الأفق طريق صعب ، شاق ، محفوف بالمخاطر . . فإذا كان الكاتب يبدأ من الواقع ، من شريحة معينة من الحياة ، حيث المواد الأولية (الخام) التي أثرت عليه وشكلت وعيه ، وكانت إحداها أو بعضها حافزاً لمخيلته الإبداعية ، كي تحتضن تجارب وخبرات المؤلف في رحلها ، حتى تكتمل مرحلة الحمل ، لتولد ناضجة ، مكتملة البنية ، على شكل أعمال أدبية ، هي - في حقيقة الأمر - بناء من الكلمات ، يصل إلى الناقد ، الذي يجب أن يكون قادراً من خلال عملية إعادة بناء العمل الفني تدريجياً ، على أن يسير في عكس الاتجاه الذي قطعه الكاتب المبدع ، من خلال الانطباعات التي تنهال عليه أثناء عملية القراءة ، حتى يصل إلى تلك الشريحة الأولية من الحياة التي بدأ منها المبدع .

يحقق هذا الأسلوب للناقد صدق التقدير وعدالة التقييم ، ويتيح له الفرصة لاكتشاف أى خلل أو تصدع في عملية بناء العمل الفني ، بما يدفعه إلى تفحص أسباب وجوده ومبررات نشأته . كما يفتح له باباً - إذا تعامل مع أعمال المبدع بحب وألفة - أن ينفذ إلى شخصية الكاتب وجوهر فكره الذي يكمن وراء أعماله الفنية . .

ولنستعيد هنا كلمات أندريه مورو في كتابه « أوجه السيرة » : « عندما نتعامل مع كاتب معين ، ثمة وثيقة واحدة في غاية الإغراء هي عمله المكتوب . التوجه الأول لكل كاتب سيرة هو تفسير هذا العمل في سياق السيرة الذاتية » .

وقد أضاء نجيب محفوظ هذا الجانب في حوار له مع سلوى العناني (جريدة الأهرام في ١٣ / ١٢ / ٩١) حين سأله : « هل نؤرخ لنجيب محفوظ من خلال كتاباته أو . . هل يجد القارئ نجيب محفوظ في أبطال أعماله ؟ » . .

فأجابها : « للأعمال دلالات كثيرة يمكن للمؤرخ أن يستتج منها ما يشاء عن شخصية الكاتب . . وهذا لا يعنى أن يعرف تفاصيل حياته . . فالأعمال الروائية ليست تاريخاً لكاتبها كالسيرة الذاتية . . ومن قراءة أعمال أى كاتب يمكن أن نتعرف على عقلية . . رؤيته . . ذوقه . . أما سيرته الذاتية فهذا شيء غير ممكن » .

ورغم إجابة نجيب محفوظ الحاسمة ، وهو حق مشروع له ، وجدت نفسى مدفوعاً بحماس إلى هذا الطريق ، مبهوراً بالاكتشافات الفنية الصغيرة التى كانت تطالعنى بين الحين والحين ، فتبدو كإضاءات شموع واهنة ، ولكن - فى ذات الوقت - مشجعة وحافزة على الاستمرار والمضى فى هذا الطريق المجهد الطويل .

هكذا اجتهدت - وحق الاجتهاد فى الفن مكفول ومفتوح - أن أرسم عبر الفصول التالية سيرة (ذاتية - أدبية) لنجيب محفوظ ، من خلال أعماله الفنية الكثيرة ، خاصة تلك التى تظهر فيها أصداء حياته الخاصة بما اكتنفها من أحداث وأشخاص ، مسترشداً بحواراته كلما أمكن ، وذلك عن طريق إعادة بناء أعماله تدريجياً أثناء القراءة ، بالسير فى عكس الطريق الذى طرقه كاتبنا الكبير لإبداع تلك الأعمال ، وصولاً إلى منابع الأولى فى مراحل طفولته وصباه ثم مراهقته وشبابه ، إلى تلك الشخصيات والوقائع التى أثرت عليه ، وعاشت فى (ذاكرته) .

قد تصيب هذه المحاولة ، وقد تخطيء . ولكن يبقى لها شرف إضاءة مناطق (مجهولة) من حياة كاتبنا الكبير ، والتجول بين أركان عالمه الفنى الرحب ، وتفسير التأثير المتبادل بين الواقع والإبداع . وتلمس جوانب (سحر) العملية الفنية .

وهى فى نهاية الأمر ، باقة حب ، من معجب إلى فنان كبير .



الباب الاول

طفولة تفتح

الفصل الأول : الموت في الرابعة
الفصل الثاني : نشاط سياسي مبكر
الفصل الثالث : عالم الحارة

■ الفصل الأول ■

الموت في الرابعة

« نحيء أختي وابنها للإقامة عندنا فترة من الزمن . همام في الرابعة أو يزيد عنها قليلاً . أجد فيه رفيقاً ذا حيوية وجاذبية ، يخرُجني بمؤانسته من وحدتي . جميل خفيف الروح ، بلاعني بلا ملل ، ويصدق أكاذيبي وأوهامي . وأجده ذات يوم راقداً صامتاً ، أدعوه إلى اللعب ولكنه لا يستجيب ، وأخبر بأنه مريض . . . »

« ويطبق على الجرح اهتمام وحذر ، ويتفشى فيه ضيق وكدر ، وأتلقى أحاسيس مبهمة وغير سارة . . . »

« وألح من بعيد صديقي مغطى فوق الفراش مثل وسادة ، لم يترك له متنفساً . . . عندئذ يتردد اسم الموت من قريب ، وأفهم أنه فراق يطول فأبكي مع الباكين ، ويتألم قلبي أكثر مما يجوز لسه . . . »

(الحكاية رقم (٨) - رواية «حكايات حارتنا»)

« كان ابن أربعة أعوام عندما حُل إلى بيت جده لأمه بميدان بيت القاضي ، ليؤنس وحدة خاله قاسم الذي كان يكبره بعام ونصف . « وكانت مطرية تحب قاسم كأبنائها فأهدته إليه ليعيش في كنف جديه ويؤنس وحدته في بيت كبير خالٍ من الأنيس . . . »

« وظلت الدنيا هواً ولعباً حتى حُل قاسم ذات يوم إلى الكتاب ليبدأ حياة جديدة وليُحرم من رنقة أحمد ثلثي النهار ، « وحين يغادره عصرًا فيلقى أحمد وأم كامل في

انتظاره عند الباب » ، « ولكنه ذات يوم لم يجد أحداً في انتظاره لدى خروجه من الكتاب ، ووجد أمه جادة أكثر من عاداتها ، وقالت له : حبيبك مريض ... »

« وتمت الأيام ويتساءل قاسم أين أحمد ، أين غابت نضارته وجماله ؟ » ...

« عاد عصر يوم من الكتاب » ، « دهمه البيت بمنظر جديد . رأى أهله جالسين في صمت غريب » ، « وتسرب الخوف إلى قلبه مع الهواء المقعم بالحزن ، وأدرك بطريقة ما أن ذلك العدو الذي سمع عنه في مناسبات ماضية ، الذي رآه يجيم فوق الجنازات المتجهة نحو الحسين ، قد اقتحم بيته وخطف أحب خلق الله إلى قلبه ، وصرخ باكياً » .

(أحمد محمد إبراهيم - رواية « حديث الصباح والمساء »)



إنه همام ابن اخت الراوى نجيب محفوظ ، كما أورده في الحكاية رقم (٨) من رواية « حكايات حارتنا » (١٩٧٥) ، كرفيق طفولته المبكرة . ثم وسع حكايته ، مكنياً إتياء أحمد في الفصل الأول الخاص بأحمد محمد إبراهيم من رواية « حديث الصباح والمساء » (١٩٨٧) ، تدليلاً على أن (الاسم) في المرتين مستعار .

كيف استعاد نجيب محفوظ صورة ابن اخته الحبيب (أياً كان اسمه) في إطار تجربة الموت في واحدة من « حكايات حارتنا » ؟ .

ما هو أهم ملمح من طفولة نجيب محفوظ برز أثناء المعالجة الفنية ؟ ...

وما هي الإضافة الجديدة التي قدمها عبر معالجته الثانية في رواية « حديث الصباح والمساء » ؟ .



يبدأ نجيب محفوظ الحكاية الثامنة من « حكايات حارتنا » ، وهو طفل يستقبل مواسم القرافة باللهو والعبث والانطلاق ، لأنها ... « تعد من أسعد أيامي » ، « يسرنى تدفق تيارات الخلق وطواير الكارو » ، « تحت قبة السماء تنطلق منى وثبات فرح ، ودفقات استطلاع لا يكدرها شيء » ، ثم تتم المرات بمراقبة المقرئ الضريع ... » .

هنا مشاعر تلقائية لطفل يلهو (سعيدًا) في مواجهة طقس شعبي لبشر توارثوا زيارة المقابر حتى أصبح لها مواسم . ورغم غرابة العادة إلا أنها تكسر إيقاع حياة الطفل الرتيب ، ورغم أن المكان موحش ، ينطق بالموت إلا أن ظله يحوم في الجو من بعيد ، والطفل سادر في عبثه . أليست هذه هي الطفولة ، التي لا يشغلها إلا إزجاء الوقت في اللهو والعبث ١٩ .

هذه المقدمة (العامة) المقبضة هيأت مسرح الحكاية للانتقال إلى علاقة (خاصة) حزينة بين نجيب محفوظ طفلاً في الخامسة وابن أخت له في الرابعة ، أنس (وحدة) بالمجىء إلى بيتهم ، وكان نعم الرفيق . لكن هذه الحياة الهادئة لم تستمر طويلاً ، لأن تجربة الموت انقضت فجأة قاسية ، زلزلة ، بموت حبيب القلب ، إثر فترة مرض قصيرة . وظل فترة غير مصدق ما جرى ، حتى وقع بصره على دليل حتى حاسم ، أصابه في مقتل : « وألح من بعيد صديقي مغطى فوق الفراش مثل وسادة ، لم يترك له متفصلاً ، عندئذ يتردد اسم الموت من قريب ، وأفهم أنه فراق يطول فأبكى مع الباكين ، ويتألم قلبي أكثر مما يجوز لسنه » .

لقد وضعته تجربة الموت في سنه اليافع أمام مواجهة حادة غير متكافئة أو منطقية ، أدت قلبه الصغير ، لذا . . . « لا تعود زيارة المقابر من أيامى البهيجة » (ألسنا نسقط ذواتنا ومشاعرنا على الأماكن من حولنا ، فنراها بهيجة حين نكون لاهين سعداء ، ونكتشفها قائمة إذا ما أدركنا الأسى ١٩) ، وبدلاً من اللهو البريء بجوار القبر ، إذا بالمنظر يتغير . . . « أود أن أطلع على خفاياه أو أنلقى الكتابة من صمته » . . . لقد (عرف) مرارة الموت . . . « ولا أنقلب على لوحة الفراق مع كمر الأيام » .

هكذا غور نصل التجربة عميقاً في (الذاكرة) ، لتبسط آفاقها أمام ناظره كبيراً ، ناضجاً ، مستوعباً . . . « إنه الحزن والحب والضائع والخوف والذكرى القاسية وإرهاق أسرار الغيب » . . .

ولكن لتتبه ، فهنا بناء فنى أسر رغم بساطته ، لقد قدم نجيب محفوظ في حكايته وجهين متناقضين للطفولة ، لإبراز أثر تجربة (الموت) في أقصى صورها الممكنة ، فالقراءة رغم وجود المقابر ، بما تبغثه من ظلال حزينة كثية ، كانت هي (المكان)

اللى أبهجه طفلا ، حيث وجد فيه ضالته للانطلاق والعبث والمراقبة . لكن كل هذا يُنسى ، أو يتراجع للوراء ، حين يدخل الطفل في تجربة صداقة ورفقة (حية) ، سرعان ما يثدها (الموت) ، وحين يعود الطفل ثانية إلى ذات المكان بين القبور ، ورغم أن المكان هو المكان ، إذا به وقد تغير فالطفل لم يعد هو نفس الطفل ، لقد تحول ، بعد أن أضيفت إلى خبراته المتنامية تجربة حادة ، هي تجربة الموت ، فأورثته الكآبة واللوعة والحزن .



أما رواية « حديث الصباح والمساء » ، والتي نشرت عام ١٩٨٧ ، فقد رسم نجيب محفوظ فيها بناءً شائخاً موازياً لشجرة عائلته بكل شخصياتها بدءاً من جذوره القديمة ، وانتهاءً إلى الفروع الحديثة ، عبر فترة زمنية طويلة امتدت منذ ما قبل الثورة العراقية حتى تاريخ كتابة هذا السفر في الثمانينات ، مثقلة بكل ما قرأ على مصر من أحداث جسام ، موظفاً كل خبراته الحياتية والثقافية والفنية . . إلخ ، في فن رسم الشخصيات ، بكل ما تتصف به كل منها من صفات متوارثة أو مكتسبة ، وما اعتراها من تحولات وتغيرات نتيجة ما مر بها من أحداث عامة وخاصة . ولعل رواية « المرايا » - بكل ما تضمنته من رؤى (موضوعية) لمختلف الشخصيات التي عايشها ، أو قابلها - كانت حافزاً لكتابة هذا السفر الموسوعي عن أسرته ، متهجاً نفس المنهج الذى سبق أن اتبعه في (المرايا) بترتيب الشخصيات ترتيباً أبجدياً ، وإن لم يفصح عن منهجه فيها ، بينما أعلن تصنيفه للشخصيات في رواية « حديث الصباح والمساء » وفق ترتيب أبجدى ، بادئاً من « حرف الألف » بشخصية : « أحمد محمد إبراهيم » .

وإذا كان نجيب محفوظ قد كشف ضمناً عن ملمح هام من ملامح طفولته - في سياق الحكاية (٨) من حكايات حارتنا - ألا وهو (وحدته) في بيت أبويه ، فإنه في الفصل الخاص بأحمد محمد من « حديث الصباح والمساء » أرسى أبعاد هذه (الوحدة) ووضح أسبابها .

نحن نعرف موقع مولد نجيب محفوظ بين اخوته ، مما تكرر نشره من حوارات معه حول أسرته ، ومنها حوار الموسع مع جمال الغيطاني في كتابه « نجيب محفوظ

يتذكر» ، الذى قال فيه « أنجبت والدتى من قبل ستة أشقاء ، جاءوا كلهم متعاقبين ، أربع إناث وذكرين ، ثم توقفت والدتى عن الإنجاب لمدة تسع سنوات . ثم أجيء أنا» .

والآن ، لننظر إلى البناء المقابل (الذى أقامه نجيب محفوظ فى « حديث الصباح والمساء ») بأسماء كلها غير حقيقية ، مستعارة . . . لننظر ، ونتأمل : نجيب محفوظ / قاسم ، شقيقته / مطرية ، وابن الأخت / أحمد . ثم لندخل إلى التفاصيل ، وهى مروية بضمير الغائب ، من وجهة نظر محايدة ، تتكلم عن أحمد : « كان ابن أربعة أعوام عندما حمل إلى بيت جدّه لأمه بميدان بيت القاضى ليؤنس وحدة خاله قاسم الذى كان يكبره بعام ونصف عام . خلا البيت بعد زواج البنات والصبيان فلم يبق فيه إلا عمرو أفندى الأب وراضية الأم ، وآخر العنقود قاسم . لم يعرف قاسم إخوته صدرية ومطرية وسميرة وحبيبة ، وأخويه عامر وحامد إلا كضيف عابر مع أمه أو أبيه ، « وفى بيت شقيقته مطرية بحارة الوطاويط أحب ابنها أحمد حبّا فاق حبّه للجميع » ، « كانت مطرية تحب قاسم كأبنائها فأهدته إليه ليعيش فى كنف جديده ، ويؤنس وحدته فى بيت خالٍ من الأنيس » .

هنا لابد أن نتساءل عما أضافه الفصل الأول من رواية « حديث الصباح والمساء » لتجربة مواجهة الموت طفلاً ، والتى سبق أن قدمها نجيب محفوظ فى الحكاية الثامنة من حكايات حارتنا ؟ ١ .

فى الحكاية الثامنة تكثيف وتركيز ، هنا تفصيل وإبانة . هناك واقعة مقتطعة مجتزأة ، هنا سياق أعم وأشمل . هناك تجربة الموت فى وقعها الحاد دون تحديد زمن محدد ، هنا تجربة حياة وموت وسط تقاليد ومفاهيم عصر مضى وانقضى . هناك نفثة ساحرة من عالم طفولة نجيب محفوظ ، هنا رافد حبتّ ضمن عالم أسرة كامل .

وبشكل عام ، يسيطر على بناء فصل « أحمد إبراهيم » إيقاع حزين ، يتسلل بين السطور . . . إيقاع بالفقد والضياغ وإن دوام الحال من المحال . فمنذ البداية ، هناك توازن دقيق بين تمنع أحمد بهذا الملعب الواسع بميدان القاضى ، الذى سرعان ما ينسبه به الأهل ، بيت والديه بحارة الوطاويط ، فإذا نية أبيه وجدته لأبيه مبيتة على أن

يسترده حال بلوغه السن المناسبة لدخول الكتاب . حتى اللعب اختلط فيه ذلك الإيقاع الهادىء ، الحزين ، فأحمد يتبع خاله كظله فى أرجاء الميدان ، يشاهدان ألعاب الحاوى وعربة الرش ، وطابور جنود الشرطة . ويستقبلان معاً عم كريم يتاع الدندورمة ، ويتابعان بشىء من الخوف مواكب الجنازات . والولد آية فى الجمال ، مورد البشرة ، ملون العينين ، ناعم الشعر ، خفيف الروح ، عرضة للحسد ، حين . . . كانت الرائحة والغادية من الجارات تنظر إلى أحمد وتتساءل : من هذا الولد الجميل ١٩ .

هكذا ظلت الدنيا هواءاً ولعباً حتى حمل قاسم ذات يوم إلى الكتاب ليبدأ حياة جديدة ، وليحرم من رفقة أحمد ثلثى النهار . . . « لم تجد التوسلات ولا الدموع » ، « لم تعد الدنيا كما كانت » (هنا يتصاعد الإيقاع الحزين ، ليتحول من ثنائية المشاهدة ، ويترجم إلى أفعال تفرق بينهما) .

وتتواتر النذر ، وبغريزة يقظة شعر قاسم بخطر آخر يتهدهه من ناحية والد أحمد ، الذى لا يرتاح لإقامة ابنه بعيداً عنه ، فيشكو منه قاسم لأمه ، فتستنكر جحوده مذكرة إياه أنه هو الذى (أهدها) له .

ولنتوقف هنا قليلاً أمام فعل (أهدى) : بمعنى قدم هدية أو بعث بها ، فقد استخدمه نجيب محفوظ فى هذا الفصل مرتين : الأولى حين عبرت اخته أم أحمد عن حبها لقاسم ، (فأهدته) أحمد ، والثانية حين استنكرت أم قاسم جحود ابنها لوالد أحمد موضحة له أنه هو الذى (أهدها) له .

إن تكرار استخدام هذا الفعل - هنا - يعكس نزوعاً (لا واعياً) لرغبة دفينة عند قاسم (أو نجيب محفوظ) فى الاستحواذ على أحمد وتملكه (رسمياً) بعد أن تنازل عنه الأم والأب له طواعية ، بملء إرادتهما . ولعلها أمنية دفينة ، حيصة قلب طفل (وحيد) ينشد صحة مستمرة ، دائمة ، أبدية ، لا فراق فيها ، كما تدلل أيضاً على رغبة أكيدة فى الحفاظ عليه وحمايته من أى خطر يتهدهه أو ضياع يحقق به ، فمن يفكر فى التفريط فى وجود جميل ، مؤنس ، بهيج ، مكمل لذاته (يمتلكه) ١٩ .

وذات يوم لم يجده قاسم بانتظاره لدى خروجه من الكتاب ، لأنه مريض ، وعاده

طبيب هو زوج العالمة المشهورة بمبة كثر . لكن نذر الخطر تزايدت ، بعد أن غابت
نضارة وجمال أحمد . وارتفع الإيقاع عاليًا ، مدويًا ، حتى جاءت الطامة الكبرى ،
حين رأى أهله جالسين في صمت غريب ، فأدرك بطريقة ما موت الحبيب ، فصرخ
باكيًا حتى حملته أم كامل إلى السطح . ومن وراء خصائص نافذة الحجرة الصيفية ، رأى
جنازة من نوع جديد . . . « فهل انتهى أحمد ؟ ! أبى أن يصدق ذلك أو يسلم به : آمن
من كل قلبه بأنه سيراه مقبلًا ذات يوم مكللًا بعذوبته الوردية » ، لذا لم يكف عن
البكاء ، حتى نهره أبوه ، لأنه لم يعد طفلًا ، ودعاه لقراءة الفاتحة حتى يبرد قلبه .

لكن تأثير موقف أبيه هذا سيظل ملازمًا له لا ينساه ، وهو ما سيورده قاسم في
الفصل الخاص به من رواية « حديث الصباح والمساء » : « إهتزت صورة أبيه في
عيني . . صورة مَنْ عجز عن دفع الموت عن ابن اخته أحمد ، حين تُرك لدموعه غير
المجدية » . . .

أو ليست تلك صورة (الأب) السحرية ، التي نحيط بها في طفولتنا ؛ حين نراه
قادرًا على فعل المستحيل ؟ ! . . .



وأخيرًا . لابد أن يطراً على ذهن سؤال جديد : لماذا (استعداد) نجيب محفوظ ،
تجربة من طفولته ، مقدمًا إياها عبر تنويعتين مختلفتين ؟ ! .

ربما تكمن الإجابة في ارتباط ظروف الإبداع ، بكل ما تأثر به الكاتب المبدع من
وقائع خارجيه ، وما خاضه من تجارب ذاتية ، وما تواتر على مخيلته من أفكار وظنون
ورؤى ، وما ترسب في (ذاكرته) من صور ومشاهد ، فمن هذه المواد الخام الأولية
للحياة ، يتبلور العمل الفني في أعماق الفنان ، بعد أن يختمر وينضج ، من خلال
موهبة الأصلية ، وحنّ المرهف ، وحنسه الصادق .

في هذا السياق ، تشكل مرحلة الطفولة منجماً خصبًا للفنان ، فهي الفترة التي
تفتحت فيها عيناه لأول مرة على العالم (داخل أسرته في بيته ، وفي بيته المحيطة به) ،
وفيهما اكتسب خبرات شكلت وعيه ورسمت معالم شخصيته ، وأرست بداية رؤيته
للحياة ، والعالم والكون من حوله ، وكونت جزءًا رئيسيًا من ذاته ، فكان منطقيًا أن

تنعكس عبر أعماله الفنية بشكل أو بآخر ، فتبدت طفولة نجيب محفوظ (سافرة) في أولى أكبر أعماله الأدبية وهي الثلاثية . وحين أصبح على مشارف الستين ، ومع اقتراب خروجه إلى المعاش ، وهو ما شكّل إنتهاء لحياته الوظيفية التي ظلّ مخلصاً لها ، كان لابد له من وقفة لمراجعة الذات ، وإلقاء إطلالة على ما مرّ من سنوات عمره ، وما اكتسبه خلالها من خبرات ، فكتب رواية « المرايا » (عام ١٩٧٢) ، مُقدماً فيها رؤية (موضوعية) متشعبة الجوانب للشخصيات التي عايشها أو مرت بحياته ، احتلت مرحلة الطفولة جزءاً منها ، ولعلّها كانت إرهاباً أو حافزاً للعودة إلى استكشاف هذا العالم ، الذي أحبه بشغف وعاشه بحب ، وظلّ كامناً في أعماقه ، فالفنان - في نهاية المطاف - يسعى لاستكشاف الحقائق فيها غمض عليه ، حتى يكتسب وعياً معرفياً بذاته . فكان لابد أن يعود نجيب محفوظ إلى تلك الفترة الخصبة من حياته ، محاولاً إزالة ما يكتنفها من غموض ، كاشفاً السر عن معدنها الأصيل ، فكتب رواية « حكايات حارتنا » (عام ١٩٧٥) بشكل بسيط ، مكثف ، ثري ، عن بعض ملامح وشخصيات وأحداث طفولته . لكن هذا لم يكن كافياً أو شافياً ، حين عادت تلك الفترة تلح ثانية ، وتطرق أبواب وجدانه ، خاصة مع جريان السنين والخوف من انقضاء العمر - أطال الله عمره - فازداد حرصاً على بلورتها ، وكشف النقاب عنها ، في إطار رؤية كلية ، أوسع وأشمل لشبكة علاقاته الأسرية ، فكتب رواية « حديث الصباح والمساء » (عام ١٩٨٧) ، فالفنان يسعى - جاهداً - إلى استبصار الواقع والحياة من حوله ، لكنه لا يحتفظ بهذا الكشف لنفسه بل ينقله إلى الآخرين من حوله من خلال إنتاجه الفني من قصص وروايات .



■ الفصل الثاني ■

نشاط سياسى مبكر

١- ثورة ١٩ : من بعيد

« من حجرة صغيرة فى السطح ، كنت أرى مظاهرات ثورة ١٩١٩ ، ومظاهرات النساء من بنات البلد فوق عربات الكارو ، وضرب الرصاص ، وكانت المشاكل تبدأ بينى وبين أمى ، كانت تشدنى بعيداً عن النافذة ، وكنت أريد الفرجه خاصة على ضرب الرصاص . . »

(من كتاب « نجيب محفوظ يتذكر » - ص ١٦)

« قبعث وراء شيش النافذة أنظر بعينين عمليقتين إلى جموع البشر من ذوى البدل والجلب والقفاطين والجلاليب ، حتى النساء فى الحناطير والكارو ، يحملون الأعلام ويهتفون وسمعت أزيز الرصاص ، أجل لأول مرة أسمع ينطلق من اللوريات ومن فوق صهوات الخيل ، ورأيت الإنجليز رؤية العين بقبعاتهم العالية وشواربهم النافرة ووجوههم الغريبة ، ورأيت الدم يلطخ الملابس وأديم الأرض وسمعت الحناجر وهى تهتف من الأعماق « يحيا الوطن » ، و « نموت ويحيا سعد » .

(فصل « أنور الحلوانى » - رواية « المرايا »)

* * *

إنها مظاهرات ثورة ١٩١٩ ، التى عايشها نجيب محفوظ طفلاً فى السابعة من عمره ، كما وردت فى كتاب « نجيب محفوظ يتذكر » الذى أعده جمال الغيطانى

(١٩٧٠) ، ثم ترددت أصداؤها في الحكاية رقم (١٢) من رواية « حكايات حارتنا » (١٩٧٥) .

ما هي ملامح (المكان) ، الذى كان يرى منه الطفل نجيب محفوظ وقائع ثورة ١٩١٩ ؟ ..

كيف ترددت أصداء (رؤيته) في أعماله الأدبية ؟ ..

وما هو الملمح (الشخصى) الذى نستشفه منها ؟ ! .



رسم نجيب محفوظ ملامح البيت الذى كان يعيش فيه ، حين قال « كنا نسكن بيتاً مستقلاً ، أو بالمعنى الدارج ، بيت من بابه ، ومن الممكن أن تطلق عليه « بيت رأسى » بالمعنى الحديث ، كل طابق كان يحتوى على حجرة صغيرة وأخرى كبيرة . ثم أخيراً السطح حيث تجد غرفة صيفية ، كنا ننام فيها خلال أيام الحر . كان البيت يتكامل إلى أعلى ، يعنى فى الطابق الأول غرفة الاستقبال ، وفى الطابق الثانى غرفة الطعام ، وهكذا رتباً لصغر مساحة الأرض » ، « وكان البيت بطل على درب قرمز من ناحية ، وعلى ميدان بيت القاضى من ناحية أخرى ، وكان الميدان مليئاً بالأشجار ، كنت أمد يدي فأمسك أوراق الشجر ، كان شجرة نسميه ، شجر ذقن الباشا »

(« نجيب محفوظ يتذكر » ص ١٦ ، ٤٦) .

إذن من (نافذة) غرفة السطح رأى الطفل نجيب محفوظ وقائع ثورة ١٩١٩ ، وهو نفس ما أوضحه في حوار سابق « من نافذة بيتنا . . فى حى الجمالية كانت نظرتى تقع كل يوم على قسم البوليس المواجه للمنزل . . والاحظ أن قوة البوليس الموجودة من الإنجليز المسلحين . . بينما البوليس المصرى كان مجرداً من السلاح . . هذا إذا استثنينا ذلك العدد القليل جداً الذى يحمل سيوفاً .

وفى يوم شاهدت تجمعاً أمام القسم واضطراباً فى داخل فناءه وأفراداً من الشعب يهجمون عليه . . محاولين الاعتداء على البوليس فى الداخل . . لكن بقوة السلاح يتغلب البوليس الإنجليزى على المهاجمين المصريين ويردهم » .

(مجلة « الفكر المعاصر » - سبتمبر ١٩٦٨ - حوار أجراه سامح كريم) .

كانت (نافذة) غرفة السطح هي (المكان) الذي شاهد منه الطفل نجيب محفوظ وقائع ثورة ١٩١٩ ، لكن أمه كانت هناك في لحظة الخطر ، لتقف حائلاً بينه وبين (الفرجة) ، ولتجذبه بعيداً إلى (الداخل) .

ذلك هو (الملمح) كما حدث ، أو كما تذكره نجيب محفوظ ، فلنحاول الإلمام بأطراف أبعاده كما تبدت من خلال معالجاته الفنية أو أية حوارات أخرى مساعدة .

حين تعرض نجيب محفوظ لوقائع ثورة ١٩١٩ في رواية « المرايا » (١٩٧٠) ، التي قدم فيها رؤية (موضوعية) للشخصيات والأحداث التي مرت في حياته ، نجده قد حافظ على منبع مشاهدته لوقائع ثورة ١٩١٩ ، وهو (نافذة) غرفة السطح ، وإن أضواء نقطة جديدة هي أن المتابعة كانت تتم من « وراء شيش النافذة » ، بما يعكس الخوف من المشاهدة المباشرة ، أو لعل الأم كانت تشاركه المشاهدة ، وهذا هو الإحتمال الأرجح ، لأنه يتيح لها إبعاده لحظة الخطر . لكن نجيب محفوظ في رواية « حديث الصباح والمساء » (١٩٨٧) - التي أقام فيها بناءً موازياً لشجرة عائلته - أوضح أن راضية (الموازية للأم) . . . « قد شاهدت ثورة ١٩١٩ من مشربية بيتها العتيق ، وسجلت في قاموسها الخالد ولياً جديداً ، اسمه سعد زغلول » . فهل يعتبر شيش النافذة هو « المشربية » أم أن هذا (تصرف) فني يناسب شخصية راضية التي كانت تتمتع بشخصية مستقلة ؟ ١ .

المهم أن نجيب محفوظ أسقط من معالجته في رواية « المرايا » دور الأم حين كانت تشده بعيداً عن النافذة ، رتباً لأنه كان يسرد حكاية أول شهيد في حارتهم - قتله الإنجليز في مظاهرة - والذي افتتح فصله بفيض من ذكريات الطفولة المستدعاء . . . « اسمه قادر على استدعاء عالم متكامل بأسره . ميدان بيت القاضي المتربع بين الجمالية وخان جعفر والنحاسين ، وأشجار البلخ المثقلة بأعشاش العصافير ، وقسم الجمالية العتيق ، وحوض الماء القائم في الوسط تُسقى منه البغال والحمر ، وكشك حنفية المياه العمومية ، وهو ملعب طفولتي وصباي » .

أما في الحكاية رقم (١٢) من رواية « حكايات حارتنا » (١٩٧٥) ، فإنه يفتحها بملقطة معبرة عن ثورة ١٩١٩ ، ينطلق فيها من مشهد عام إلى مشهد خاص . . .

« ماذا يحدث للدنيا ؟ .. »

يجتاحها طوفان ، يقلقها زلزال ، تشتعل بأطرافها النيران ، تنفجر بعناجرها
المتأفات ..

الميدان يكتظ بالآلاف ، لم يقع ذلك من قبل ، هديرهم يرج جدران حارتنا ويصم
الأذان . إنهم يصرخون ، وبقبضات أيديهم يهددون وحتى النساء يركبن طوابير الكارو
ويشاركن في الجنون ..

وأحلق فيها يجرى من فوق سور السطح وأتساءل عما يحدث للدنيا ..

وتتلاطم الأحاديث مشحونة بكبرياء الوجدان ، وينهمر ميل من الألفاظ الجديدة
السحرية .. سعد زغلول ، ماله ، السلطان ، الهلال والصليب ، الوطن ، الموت
الزؤام .. »

هنا تصوير سينمائي بارع .. انتقال من مشهد عام خارجي ، إلى موقع العين (أو
الكاميرا) التي تصور ، إلى داخل البيت . كأن ذلك الطفل المثبت بنقطة (فوق سور
السطح) يُطل منها ، يتأرجح وجدانه بين خارج عنيف مستغلق ، وداخل مشحون
يُفسر ، إنه في (موقع) معزول يتفرّج منه ، وهو في مأمن ، وانظر لمشاعره وهي تترى ..
« وأقول لنفسي إن ما حدث غريب ، ولكنه مثير ومسلّ شديد البهجة . غير أنني أشهد
مطاردة .. يندفع أناس داخل حارتنا ، يرمون بالطوب ، ويتحصنون بالأركان .
يقنحهم الحارة الفرسان بقبعاتهم العالية وشواربهم الغليظة . تنطلق أصوات حادة غخيفة
تعقبها صرخات ، أنزع من مكان المراقبة إلى الداخل فتطالعني وجوه مذعورة وهمسات
تقول :

- إنه الموت ! .

نرهف السمع وراء النوافذ المغلقة ، لا شيء إلا أصوات متضاربة ، وقع أقدام ،
صهيل خيل ، أزيز رصاص ، صرخة موجعة ، هتاف غاضب ..

يتواصل ذلك دقائق في الحارة ثم يسود الصمت .

إن نجيب محفوظ يضعنا - كقراء - في قلب الحدث أولاً من خلال تلك اللقطة

العامّة ، ثم يجعلنا نتابعه طفلاً يتفرج على ما يجري من فوق سور السطح (وليس من نافذة غرفة السطح) . ثم يقدم مطاردة في (الحارة) بين أناس (من أبناء الوطن) لا يملكون سوى الطوب يقذفون به مطارديهم ذوى القبعات العالية والشوارب النافرة (بالرجوع إلى المشهد الوارد في « المرایا » نفهم أنهم الإنجليز) . ولكن فجأة (يُنزع) من مكانه إلى الداخل (انظر إلى فعل (أنزع) ، إنه مبنى للمجهول ، وكأن يداً مجهولة اقتلعت من مكانه . لكننا نستوعب الموقف على ضوء حوارهِ ، ونفهم أنها يد الأم الخائفة عليه مما يحدث في (الخارج) ، فلا يملكون سوى (الإنصات) لتطور الأحداث ، وسماع ما تسفر عنه .

هنا اختلاف في موقع المشاهدة عنه في الحوار ومشهد « المرایا » ، ووفاء للحوار في التنازع بينه وبين الأم ، وإن أوحى ولم يفسر ، ليتهى الأمر بالتوافق مع حقيقة ما حدث ، فهو لم يشهد إطلاق الرصاص ، وإن : « كنت أريد الفرجة خاصة على ضرب الرصاص » ، وهو ما يتناقض مع ما أورده في « المرایا » . . « ورأيت الدم يلمطخ الملابس وأديم الأرض وسمعت الحناجر تهف » ، لأنه لم ير (حقيقة) هذا المشهد ، وإن بدت ضرورة تركيب مشهد « المرایا » تتطلب مشاهدته (الفعلية) ، لتؤكد فعل استشهاد الطالب الجامعي برصاص الإنجليز .



أما في قصة « أم أحمد » من مجموعة « صباح الورد » (١٩٨٧) ، فإن الراوى (نجيب محفوظ) قدّم ثورة ١٩١٩ في سياق استعادته لعبق الأيام القديمة . . « ودهمنا ثورة ١٩١٩ ونحن ننعم بالهدوء والنعمان ، استيقظت بغتة على دوى الهتاف وفرقة الرصاص ورأيت الألوف الغاضبة . . وحتى أم أحمد رأيتها فوق الكارو تهف . وزارتنا بعد أيام لتسأل إن كنا قد رأيناها . . كانت تتيه دلالاً بالعزة والنصر .

. سينصرنا الله على الإنجليز، ويتم لنا الإفراج عن سعد .

انظر لفعل (دهم) ، للتدليل على عنصر المفاجأة والتقابل بين الهدوء ودوى الهتاف وفرقة الرصاص ، وبين النعمان واليقظة ، بما يؤكد مفاجأته الكاملة . وهذا هو العنصر الوحيد الجديد في المعالجة هنا ، بعد أن أسقط كل العناصر السابقة المكونة للواقعة ، وإن ركز الأضواء على « أم أحمد » كبطلّة للقصة .

أما في رواية « قشتمر » (١٩٨٨) ، فقد قدم نجيب محفوظ جانباً آخر من مشاهداته لوقائع ثورة ١٩١٩ ، أتاح له وجوده في المدرسة الابتدائية متابعته . . . ووقعت واقعة في مدرستنا نفسها ، في أعقاب ما عرف عن نفى الزعماء . المدرسة تجمع أجيالاً متفاوتة في العمر من التلاميذ دخلوها في ظل أنظمة مختلفة . نحن أصغر الأجيال سناً ولكن يوجد تلاميذ في السنة الرابعة بشوارب ! . . وذات صباح خرج من بين الصفوف تلميذ بشارب وصاح بصوت كالرعد « إضراب » ، وحصلت استجابة وهياج . وأمر الناظر أولى رابع بأن تذهب في رعاية المدرسين إلى الفصل مستأذناً الثائرين في استثنائهم من الإضراب لحدائث سنهم . وهدر الفناء بالخطب الحماسية ، ثم تدفق التلاميذ إلى الخارج في مظاهرة عاصفة . أول درس عمل نتلقاه في الوطنية . سرى إلى قلوبنا الحماس رغم الغموض والجهل بما يقع . في بيوتنا سمعنا أصداً ما يحدث في الخارج تتردد بحرارة . لأول مرة يلتقى الآباء والأبناء في عاطفة متأججة واحدة ، حتى الأمهات يصفين وينفعلن . . أبناء المظاهرات يحملها إلى بيوتنا هواء ديسمبر البارد ، ولكننا نتلقاها دافئة بل ساخنة . . ومصارع الشهداء تروى كالأساطير . . دوريات الإنجليز تخرق شارعنا محمولة في اللوريات مدججة السلاح . . الهتافات تترامى إلينا من الحسينية جنوباً ومن الوايلية شمالاً . سعد . يحيا سعد ، الاستقلال التام أو الموت الزمام . وتذاع الأخبار في منازلنا :

- قطعت المواصلات .

- المظاهرات في كل مكان . . الفلاحون يحاربون . .

زلزلت الأرض بغتة ولا تريد أن تسكت . تدفقت العواطف إلى قلوبنا لتخلقنا خلقاً جديداً .

قدم الراوى (نجيب محفوظ) رواية « قشتمر » ، تمجيذاً للصدقة في كمالها وأبديتها ، وهو وإن كان يؤرخ لصدقاته في (العباسية) ، إلا أن هذه (الواقعة) سبق أن شاهدها طفلاً في (الجمالية) ، كما أوضحها في أكثر من حوار ، أذكر منها : « في مدرستنا الأولية . . المواجهة لمسجد سيدنا الحسين . . سمعت هتافات مدوية ، أعقبتها طلقات رصاص ، ولأول مرة تصافح أذننى هذه الكلمة « مظاهرة » حين نطق

بها « المدرس » . . ولكن لم أعرف لم كانت هذه المظاهرات ، وهل لابد أن يصاحب هذه المظاهرات هتافات مدوية ، وطلقات نارية . . عرفت بعد ذلك الاجابة على هذا السؤال .

(مجلة الفكر المعاصر - سبتمبر ٦٨) .

وأيضاً كلماته : « لا أذكر أبداً أيّاً من زملائي في الكتاب ، أو في المدرسة الابتدائي التي كانت مواجهة لمسجد الحسين ، التي يوجد فيها ساعة أثرية . . من هذه المدرسة رأيت المظاهرات ، كانت المنطقة دامية . يمكنك القول أن أكبر شيء هز الأمن الطفولي هو ثورة ١٩١٩ ، شقنا الإنجليز وسمعنا ضرب الرصاص »

(« نجيب محفوظ يتذكر » - ص ٥٢) .

وهي نفس الواقعة التي بدأ بها أولى معالجاته في « بين القصرين » : « وكم أسف يوم دها تلاميذ خليل أغا إلى الإضراب - لأول مرة - فسنحت له فرصة ليشهد مظاهرة عن كتب ، أو يشترك فيها ولو في فناء المدرسة ، ولكن الناظر بادر إلى حجز صفار التلاميذ في فصولهم فأفلتت الفرصة ووجد نفسه وراء الجدران ينصت إلى الهتافات العالية في دهشة ممزوجة بسرور خفي » .



٢- ابن العم

« وامضى لأوزع أوراقاً على أصحاب الحوانيت والمارة ، يتناولونها بدهشة ، يلقون عليها نظرة سريعة ، يتسمون ثم يواصلون العمل أو المشى .
وأرجع إليه - صبرى ، ابن العم - عند رأس الحارة فيسألنى : مبسوط ؟ ...
أهرب له عن سرورى الذى لا يجد له فيقول محذراً : إيتاك أن تخبر حمى أو امرأة حمى ... »

ولا أعلم أننى كنت أوزع منشورات سياسية إلا بعد مرور فترة غير قصيرة .
(الحكاية رقم (١٣) من رواية « حكايات حارتنا »)
« لم يتأخر عن الاشتراك فى المظاهرات لما اندلعت ثورة ١٩١٩ وتوزيع المنشورات ،
وإن جرى تحركه غالباً فى الظل والأمان .
(ليب سرور - رواية « حديث الصباح والمساء »)



هى واقعة توزيع منشورات سرية ، صاحبها ابن العم (صبرى) ، كما أوردها نجيب محفوظ أولاً فى رواية « حكايات حارتنا » (١٩٧٥) كملمح من أيام طفولته وهو ابن الثامنة ، فى ميدان بيت القاضى القديم خلال ثورة ١٩١٩ ، ثم وسّع حكايته مكنياً إيتاه (ليب سرور عزيز) فى رواية « حديث الصباح والمساء » (١٩٨٧) ، تدليلاً على أن الاسم فى المرتين مستعار .

ولكن من هو ابن العم هذا ؟ وهل له وجود واقعي فعلاً ؟ ..

كيف كانت معالجة نجيب محفوظ لتلك الشخصية ولواقعة توزيع المنشورات في روايته ؟ ..

وما هي أهم الملامح التي أسفرت عنها المعالجة الفنية ؟ .



يدلل نجيب محفوظ على (تسرب) ثورة ١٩١٩ إلى وجدانه ، بعد قيامها وهو ما زال طفلاً صغيراً ، في شكل وقائع رواها - في حوار له مع سامح كريمة - منها « يوم أن كنت أسير مع ابن عم لي - الصورة تمرّ في ذهني الآن - هو رجل كبير ، وأنا طفل صغير .. هو يمسك في يده مجموعة من الورق لا شأن لي بها ، وأنا أمسك في يدي شيئاً قد يكون لعبة ، قد يكون قطعة من الحلوى .. هو يتوقف في أماكن معينة يسلم فيها بعضاً من هذه الأوراق التي يحملها .. وأنا طفل تبهرني المناظر التي أشاهدها في الشارع .. ولا أهتم بما يفعل ولا بمن يقابل ..

لقد عرفت بعد ذلك .. أن مجموعة الأوراق المطبوعة التي كان يحملها ابن عمي هي « منشورات سرية للثورة » .. وعرفت أيضاً أنه كان يصحبنى معه ليس للترجمة ، ولكن لكيلا يكتشف أمره »

(« الرجل والقمة » ص ٣٢ - الهيئة المصرية العامة للكتاب)

هنا أسفر نجيب محفوظ . من خلال كلمات حوارهِ ، عن النبع الأساسي ، الأصل ، المادة الخام للفن . وأنظر إلى الصورة المحفورة في ذاكرة نجيب محفوظ بعد أن سقطت تفاصيلها وتاهت في خضم النسيان . لم يبق إلا صورة مجردة ، التقطتها عين طفل صغير يسير في رفقة رجل كبير ، يوزع أوراقاً اتضح فيما بعد أنها منشورات سرية ، بعد أن اتخذ من الطفل ستاراً يخفي به حقيقة تحركاته .. فمن يشك في رجل يصطحب معه طفلاً كغطاء ليوزع منشورات ممنوعة ؟ ..

تلك كانت الصورة الأصلية ، كما جرت في الواقع . ظلت حية في ذاكرة نجيب محفوظ حتى إذا ما جاوز الستين من عمره ، عادت تلحّ عليه ضمن ذكريات طفولته ،

بعد أن نضجت واكتملت في ذاكرته الإبداعية ، فحاول الإمساك بها ووضعها على الورق مرتين : الأولى في الحكاية رقم (١٣) من رواية « حكايات حارتنا » (١٩٧٥) ، والثانية في رواية « حديث الصباح والمساء » (١٩٨٧) ، بعد أن أعمل في الواقعة والشخصية الأصلية (خياله) الفنى ، فأنج معالجة فنية جديدة تضم بين دفتيها ثوابت ومتغيرات . . أما الثوابت فأولها : إبقاء أواصر القرابة أو علاقة الدم التى تربطه بابن عمه كما هى . وثانيها : محافظته على التقابل الأصلى فى الصورة كما كان فى الواقع بين « رجل كبير وطفل صغير » وإن زادها إيضاحًا ، فالرجل : « مهذب : ذكى العينين : قصير القامة ، فى مطلع الشباب » (حكايات حارتنا) ، « وهو بكري ذرية سرور وزينب ، طالع الدنيا بوجه مليح مشرق بوجه أمه ، وقامة دون المتوسط فى الطول رقيقة البنيان كأنها أحدث لتلقى انوثة عذراء » (حديث الصباح والمساء) ، بينما كان نجيب محفوظ طفلًا فى الثامنة من عمره .

أما المتغيرات فأولها : منبت ابن العم ، فبينما نجده ريفيا فى « حكايات حارتنا » ، بعد أن عرّفوه به يضيف : « أعرف أباه - عمى - معرقة سطحية فهو لا يبرح الريف إلا نادرا ، أما صبرى فإنه يرى القاهرة لأول مرة » ، تدليلاً على أصله الريفى . ثم نراه فى « حديث الصباح والمساء » يرسم ملامحه . . « ومن عجب أنه طبع منذ طفولته على الهدوء والرزانة وكأنها ولد بالغ الرشيد . ولم يجاوز لعبه الوقوف أمام باب البيت لي شاهد الأشياء أو يتابع تحركات ابن عمه قاسم - الذى يصغره بسنوات - وهو يتعفرت كأمثاله ، أو يتمشى فى الميدان بقرقرز اللب » تأكيدًا لمولده (المدينى) ونشأته فى ميدان بيت القاضى إلى جوار ابن عمه قاسم أو نجيب محفوظ (حيث شاد نجيب محفوظ فى رواية « حديث الصباح والمساء » بناءً موازيًا لحياة أفراد شجرة عائلته ، متواريًا وراء اسم « قاسم ») .

ثانى هذه المتغيرات التى تتعلق بابن العم ، هى المرحلة التعليمية التى باشر خلالها توزيع المنشورات إبان ثورة ١٩١٩ ، ففى « حكايات حارتنا » نتعرف على تلك المرحلة من حوار الراوى (نجيب محفوظ) الذاتى : « وأعرف أيضًا من أحاديث الليل أن عمى أرسله إلى القاهرة ليلتحق بإحدى مدراسها الثانوية بعد أن ترامت أنباء نشاطه الثورى من موطنه إلى مراكز الأمن » . أما فى « حديث الصباح والمساء » فتابعه بعد أن التحق

وهو صغير السن بمدرسة الحقوق : « وذهب إلى المدرسة لتحديق به الأعين بدهشة ، ونحوم من حوله التعليقات الساخرة عن « مدرسة الحقوق الأولية » و « روضة الأطفال الملكية » ، ولم تتغير النظرة نحوه حتى أثبت تفوقه وقدراته . بل لم يتأخر عن الاشتراك في المظاهرات لما اندلعت ثورة ١٩١٩ » .

ثالث هذه المتغيرات هي واقعة توزيع المنشورات ومن قام بها : في « حكايات حارتنا » نتابع (نجيب محفوظ) وهو يحكى بضمير المتكلم عن واقعة توزيع المنشورات دون أن يعرف كنه ما يفعل . . . « وأمضى لأوزع أوراقاً على أصحاب الحوانيت والمارة ، يتناولونها بدهشة يلقون عليها نظرة سريعة ، يتسمون ثم يواصلون العمل أو المشي » . أما في « حديث الصباح والمساء » . . . فقد جنح نجيب محفوظ إلى صياغة عامة مبهمه ، غير محدودة وهو يقدم شخصية ابن العم بضمير الغائب . . « بل لم يتأخر عن الاشتراك في المظاهرات لما اندلعت ثورة ١٩١٩ وتوزيع المنشورات وإن جرى تحركه غالباً في الظل والأمان » .

لقد حدث انقلاب في الأدوار ، فبينما كان ابن العم في (الواقع) هو الذى يوزع المنشورات ويتخذ من وجود الطفل (نجيب محفوظ) سناراً ، إذا بالطفل في « حكايات حارتنا » هو الذى (يُستغل) بمعرفة ابن العم ، ليس كمراقب سلبي - كما حدث في الواقع - بل ليقوم بدور إيجابى خطر ، فقال ، حين يقوم منفرداً بتوزيع المنشورات ، وابن العم يتظره بعيداً عند رأس الحارة ، ليحذره بعد أن تتم العملية . . « إياك أن تخبر عمى أو امرأة عمى » ، ثم يواصل (نجيب محفوظ) في « حديث الصباح والمساء » تدعيم هذا التحول بصياغة موحية ، بأن تحرك ابن العم لتوزيع المنشورات جرى غالباً في (ظل) الطفل نجيب محفوظ ، وهو (آمن) بعيداً عن الخطر عند رأس الحارة .

هنا لابد أن يتبادر إلى الذهن تساؤل ملح وهو يرى أصل الواقعة - المستدعى من الذاكرة - قد تأرجحت معالجته فنياً بين عدد من الثوابت والمتغيرات في « حكايات حارتنا » و « حديث الصباح والمساء » ، فلماذا فعل نجيب محفوظ ذلك ؟ . .

فلنحاول أن نفهم العلاقة بين شخصية ابن العم في (الواقع) وشخصيته (الروائية) إن هذه الشخصية بمجرد دخولها العمل الفنى (« حكايات حارتنا » ، أو « حديث

الصباح والمساء ») يتدخل (خيال) الكاتب المبدع ليضيف إليها أو يستبعد منها ، فيجرى عليها بعض التغيرات التي تتطلبها العمل الفني ، لتصبح نبأً مهجناً من الواقع والخيال ، دون أن تكون إنعكاساً كاملاً لأيهما ، ففي « حكايات حارتنا » ارتأى نجيب محفوظ أن يكون ابن العم وافداً جديداً للمرة الأولى إلى القاهرة للالتحاق بالمدرسة هرباً من القرية . . . « بعد أن قرأت أنباء نشاطه الثوري في موطنه الأصلي إلى مراكز الأمن » ، حتى يضمن عليه نشاطه الثوري هالة تثير خيال الطفل البافع ، وتمهد - في ذات الوقت - لواقعة توزيع المنشورات . لقد حاول نجيب محفوظ أن يحقق لبنائه الفني أقصى تقابل ممكن بين الطفل والشاب ، لإنجاح حكايته فنياً .

أما التحول الذي انقلب فيه الأدوار ، حين كان (الواقع) أن ابن العم يوزع المنشورات ، متخذاً من الطفل نجيب محفوظ ستاراً . . وهذا تصرف عادي ، متوقع من شخص بالغ أثناء الخطر ، أن يصطحب معه طفلاً للتمويه . أما الجديد ، الذي ابتكره (الخيال) الذكي ، فهو ما حدث في « حكايات حارتنا » حين كان الطفل هو الذي يوزع المنشورات - دون معرفة بفحواها - بينما ابن العم ينتظره بعيداً ، آمناً ، عند رأس الحارة . وقد يرجع هذا التحول إلى رغبة دفينية لدى نجيب محفوظ ، في المشاركة في أحداث ثورة ١٩١٩ ، لكنها ظلت موءودة بحكم كونه طفلاً في ذلك الوقت ، فإذا به - فنياً - يشبع هذه الرغبة ويحقق ذلك الحلم الذي طالما راوده ، بل إنه صعد من مشاركته حين جعل من نفسه طفلاً مستغلاً ، في ركوب المخاطر وحده دون مساعدة ، لكنه - على الأقل - اكتسب شرف المشاركة في جانب من أنشطة ثورة ١٩١٩ ، فتحرر من رغبة عارمة طالما أرقت ، دون أن يجد لها متنفساً في (الواقع) ! .



بعد أن أفرد نجيب محفوظ الحكاية رقم (١٣) من « حكايات حارتنا » ، ليعرض فيها واقعة توزيع المنشورات بتفصيل محكم ، كان حتماً أن يعود مرة أخرى إلى تناول ذات شخصية ابن العم في رواية « حديث الصباح والمساء » بعد انقضاء أكثر من اثنتي عشرة سنة ، وقد تجاوز الخامسة والسبعين من عمره ، حين أصبحت حركة المصائر الكلية تستأثر باهتمامه أكثر ، لذا لم يعد إلى ذات واقعه إلا تلميحاً ، فالفنان العظيم لا يكرر نفسه أبداً ، بل وضع حياة ابن العم هذا في بؤرة ضوء ساطع منذ المولد حتى الممات .

فإذا هو . . . « طبع منذ طفولته على الهدوء والرزانة » التي كانت سبباً وراء إرساله إلى الكتاب مبكراً ، لينبغ ويمجتاز اختبار القبول ، ويلتحق بالمدرسة الابتدائية وهو ابن ست ، ويستمر في التفوق بلا مساعدة ، لينهى المدرسة الابتدائية ابن عشر ، ويحصل على البكالوريا وهو ابن ست عشرة ، وبمساعدة من (باشا) قريبهم ، التحق بمدرسة الحقوق ، حيث أفحم اجتهاده وتفوقه تعليقات زملائه الساخرة . . . « بل لم يتأخر عن الاشتراك في المظاهرات لما اندلعت ثورة ١٩١٩ وتوزيع المنشورات وإن جرى تحركه غالباً في الظل والامان » ، فحصل على الليسانس وهو ابن ثمانى عشرة ، معدوداً ضمن العشرة الأوائل ، والتحق بعد فترة بالنيابة ، حيث . . . « أثبت دائماً كفاءة ونزاهة كوكيل نيابة وقاض فحاز الثقة والاحترام ، لكن ظروف أسرته حثمت عليه تأجيل الزواج حتى يعاون في تربية إخوته وتزويج أخواته . ومن ناحية انطلقت غرائزه المكبوتة لتستعقب عَمَّا فاتها في الطفولة والصبا والمراهقة ، وإذا به يولع بالخمر والنساء ، فيمارس العريضة والفسق مع المحافظة على تقاليد مهنته ما وسعه ذلك » .

نحن هنا إزاء شخصية تتمتع بنبوغ مبكر سابغ لعمرها ، لذلك وظفت هذا النبوغ لتحقيق كيائها ، حتى إذا ما حقق ذاته ، بدأ يحاول تعويض ما انقضى من سنوات عمره ، لكنه ظل دائماً متفتحاً كالطبيعة ، فلم ينعزل في صومعة مجده ، بل ساعد أسرته مضحياناً في سبيلها ، ولم ينقطع عن زيارة أفرادها في جميع فروعها . . . « وراح يتابع أثر الثورة فيها مع الحرص التام في الإفصاح عن ذاته » .

ثم حدث له التحول الثانى في حياته حين رقى إلى رئاسة محكمة استئناف الإسكندرية وقارب منه المعاش ، فاندفع بكل فواه في طريق العبادة لحد الدروشة ، وتزوج من إحدى بنات الهوى عرفها مطربة من الدرجة الرابعة بملهى ليلي على عهد الشباب ، وكانت قد كفت عن الحرفة لكبر سنّها، ولكنها لم تعطل تماماً من الأنوثة، وعاشا معاً في سلام زهاء عام ، وكانت الخمر قد استهلكت كبده فأصابه نزيف داخلى وهو يرأس المحكمة بالإسكندرية ، ليسلم الروح بعد نقله إلى القاهرة .



كانت تلك رحلة مع ابن عم نجيب محفوظ . بدأت من صورته مخترنة في الذاكرة وهو

ابن الثامنة ، لأصل موجود في الواقع خلال واقعة توزيع المنشورات أثناء ثورة ١٩١٩ ، استعادها نجيب محفوظ مرتين : الأولى في « حكايات حارتنا » (١٩٧٥) بعد أن جاوز الستين من عمره فإذا به يركز خلالها على واقعة توزيع المنشورات ، محققاً حلماً طالما عشقه بأن يشارك في ثورة ١٩١٩ ، لذا قام بإحلال نفسه محل ابن عمه ، وقام هو بتوزيع المنشورات السرية ، دون أن يدري بحقيقتها . لكنه لم يتحرر تماماً من شخصية ابن العم ، فكان حتماً أن يعود إليها ثانية في رواية « حديث الصباح والمساء » (١٩٨٧) محاولاً استقراء حياة ابن العم بكاملها ، ربّما معتمداً على وقائعها الحقيقية ، ليجد تفسيراً لهذا (الجزء) الذي شارك فيه في توزيع المنشورات من خلال مراجعة (كل) حياته ، فإذا به يتلمس كشفاً للنفس البشرية ، فقد تولد بعض الشخصيات بإمكانيات ذهنية عالية سابقة لزمانها ، كهبة طبيعية ، تتيح لها القدرة على الولوج إلى جوهر الأشياء دون التوقف عند السطح أو المظهر الخارجى الخادع . فإذا به يمضى مسرعاً ، ليتبوأ مكانه المناسب ، لكنه لم ينعزل في برج مجد عاجى زائل ، بل عاش في (الواقع) مضحياً من أجل مساعدة أسرته ، محافظاً - في ذات الوقت - على علاقته بجميع فروعها ثم حاول أيضاً أن يعوض ما فاتته من سنوات عمره المنقضى ، ونال حظاً وافراً من السعادة ، كما وازن بين تأدية دوره العملى والثورى حين شارك في ثورة ١٩١٩ . ولكن كان حتماً أن ينال في النهاية (جزاء) معصيته ، التى كانت سبباً في نهاية .



٢. زعيم التلاميذ وأول مظاهرة

« وأذكر الآن يوم أن اشتركت في أول مظاهرة .. كان ذلك في مدرسة الحسينية الابتدائية .. حين وقف بيننا زعيم الطلبة وكان أكبر منى سنًا .. وبلغنا أن هناك خلافًا بين الملك فؤاد وبين سعد زغلول .. وسبب الخلاف هو من يكون مصدر السلطان .. الأمة أم الملك ؟ »

والحق أن حماسة « عبد المنعم » - وهذا هو اسمه - كانت تدعو إلى الإعجاب .. الأمر الذي جعلنى لا أخشى شيئًا - بالرغم من أن عمري في هذه الفترة كان بين العاشرة والحادية عشر - عندما طلب منا أن نتبعه للتوجه إلى ميدان عابدين .. حيث قصر الملك » .

(من حوار نجيب محفوظ مع سامح كريم - كتاب « الرجل والقمة » ص ٣٤)
« كان بطلاً من الأبطال في حياتنا الصغيرة بالمدرسة الابتدائية ما بين عامى ١٩٢١ ، ١٩٢٥ ، كان يكبرنا بأعوام وكان قويًا طويل القامة ، ومنذ أول يوم لنا في المدرسة قيل لنا إنه زعيم التلاميذ بالمدرسة . وكنا نلتف حوله في فناء المدرسة ونتابع كلامه باهتمام ، »
« ونحتم زعامته اشتركت في أول مظاهرة في حياتى عام ١٩٢٤ » .

(فصل « نادر برهان » - رواية « المرايا »)

* * *

هى واقعة الاشتراك فى أول مظاهرة ، قادها « عبد المنعم » فى الواقع ، كما أوردها نجيب محفوظ فى حوارهِ ، كملمح من أيام طفولته ، ثم الوجه الفنى المقابل لها ، حين

تناول ذات الواقعة في رواية « المرايا » (١٩٧٢) مكتنبا إتياء « نادر برهان » وموسعا من حكايته .

ما هي الثوابت والمتغيرات في هذه المعالجة ؟ . .

وهل امتدت ظلال تلك الواقعة إلى أعمال أخرى له ؟ وما هي تلك الأعمال ؟ وما أوجه الاختلاف في المعالجة ؟ . .

وأخيرا ما هو منظور (الإبداع) الذي يجمع بين دفتيه تلك التوزيعات المختلفة ؟ .



نحن هنا في مواجهة المادة الخام ، النبع الأصلي ، الحدث الواقعي الذي عايشه نجيب محفوظ طفلاً في مدرسته الابتدائية . وظلّ حياً في (ذكرائه) ، مشكلاً المادة الأساسية لإحدى شخصيات « المرايا » ، ثم امتدت أصداؤها إلى عددٍ من أعماله الأدبية الأخرى . .

ولتوقف أولاً أمام عدد من العوامل التي ثبتت تلك الواقعة في (ذاكرة) نجيب محفوظ . . أول تلك العوامل أنها أول مظاهرة اشترك فيها وهو طفل صغير في المدرسة الابتدائية . والتجربة الأولى في أي مجال يظل لها ألقها وبريقها ، الذي يبقيا حياة مؤثرة في خيالنا . وهي أول تجربة له في اقتحام (العمل السياسي) مجال (الكبار) المحفوف بالمخاطر ، إنها نقطة تحول فاصلة على طريق الطفولة والنضج ، وخروج من عالم الطفولة (المدرسة الابتدائية) إلى عالم الكبار (المجتمع) ، في محاولة لإبداء الرأي وتحقيق الذات .

كيف عالج نجيب محفوظ تلك الواقعة وصاحبها في رواية « المرايا » ؟

اتسمت معالجة نجيب محفوظ الفنية بعدد من الثوابت والمتغيرات . أما الثوابت فقد أبقى على أهم صفه في زعيم المدرسة الابتدائية - كما أوضحها في حوار - وهي أنه : « كان أكبر مني سنًا » فإذا به يحولها في « المرايا » من المقارنة الذاتية المحدودة إلى مقارنة عامة ، مع تدعيم ملامح الزعامة فيه . . « كان يكبرنا بأعوام ، وكان قويا طويلا القامة ، ومنذ أول يوم لنا في المدرسة قبل لنا إنه زعيم التلاميذ » .

أما أول المتغيرات فامتدت إلى الاسم فبدلاً من « عبد المنعم » إذا هو « نادر برهان » واختيار اسم الشخصية عادة عند نجيب محفوظ له دلالة فنية . وهو هنا يعكس (ندرة) وجود مثل هذا النموذج في المدارس الابتدائية ، وهو (برهان) على مشاركة نجيب محفوظ في العمل السياسى منذ يفاعته الأولى .

ثانى المتغيرات هو لقب هذا الزعيم ، ففى حين كان فى الحوار « زعيم الطلبة » وهو تعبير يميل إلى التعميم ، ربيماً لبعء الفترة الزمنية ، كما أن معنى (الطلبة) ينصرف إلى الدارسين فى المراحل التعليمية الثانوية والعالية . نجد أن نجيب محفوظ عند الكتابة الأدبية فى « المراهبا » يتحرى الدقة ، فإذا هو « زعيم التلاميذ » أولئك الذين يدرسون فى المدرسة الابتدائية .

وفى الوقت الذى أبقى فيه نجيب محفوظ على واقعة الاشتراك فى أول مظاهرة كما هى ، إلا أنه قام بتحويل حماسة « عبد المنعم » التى كانت تدعو إلى الاعجاب ، وتجعل نجيب لا يخشى شيئاً ، كما يتنهما فى حوار ، إلى ترجمة فنية معادلة من خلال موقف مرسوم يقنع القارئ بزعامة من ناحية ، وبمهد لما يلى من وقائع من ناحية أخرى :

« وكنا نلتف حوله فى فناء المدرسة ونتابع كلامه باهتمام ، وكان يقول :

- لا تستصغروا أنفسكم فأنتم جنود سعد ، أى جنود الوطن . .

وكان يقول أيضاً :

- علينا أن نوطن أنفسنا على قبول الضرب أو السجن أو حتى المشقة ، فلا قيمة للحياة بلا حرية ، ولا حرية بلا تضحية ، وقد أرسل الله لنا سعد زغلول زعيماً ، وعلينا أن نكون جديرين بزعامته . . . » .

كما أضاف ملمحاً صغيراً ، يدعم زعامة « نادر برهان » وصغر سن نجيب ، والفن دائماً يعتمد على التفاصيل الصغيرة : « وكان إذا تقرر اضراب انتظر نادر برهان حتى تتظمن طوابير الصباح ، ثم يتقدم خطوات إلى الأمام ويأخذ فى التصفيق بقوة ، وسرعان ما تدوى الطوابير بالتصفيق . وعند ذاك يبادر ضباط المدرسة إلى طوابير التلاميذ الصفار فيمضون بهم إلى الفصول بسماح من التلاميذ المضربين ، فتوضى ونحن نهتف

بحياة سعد ، ويذهب الباكون في مظاهرة على رأسها نادر برهان إلى الطريق ، فيلتقون بتلاميذ المدارس الأخرى .

ويؤكد جسارة الزعيم بواقعة أخرى : « وفي إحدى المظاهرات أصيب برصاصة في ساقه ف قضى في المستشفى شهرين ، ثم لازمه عرج خفيف بقية عمره » .

انظر إلى توظيف التفاصيل الصغيرة ، حتى تراكم ملامح الشخصية ، ويكتمل رسمها فنياً ، ويصبح الجو مهيباً للدخول إلى خضم الواقعة الأصلية : « تحت زعامته اشتركت في أول مظاهرة في حياتي عام ١٩٢٤ ، دعانا إلى الإضراب وخطب فينا قائلاً إن الملك يريد أن يتلاعب بالدستور وأن سعد زغلول رئيس الوزراء - تلك المرة - يقف في صلابة للدفاع عن حقوق الشعب ، وإن علينا أن نذهب إلى ميدان عابدين لتأييد الزعيم » .

ولتوقف هنا أمام فرق جوهرى في الحافز على الاشتراك في المظاهرة ، فيبينها كان الحافز في الحوار هو حماسة زعيم التلاميذ التى تدعو إلى الإعجاب . . « الأمر الذى جعلنى لا أخشى شيئاً » هنا تصرف نجيب محفوظ بوحى من تأثره الذاتى ، (ربما تحملاً أيضاً) منفصلاً أو متناسياً الواقع الخارجى للمدرسة ، الذى يمنع خروج الاطفال الصغار . لذلك كان منطقياً ، حين تصدى للكتابة ، أن يستكمل إقامة بنائه الفنى موفقاً بين قناعته (الذاتية) وقواعد المدرسة ، بأن يضع تبريراً لخرقها : « ولما كانت حكومته - الزعيم - شعبية لأول مرة ، ولما كان رئيسها هو وزير الداخلية ، فقد سمح لنا بالاشتراك في المظاهرة باعتبارها مظاهرة سلمية » .

نقطة أخرى لابد من إثارتها هنا ، وهى عمر نجيب محفوظ عندما اشترك في تلك المظاهرة . ولعل الفاصل هنا هو تحديد الواقعة التاريخية (زمنها الحقيقى) التى استدعت خروج تلك المظاهرة مع مظاهرات أخرى إلى ميدان عابدين . وهو يتطلب بالتالى تحديداً لأهم ملمح فى تلك المظاهرات ، يساعدنا فى الاستدلال على موقعها وزمن حدوثها تاريخياً . لقد أوضح نجيب محفوظ فى حوار السابق : « فقط كنت أعرف أنه ينبغى الوقوف إلى جانب سعد وترديد كلمات « سعد أو الثورة » . كما ورد فى رواية « المرايا » : « ورحنا ندق باب القصر بأيدينا ونهتف « سعد أو الثورة » ، ثم امتدت

أصدائها إلى روايته الأخيرة « قشمر » (١٩٨٨) - التي يسرد فيها الراوى (نجيب محفوظ) تاريخاً لعدد من أصدقائه في العباسية - « وفي ذلك الوقت اشتركنا لأول مرة في مظاهرة وطنية . لم نعد أطفالاً من ناحية والمظاهرة مأمونة العواقب من ناحية أخرى ، فوزارة الداخلية هذه المرة بيد زعيم الأمة ورئيس الوزراء . في أثناء طابور الصباح خرج رئيس الطلبة وصاح بصوته الجمهورى « إضراب » . واندفعت الصفوف نحوه في عجلة ولهوجة ، فخطبهم مركزاً على أزمة بين الزعيم والملك ، وأن على الشعب أن يتجمع في ميدان عابدين لتأييد الزعيم دون قيد أو شرط . وماج الميدان بالخلق من كل صنف ، كيوم الاستقبال ، ولكنه يفور هذه المرة بالغضب ، ويهتف من أحماقه « سعد أو الثورة » ، أما في رواية « حكايات حارتنا » (١٩٧٥) في الحكاية رقم (١٩) نجده قد ركز على اشتراك الراوى (نجيب محفوظ) في المظاهرة (الكبرى) ، محاولاً كشف أهم أبعادها من خلال حوار مع الأب ، حين يوضح الابن (نجيب) بعد اشتراكه في المظاهرة . .

« - رئيس الطلبة ، قال إن سعد زغلول قدّم استقالته احتجاجاً على موقف الملك من الدستور ، وإننا ذاهبون لتأييد الزعيم . .

وحين يتساءل أبوه « - عظيم ، وماذا كان هتافكم في عابدين ؟ . .

- سعد أو الثورة » .

إذن لقد اتضح السبب أخيراً ، حين قدّم سعد زغلول استقالته احتجاجاً على موقف الملك تعالت هتافات الجماهير المؤيدة « سعد أو الثورة » فإذا رجعنا إلى كتاب « في أعقاب الثورة المصرية » للمؤرخ عبد الرحمن الرافعى لوجدنا أن تاريخ استقالة سعد هو ١٥ نوفمبر ١٩٢٤ ، التي قدّمها الزعيم للعمل « على تدعيم الحياة الدستورية » وعلق استردادها على قبول الملك لعدد من المطالب ، فقبلها الملك وانفجرت الأزمة .

إذن جرت المظاهرة في عام ١٩٢٤ ، وهو نفس التاريخ الذى أورده نجيب محفوظ في « المرايا » ، لأنه حين يكتب يلتزم بتواريخ الوقائع الخارجية كأي فنان . وكان عمره عندئذ ثلاثة عشر عاماً ، على عكس ما أورده في حوار مع سامح كريم من أن عمره كان بين العاشرة والحادية عشرة . وكان فعلاً في المرحلة الابتدائية ، كما يّين في « المرايا » ما بين عامي ١٩٢١ ، ١٩٢٥ .

إلى هنا كان انعكاس الواقع في « المرايا » و « حكايات حارتنا » متعادلاً ، بمعنى الالتزام بزمته الخاص وعمره لحظة تزامنه مع المظاهرة ، وتاريخ استقالة الزعيم . لكنه في رواية « قشتمر » - التي كتبها تمجيذاً للصداقة في « كمالها وأبديتها » حول أربعة من أصدقاء عمره في العباسية - لم يلتزم بالوقائع التاريخية الخاصة به (المدرسة الابتدائية وزمن مرحلتها ، وإن التزم بطبيعة الحال بتاريخ استقالة النحاس) حين أوضح أنه وأصدقاؤه . . . « التحقنا بمدرسة فؤاد الأول الثانوية لنُضمَّى بها خمسة أعوام ما بين ١٩٢٣ ، ١٩٢٨ » ، وإنهم بعد أن عرفوا مقهى « قشتمر » في أواخر عام ١٩٢٣ أو أوائل ١٩٢٤ . . . في ذلك الوقت اشتركنا ولأول مرة في مظاهرة وطنية » .

هنا حوّر نجيب محفوظ في بعض مفردات واقعه الخاص وللفنان الحق والحرية في تعديل معطيات عالمه الخاص الذاتي ، وفقاً لمنطق ومتطلبات الفن . ولعل نجيب محفوظ عند كتابته « قشتمر » (١٩٨٧) كان قد تحرر من أسار رغبته القديمة في تأكيد مشاركته السياسية في العمل الوطني طفلاً صغيراً ، بعد أن أثبتها في أكثر من عمل . ولعله اعتبر أن المهم هو الاشتراك ذاته ، إضافة إلى أن تلك المشاركة تعتبر حلقة (ثانوية) في سلسلة طويلة من الأحداث في « قشتمر » . لكنه - في ذات الوقت - حافظ على إبراز الحافز الحقيقي للاشتراك في المظاهرة ، وهو الانسياق وراء حركة المجموع ، الذي أعلنه سافراً واضحاً في حوارهِ مع سامح كريم : « الرجل والقمة » ص ٣٤ حين قال : « لقد كنت منساقاً وراء هذه المجموع المتوجهة إلى عابدين لتدعيم موقف زعيمها سعد زغلول . . فلم أكن اميّز ما أقوله . . فقط كنت أعرف أنه ينبغي الوقوف إلى جانب سعد وترديد كلمات « سعد أو الثورة » ، وأعتقد أن آلافاً من الناس صفاراً مثلي وكباراً أيضاً كانوا مندفعين نفس الاندفاع » .

أما في أعماله الفنية المتعاقبة ، حين عرض تلك الواقعة ، جنح إلى اللامباشرة التي هي جوهر الفن ، فتوالت تلك الأصدقاء غير المباشرة ، عبر تنويعات تعزف ذات النغمة فينما لم يرد لها ذكر في « المرايا » ، نجد الأب في الحكاية رقم (١٩) من « حكايات حارتنا » يحاصر الابن (نجيب محفوظ) حين يسأله :

« هل عرفت وجه الخلاف بين سعد والملك ؟ »

وأنوقف عن الاسترسال مرتبًا فيضحك أبى ولكنى أبادره :

- نحن مع سعد وضد الملك ! .

لقد انساق الطفل مع الجموع دون أن يدري ، لأن وعيه كطفل كان قاصرًا عن أن يستوعب تلك الحقيقة ، ولعل الانساق وراء حركة الجموع هو ما جعل نجيب محفوظ ينقل هذا الفعل من المدرسة الابتدائية إلى المدرسة الثانوية في رواية « قشمر » ، تدليلاً (بشكل عام) على أن العمر لا يؤثر على انقياد الفرد إلى حركة الجموع . وإن أضاف فيها تنويعاً أخرى لذات المغزى . وانظر لهذا المقطع من « قشمر » :

« ولدى عودتنا سأل صادق صفوان :

- ولكن ما أسباب الأزمة ؟ ..

ووضع لنا إتنا لا ندري عنها شيئاً ولكن اسماحيل قدرى قال بحزم :

- نحن على أى حال مع سعد لسبب ولغير سبب وضد الملك بسبب وبغير سبب .

واتفقت قلوبنا على ذلك . وما يذكر إتنا لم نعرف أسباب الأزمة ، أو لم نهتم بمعرفتها إلا بعد إنقضاء أعوام طويلة ونحن نسترجم الأحداث بعد أن صارت تاريخاً .

انظر لتعبير . « واتفقت قلوبنا على ذلك » ، فالقلب تحفزه العاطفة ، بينما الوعي محله العقل . هنا انقياد عاطفى جامع حاول محفوظ أن يؤصل جذوره ، حين أضاف في رواية « قشمر » في أعقاب المقطع السابق : « في ذلك الزمان صهرنا الوفد في أتون وطنيته فبُعِثنا على يديه خلقاً جديداً » ، ثم يستطرد . . « علمنا الوفد ماذا نحب وماذا نكره ، وبأى قوة نحب وبأى قوة نكره ، واجتاحتنا القضية الوطنية وملكنا قلوبنا وغطت على الأسرة والمستقبل والأمل الشخصى . واندفعنا مع طوفان الحزبية بنفس القوة والعنف » .

هنا تصعيد محسوب صنعه الفنان نجيب محفوظ على عدة مستويات ، فبعد التعميم في الاندفاع وسط سياق حركة الجموع دون وعى (كما ورد في الحوار) ، إذا بنجيب محفوظ يحاول أن يتفحص أسباب هذا الاندفاع وأن يلم بأبعاده وذلك في معمل فنه ، فإذا به يكتشف أن الانقياد إلى حركة الجموع لا يخضع لمعطيات العمر ، فالطفل

الصغير في الابتدائي ينقاد كما يحدث مع الصبي أو الشاب في الثانوى ، كما ينجذب أيضاً بقية الناس . وإذا ما حاول (البعض) تفهم الأسباب الكامنة وراء هذه الظاهرة . فإنهم يرجعونها إلى إتفاق (القلوب) على التوحد مع الزعيم ضد الملك بشكل مطلق . وإن كان نجيب محفوظ قد بين مبررات التحزب للزعيم ، في حوار السابق مع سامح كريم ، بشكل صريح مباشر حين قال : « إن الذى أكد حبّ سعد فى نفوسنا . . البيت والشارع والمدرسة : فى البيت لا حديث إلا عن سعد ومواقفه . . فى الشارع ليس هناك من أخبار وتعليقات إلا عن سعد . . فى المدرسة لا ينتهى اليوم الدراسى إلا ونكون قد ازددنا علماً بما يحدث بين سعد الذى يمثل الأمة فى ذلك الوقت والإنجليز المحتلين » .

إذن ، لقد اتضحت أبعاد الموقف . . إنه حب الوطن والانتفاء له ، ضد القصر والإنجليز ، تفجر إيماناً بحزب الأغلبية (الوفد) ، وحباً متعصباً كاملاً لزعيمه ، كان يحتم مناصرة مواقفه دون قيد أو شرط ، بحيث « ملكت » القضية الوطنية « قلوبنا » . وانظر إلى تكرار كلمة (قلوبنا) موطن الشاعر والأهواء ، فبعد أن تتفق (القلوب) على القضية الوطنية ، فإنها تسلم قيادها لها حتى تملكها تماماً ، عندئذ يلغى العقل والمنطق ، وتسقط حسابات الأسرة والمستقبل والأمال الشخصية ، حيث يتحول الأفراد (تلاميذ ، طلبة ، مواطنون) إلى أجزاء ضئيلة من (طوفان) الحزبية الجارف ، لتندفع الأجزاء بنفس قوة الطوفان وعنفه ١١ .



أسقط نجيب محفوظ فى كل معالجاته الفنية السابقة ما فعله أثناء المظاهرة ، وهو ما عبّر عنه فى حوار بقوله : « كانت قيادة المظاهرات بالتناوب . . وإننى أذكر بهذه المناسبة . . أنه عندما جاء على الدور لقيادة المجموعة التى كنت فى وسطها . . رددت « نجيا سعد . . نجيا سعد » حتى أن أحدهم صحح لى هتافى قائلاً : « نجيا سعد وليس نجيا سعد » .

لكنه بالمقابل أضاء نقطة هامة حول مخاطر الاشتراك فى المظاهرات ، والتى بدت فى خاتمة الحكاية (١٩) من « حكايات حارتنا » ، حين قال الراوى (الطفل / نجيب محفوظ) بحماس :

« الاشتراك في المظاهرة أمتع من أى شيء في الدنيا .

فيتسم أبى ويقول :

« بشرط ألا يشترك فيها الإنجليز ! » .

وهى إجابة موجزة ، سبق أن فترها نجيب محفوظ بشكل عملي . وبالتفصيل في الجزء الأول من الثلاثية « بين القصرين » حين كان التلميذ (كمال) في مدرسة خليل أغا الابتدائية ، حيث حجز الناظر صغار التلاميذ ، حتى اقتربت مظاهرة خارجية « وتداني الهتاف وعلا حتى أطبق على فناء المدرسة ذاتها فوجمت قلوب التلاميذ وأيقنوا أن الطوفان لابد مفرقهم ، ولكنهم قابلوا ذلك بسرور صياني تنكّب عن تقدير العواقب في حية نزوحه إلى الفوضى والانطلاق ، ثم ترمى إليهم وقع أقدام مقبلة في سرعة وصخب ، ثم فُتح الباب على مصراعيه تحت وقع صدمة عنيفة واندفعت إلى الحجرة جماعات من الطلبة والأزهريين كما تندفع المياه من فوهة الخزان وهم يصيحون : " إضراب .. إضراب .. لا ينبغي أن يبقى أحد " ، وفي لحظات وجد نفسه غائصاً في موج مصطخب يدفعه أمامه دفعا يعطل كل مقاومة وهو من الاضطراب في غاية ، تحرك في ببطء شديد تحرك حبوب البن في فوهة الطاحونة لا يدري أين تقع عيناه ، ولا يرى من الدنيا إلا أجساماً متلاصقة في ضجة نصك الأذان حتى استدل بظهور السماء فوق رأسه على بلوغ الطريق ، واشتد الضغط عليه حتى كادت تكتم أنفاسه فصرخ صراخاً حاداً عالياً متواصلًا من شدة الفزع ، وما يدري إلا ويد تقبض على ذراعه وتجلبه بقوة وهى تشق بين الناس طريقاً حتى ألصقته على الطوار ، فراح يلهث ويتلمس فيأ حوله منجى حتى عثر على دكان حمدان بائع البسبوسة . وهناك سمع امرأة « كيف يصرون على التظاهر بعد ما كان من إطلاق النار عليهم ؟ ! » .

* * *

إذا كان نجيب محفوظ قد تحدث في حوارهِ عن أول مظاهرة اشترك فيها في ميدان عابدين ، فإنه كشف فيه عن رغبته في مشاهدة الزعيم .. « ويشد انتباهي مشهد هذه السيارة التى تشق طريقها بصعوبة بين هذه الكتل البشرية .. وسمعت من بجوارى يقولون « عربية سعد » وهنا لم أفكر في شيء .. قدر تفكيرى في رؤية هذا الرجل الذى

جاء ليقابل الملك . . ولكن كيف ذلك وسط هذا الزحام المنقطع النظير . .

وأذكر أنني بذلت محاولات لتقريب المسافة بيني وبين ركب سعد، وذلك بالتقدم إليه . . على أن أصبح على مدى النظر، إلا أن المتظاهرين إلتفوا حول السيارة ، وحجبوا عني رؤيتها . . وكم تأثرت يومها . . لأنني لم أر سعد . . ويبدو أنني كنت لحظتها على حق . . فقد عاش بعد ذلك ومات ولم يتحقق لي أمل رؤياه . . «

وقد حافظ نجيب محفوظ حين قدم معالجته الفنية - في فصل « نادر برهان » في « المرايا » - على جوهر هاتين الواقعتين ، مازجا بينهما ، وإن مهّد لبروز رغبته في رؤية الزعيم ، طبقاً لاحتياجات الفن ، من خلال حوار بينه وهو طفل صغير وبين زعيم التلاميذ : « أما إذا حدث عن زيارته لبيت الأمه ومحاوراته مع الزعيم فكان يبهرننا لحد الجنون ، ونقد مني الصبر فاقتربت منه ذات يوم وقلت :

- أريد رؤية سعد بالعين فهلاً أخذتنا إلى بيت الامة ؟ . .

فنظر إلى بعطف وقال :

- مازلت صغيراً تسير في بنطلون قصير ، وزيارة بيت الامة مغامرة خطيرة لا رحلة آمنة . . «

هذا الحوار كان أداة ربط بين الواقعتين ، وإضائة لحب الزعيم المسيطر على خيال أجيال ، وجسراً موصلاً لمحاولة مشاهدته فعلاً . وانظر لتصويره - بعد ذلك - لاقترب تحقيق الحلم أو الأمل . . «ونراى من بعيد هدير هتاف شامل إيذاناً بمقدم الزعيم لمقابلة الملك ، وإشتد الضغط حول عمر ضيق شقه رجال الشرطة بصفين منهم لتسير فيه سيارة الزعيم ، وقلت لرؤسا حماده بسرور غامر :

- سترى أعيننا سعد زغلول . .

فقال بحماس :

- نعم ولو ليضع ثوان . .

وتسللنا بخفة وعناد حتى بلغنا حافة الممر ، ورأينا السيارة قادمة ببطء شديد، والخلق يحيطون بها ويتعلقون بأركانها ويقفون فوق غطائها . وتطلعتنا بأعين ملهوفة نهما

ولكننا لم نر إلا أجساد البشر ولم يتجل من الزعيم ملمح واحد ، وبؤنا بحسرة لازمتنا طويلاً .

هنا تبدى نجيب محفوظ وقتاً ، مخلصاً لتجربته ، فلم يعتبر إلا عما شاهده ، وإن أضاف بعض مقاطع تتطلبها ضرورات الفن . .



والآن ، لابد أن يراود القارئ سؤال هام : ماذا كان مآل زعيم التلاميذ ؟ . .

قدم نجيب محفوظ إجابته - فنياً - في فصل « نادر برهان » في رواية « المرايا » ولنتنظر إلى تقلبات الدهر فيها ، حيث زعيم التلاميذ ، الأكثر وفدية ، يقف انتماؤه السياسى حجر عثرة أمام مستقبله ، حين رفت أكثر من مرة في عهود الوزارات غير الوفدية ، حتى اضطر إلى عدم إكمال تعليمه الثانوى ، فعينه الوفد وكيلاً لجريدة الجهاد فى الاسكندرية . كما اضطر إلى اعتزال السياسة عام ١٩٣٧ ، نتيجة وجود خلاف بين النحاس (زعيمه) والنقراشى (أبه الروحى) ، وصادف ذلك وفاة أبيه ، فورث مبلغاً من المال لا بأس به ، وفتح مطعماً للمسك فى سيدى جابر ، وفتح الله عليه فتزوج وأنجب ابنة وثلاثة صبيان . تزوجت ابنته فى القاهرة . أما أبناءه فانظر وتعجب لحركة مصائرهم ، حين أصبح أكبرهم سماًكا (ورث منه الأب) ، والأوسط مهندساً هاجر إلى كندا (النموذج المقابل للأب ، الهارب من الانتفاء للوطن) . والأصغر ضابطاً طياراً (نموذج عملى للانتفاء) دفع حياته ثمناً ، حين استشهد فى سبيل الوطن عام ١٩٦٩ .



عاشت واقعة اشتراك نجيب محفوظ وهو فى الثالثة عشرة من عمره ، فى أول مظاهرة له تحت قيادة زعيم التلاميذ ، فى (ذاكرته) ، حتى إذا ما جاوز الستين من عمره ، فكر فى كتابة سيرة (موضوعية) للشخصيات التى مرت فى حياته فى رواية « المرايا » (١٩٧٢) ، فكان لابد أن يفرد فصلاً فيها لزعيم التلاميذ بعد أن كناه « نادر برهان » راسماً أبعاد شخصيته كزعيم بين التلاميذ ، ومتبعاً أطوار حياته حتى النهاية ، وإن ركز الأضواء على واقعة المظاهرة والانطلاق إلى ميدان عابدين ، وفشل رؤية الزعيم ، وعدم

الوعى بأسباب المظاهرة رغم انقياده لحركة المجموع ، والتي عاد إلى تقصى أبعادها في عدد من أعماله بعد ذلك .

إذن ، تلخص واقعة الاشتراك في المظاهرات لأول مرة منظوراً متكاملًا للإبداع فالفنان يبدأ من الواقع ، من مواد أوليه (شخصية قابلها ، أو حدث معين) تعيش في (ذاكرته) ، يؤرقه حملها سنوات طويلة . فإذا ما نضجت تلك المواد بعد انصهارها في أتون مخيلته الإبداعية ، فإنه يطرحها خلال أعماله ، كى يتحرر منها ، فقد تسيطر (واقعة) أو (شخصية) على عمل بذاته ، وقد تبرز جزئية محدودة في عمل آخر ، وقد تظهر مجرد أصداء أو تنويعات في أعمال أخرى ، حتى يتكامل تناول تلك (الواقعة) أو (الشخصية) من مختلف الزوايا ، عبر العديد من الأعمال على مدار فترات زمنية طويلة .

وليس حتمًا أن يكون التناول الفنى متظماً - كما رأينا - فقد عالج نجيب محفوظ مخاطر الاشتراك في المظاهرات في عمل مبكر (بين القصرين) ، بينما سلط الأضواء على الواقعة وقائدها بعدها بثلاثين عامًا في (المرايا) ، ثم بدأ تحليل أبعاد ظاهرة الاشتراك في المظاهرات والتعرف على أسبابها بعد ذلك بثلاث سنوات في (حكايات حارتنا) ، حتى اكتملت رؤاه في آخر أعماله الروائية (قشمر) ، ليتحرر أخيرًا منها . .



■ الفصل الثالث ■

عالم الحارة ١. الوحدة والخيال

« ويمضى زمن ثم تزور الضيفة أمى وتقول :

- شوفى العجائب ، لم يكديمر شهر على وفاة المرحوم حسن حتى أوقعت الفاجرة
شقيقه خليل ، فتزوجها ..

فهتفت أمى :

- نظلة ؟ ..

- ومن غيرها يفعل ذلك ؟ .. إلهى يتقم منك يا نظلة يا بنت أمونه ..

وأنجيل أنا الميت والعاشق والفاجرة » .

(الحكاية رقم (٢٧) - رواية « حكايات حارتنا »)

« مرّ في طريقه بـدكان ماتوسيان لبيع السجائر فوقف كعادته كل يوم في مثل هذه
الساعة تحت لافتتها يُصعد عينيه الصغيرتين إلى الإعلان الملون الذى يصور امرأة
مضطجعة على ديوان وبين شفّتيها القرمزيتين سيجارة يتطاير منها دخان متعرج ... ،
ومع أنه كان يناهز العاشرة إلّا أنّ إعجابه بصاحبة الصورة فاق كل تقدير ، فكم تخيلها
فتمتعة بالحياة فى أبهى مناظرها ، وكم تخيل نفسه وهو يقاسمها حياتها الرغيدة بين

حجرة ناعمة ومنظر ريفي متاح لها - لها - أرضه ونخيله وماؤه وسياؤه ، يسبح في الوادي الأخضر أو يعبر النهر في قارب بدا في نهاية الصورة كالطيف ، أو يهز النخيل فيساقط عليه الرطب ، أو يجلس بين يدي الحساء طامح الطرف إلى عينيها الحالمين .

(كمال عبد الجواد - رواية « بين القصرين »)



إنه (خيال) الراوى / نجيب محفوظ طفلاً في « حكايات حارتنا » حين تثيره (حكايات) ضيفات أمه ، فيعيد بناء الحكاية ، متخيلاً أبطالها ، الذين يتجسدون في مخيلته ، ويؤدون أدوارهم المحكية ، وهو أيضاً (خيال) ابن العاشرة كمال عبد الجواد الذى تخفى وراءه نجيب محفوظ في « بين القصرين » ليسبح بخياله مع (صورة) إعلان ملون ، ليعيد بناء عالم كامل مازجاً بين أدق تفاصيل الإعلان ، وحياته الخاصة ، ليجد نفسه إما حيس حجرة ناعمة ، أو منطلقاً وسط بكارة الطبيعة وألقها ، كأنه خيار بين حياة مألوفة بين جدران المدينة بعد أن يضاف إليها (جمال) المرأة ، أو بين بهاء طبيعة الريف التى لم يعشها ، ويحلم بها (ألسنا نقرأ الروايات أو نسمع الحكايات أو نشاهد اللوحات ، لنعيد بناء عوالمها وفق شروط حياتنا الخاصة ؟) . .

في هاتين الحالتين تبدى (خيال) نجيب محفوظ طفلاً ، قوياً ، متدفقا . .

ماهى العوامل التى ساعدت على تقوية هذا (الخيال) ؟ . .



أول عامل تبدى في نشأة نجيب محفوظ هو (وحدته) ، فقد أنجبت والدته قبله ستة أشقاء ، جاءوا كلهم متعاقبين . . « على الطريقة القديمة بين كل واحد والثانى سنة ونصف ثم مضت فترة عشر سنوات ، وجئت أنا ، ولذلك كنت دائماً أنظر لأختى الكبيرة على أنها أمى ولأختى الكبيرة كأنه أبى . ولست متأخرة جداً لم أكن أستطيع تدخين سيجارة أمام أختى . . وكلهم تزوجوا » (حوار نجيب محفوظ مع مجلة « المصور » - عدد خاص رقم ٢٣٤١) .

تكشف كلمات نجيب محفوظ عن ملمح رئيسى في طفولته ، وهو نشأته (وحيداً) وسط مجتمع من الكبار ، بل إنه جسد وعيه بتلك الوحدة في أكثر من حوار . . « لا

أتذكر في البيت إلا والدي ووالدتي ، لا أذكر أى إنسان آخر شاركنا البيت إلا الضيوف : عمتى ، ابنة عمتى ، ناس من الخارج . أغلب حياتى فى بيتنا كانى طفل وحيد ، ولكن طبعاً كنا نزور الأشقاء فى بيوتهم . لهذا إذا ما حاولت استرجاع ذكرياتى عنهم ، فلانى أتذكرهم فى بيوتهم وليس فى بيتنا . كانت علاقتى بهم علاقة الصغير بالكبار ، أساسها الأدب والحشمة ، لم أعرفهم كأشقاء أعيش معهم حياتهم اليومية ، ألعب معهم ، أضحك معهم ، ولذلك كانت علاقات الأخوة من العلاقات التى أتابعها فى حياتى باهتمام .

بل إن نصل إحساسه بوحده قد امتد عميقاً فى تكوينه ، حتى أنه قال : «عندما أرحل بذاكرتى إلى أقصى بدايات العمر ، إلى الطفولة الأولى ، أتذكر بيتنا فى الجمالية شبه خال » (نجيب محفوظ يتذكر : ص ٤٩) .

أتاحت له (وحدته) كطفل وسط عالم من (الكبار) ، تنمية (خياله) . بدأ هذا الأمر ، حين أهده أخته طفلها ابن الرابعة ، وهو فى السادسة من عمره ، حتى يخرج به بمؤانسته من وحدته ، ويلاعبه بلا ملل . . «ويصدق أكاذيبى وأوهامى» . (الحكاية رقم (٨) من « حكايات حارتنا ») ، وهو ما يمكن التعبير عنه بخيال ابن السادسة ، الذى وجد فى طفل أصغر منه مستمعاً جيداً ، لكل ما يجيش فى (مخيلته) من حكايات وأوهام . لكن هذه السعادة لم تدم طويلاً ، فقد اختطف الموت رفيق طفولته فجأة ، بعد فترة وجيزة .



إذن ، ما هى أهم الناييع التى نهل منها نجيب محفوظ ، خلال وحدة طفولته فأثرت مخيلته ؟

أول ينبوع نهل منه نجيب محفوظ طفلاً هو أمه ، فلتعرف أولاً على ملامحها ، ثم نستكشف أبعاد تأثيرها عليه . .

نادرًا ما نحدث نجيب محفوظ عن أمه فى حواراته ، ما بالك إذن بذكر صفاتها ؟ . . وإن رسم ملامح (الأم) فى عملين من أعماله بشكل يكاد يتطابق فى جوهره . ففى الجزء الأول من الثلاثية نجد . . «إن أمه على استكانتها ورقتها ، كانت

شديدة الإعتراز بثقافتها الشعبية المتوارثة عن أجيال متعاقبة منذ القدم ، ولم تكن تظن أنها بحاجة إلى مزيد من العلم ، أو أنه استجد من العلم ما يستحق أن يضاف إلى ما لديها من معارف دينية وتاريخية وطبية ، وضاعف من إيمانها بها أنها تلقته عن أبيها أو في بيته الذي نشأت فيه ، وكان الأب شيخاً من العلماء الذين فضلهم الله - لحفظهم القرآن - على العالمين ، فلم يكن معقولاً أن تعمل بعلمه علماً ولو لم تجهر برأيها إشاراً للسلامة « (بين القصرين» ص ٦١ / ٦٢) .

هنا أم هي ابنة شيخ من علماء الدين ، شديدة الإعتراز بثقافتها الشعبية المتوارثة إضافة إلى ما لديها من معارف دينية وتاريخية وطبية (لم يوضح نجيب محفوظ في الثلاثية جذور هذه المعارف أو كيف اكتسبتها الأم) . وهي ذات طبيعة مستكينة ، رقيقة ، لا تجهر برأيها إشاراً للسلامة .

كانت تلك هي صورة الأم كما رسمها في « بين القصرين » التي نشرت ١٩٥٦ ، والآن لننظر كيف رسمها في روايته « حديث الصباح والمساء » (١٩٨٧) ، التي شاد فيها نجيب محفوظ بناءً فنياً موازياً لشجرة عائلته ، وأطلق عليها « راضية معاوية القليوبى » فنجد أنه : «عنى الشيخ بتربية ذريته تربية دينية فكانت الأكثر استجابة رغم أن حصيلتها من الناحية النظرية لم تجاوز معرفة الصلاة والصوم وحفظ بعض السور الصغيرة ، ولكن قلبها تشرب حب الله وآل البيت ، وعلى ذلك فما تلقته عن أبيها لا يقاس بعشر معشار ما تلقته من أمها من الغيبات والخوارق وسير الأولياء وكراماتهم وأسرار السحر والعرافيت والأرواح الساكنة في القطط والطيور والزواحف ، والأحلام وتأويلها ، وقراءة الطالع والطب الشعبي وبركات الأديرة والقديسين والقديسات . ورشح من إيمانها ما شهدته من ركون أبيها نفسه - العالم الأزهرى - إلى وصفاتها الطبية » .

« وكانت راضية عصبية المزاج ، تمارس الحب والكراهية في اليوم الواحد عشرات المرات » (ص ٩٠)

هنا - أيضاً - الأم ابنة شيخ من علماء الأزهر ، شديدة الإيمان بثقافتها الشعبية المتوارثة ، التي أوضح نجيب محفوظ مصدرها بجلاء ، وهو أمها . بل فتر أيضاً - سبب إيمانها الشديد بها ، مالمسته من ركون الأب (العالم الأزهرى) إليها .

ولكن كيف نفسر تناقض صفات الأم ، فبينما كانت في الثلاثية مستكينة ، رقيقة ، نجدها هنا عصبية المزاج ؟ ١ .

إذا رجعنا إلى كتاب «نجيب محفوظ يتذكر» ، فإننا نجده يصف الأم : «كانت والدتي رحمها الله عصبية إلى حد ما» (ص ١٥٣) .

إذن ، تتصف أم نجيب محفوظ فعلا بكونها (عصبية إلى حد ما) ، لكن ضرورات رسم شخصية (أمينة) في الثلاثية استدعت أن يحور في صفاتها بما يناسب بناءها الفني ، وإن احتفظ بجوهر تكوينها كما هو . وهنا يمكن أن نورد أكثر من واقعة تكررت في كلتا الروايتين ، بما يعكس وحدة الأصل ، أكتفى بذكر واحدة : ففي «بين القصرين» خلال حوار بين فهمي وياسين حول مطالبة سعد زغلول وزميله عبد العزيز فهمي وعلى شعراوي ، برفع الحماية وإعلان الإستقلال والسفر إلى لندن للمضي إلى الإستقلال . «قالت الأم : يا سيدى لكل مجتهد نصيب فليذهبوا في رعاية الله ، وهسى أن يحظوا بعطف الملكة الكبيرة .

فما يدري الشاب إلا وهو يسألها في غرابة : أى ملكة تقصدين ؟ .

- الملكة فيكتوريا يا بنى ، أليس هذا اسمها؟ .. طالما سمعت أبى وهو يتحدث عنها . هى التى أمرت بنفى عرابى ولكنها أعجبت بشجاعته كثيرا فيها قبل ..

يُبد أن فهمي لم يمهلهما حتى تُتم تفكيرها فقال لها باقتضاب واستياء :

- الملكة فيكتوريا مانت من زمن بعيد ، لا تتعبى نفسك بلا طائل» (ص ٣٠٩ / ٣١٠) . وفي رواية «حديث الصباح والمساء» حين شارك زوجها في إحدى مظاهرات ثورة ١٩١٩ . «اخترقت الشوارع المليئة بالفتن وزارت ضريح سيدى بحى بن عتب ، ودعت على الإنجليز وملكتهم - كانت تعتقد أن الملكة مارآلت على قيد الحياة - بالهلاك الأبدى» (ص ٩٤) .

إذن ، كيف أثر تكوين الأم بثافتها تلك على الطفل نجيب محفوظ ؟ ١ .

ظهر ذلك في رواية «بين القصرين» حين أوضح الراوى (منطقها) في إيصال ثقافتها للطفل . «يُبد أنها لم تعثر على اختلاف يذكر بين ما يقال للغلام في المدرسة عن

أمور الدين وبين ما لديها منها . ولما كان الدرس المدرسى لا يتسع إلا لقراءة السور وتفسيرها وتبين المبادئ الدينية الأولية فقد وجدت متسعاً لقص ما عندها من أساطير لا تنفصل في اعتقادها عن حقيقة الدين وجوهره ، بل لعلها رأت فيها دائماً حقيقة الدين وجوهره ، وجلّها معجزات وكرامات عن النبي والصحابة والأولياء ، وتعاويز شتى للوقاية من العفاريت والزواحف والأمراض .

وماذا كان موقف الطفل منها ؟ . .

لقد صدّقها الغلام وآمن بها ، «ثم إنه شغف بالأساطير شغفاً لم يظفر بمثله في الدروس الجافة، فكان درس أمه من أسعد ساعات اليوم وأحفلها بالمتعة والخيال» (ص ٦١ ، ٦٢) .

وكما كان درس الدين هو المدخل إلى عالم الحكايات والأساطير ، فإنه في (مجلس القهوة) أيضاً كانت الأم تروى . . «له ما تحفظ من حكايات اللصوص والعفاريت فيروّع خياله إليها» . وأخيراً ، فإن « بين القصرين » اشتملت على منطلق طبيعي للحكى ، كما يروى لكل الأطفال في العالم من حكايات قبل النوم ، وما هو (كمال) يتذكر : « مع الحمرة عهداً غير بعيد من ماضيه حين مضجعتها كان واحداً ، وحين ينام متوسداً ذراعها وهي تسكب في أذنيه بصوتها الرقيق قصص الأنبياء والأولياء » ، وهو ما تأكد أيضاً في رواية «حديث الصباح والمساء» . . « ختام اليوم يتم عادة بين يدي راضية فتداح النشوة في قلبى الطفلين (قاسم / نجيب وابن اخته) على سماع الحكايات قبل النوم ، وتنهمر على خيالهما كرامات الأولياء وعبث العفاريت ، وينغمس الواقع في دنيا الأحلام والخوارق والآيات الربانية » (ص ٦) .

ولم يتوقف الأمر عند سماع حكايات الأم بل امتد إلى جدته جليلة التى . . « عرفت بأنها موسوعة في الفبيات والكرامات والطب الشعبي ، وكان قاسم أحب الأحفاد إلى قلبها ، يغمرها بقبلاته ، وينصت لحكاياتها ، ويصدقها بقلبه وحواسه » .

(«حديث الصباح والمساء ص ٤٣ »)

وكتيجة لوحده ، كان يحضر لقاءات أمه مع ضيفاتها ، ليرقب غرائبهن أو ينصت إلى حكاياتهن . . « من الشخصيات التى لا أنساها أيضاً النساء اللواتى كن يترددن على

البيت ليقمن بإعداد الأحجبة ، وأعمال السحر . كنت أرقبهن عندما يجئن إلى أمي ،
يجلسن معها يتحدثن»

(«نجيب محفوظ يتذكر» ص ٤٩)

انظر لفعل (أرقبهن) ، فيه اندماج وكمون ، حيث تكون الواجهة ساكنة ، لكن
الأعماق مشتعلة . هنا ينشط (خياله) ، تتساقط على مخيلته ما يسمع من كلمات ،
تشكل الصور ، تنطق الشخصيات ، تُبنى الوقائع ، يُصدر أحكاماً في حدود
(معرفته) المحدودة بأن تلك الشخصية « شريرة » أو « خيرة » ، لكن الأم تضبط إيقاع
اندفاعه ، ليرث ويبدأ لأن . . « الله وحده هو المطلع على الأفئدة » ، وتدعوه إلى
تفهم آلام الآخرين ومعاناتهم . . « ربنا معها ومع كل جريح » .

وكما كانت (وحدته) تتيح له أن يحضر لقاءات أمه مع ضيفاتها ، فإنها منحت إمتياز
الخروج مع أمه : « كانت والدتي تصحبني معها دائماً لأنني الوحيد ، تصحبني في
زياراتها إلى الأهل ، والجيران ، وهكذا رأيت كثيراً من مناطق بالقاهرة . . شبرا ،
العباسية » («نجيب محفوظ يتذكر» ص ٤٩) .

ولكن ، هل كان يسمح للزوجة في تلك الفترة (بدايات القرن العشرين) بالخروج
وحدها ؟ ! .

نستطيع أن نستشف الإجابة من الفصل الخاص براضية (المعادل للأم) : في رواية
«حديث الصباح والمساء» ، بعد أن تزوجت من عمرو (المعادل للأب) : « واحتدم
صراع بين الزوجين على السيادة ، فقد أراد عمرو أن تنطوي زوجته في البيت ، فلا تعبر
عنته إلا بصحبته ، ورأت هي أن علمها الغيب يطالبها بزيارات دورية لآل البيت
وأضرحة الأولياء . وحذرته من أن يقف عثرة في ذلك السيل . وكان عمرو من أتباع
الطريقة الدمرداشية ويؤمن بأفكار راضية وراثتها ويخشى عواقب التهادى والمغالاة ، فأذن
لها بالحركة مستوهِباً من وراثتها خيراً وبركة ، مطمئناً إلى خلقها ، راضياً بمهارتها الفائقة
في إدارة بته وتفانيها في توفير أسباب الراحة له وسارت الأمور سيراً حسناً ، وما من نزاع
بينهما دام أكثر من ساعات ، فكانت إذا غضب حلمت ، وإذا انفجرت عصبتها
تغاضى وتسامح » (ص ٩٢ ، ٩٣) .

هكذا أتاح له هذه الزيارات الخارجية التعرف على أضرحة آل البيت والأولياء ، كما زوّدت زيارات الأقارب والجارات بزاد لا ينتهى من الحكايات ، وأيقظت في قلبه الوليد مشاعر جيّاشة جديدة عليه ، وانظر وهو يحكى عن زيارتهما لحرم المأمور ، وهو يفتح الحكاية رقم (٥) من « حكايات حارتنا » بجملة اسمية معبرة « اليوم سعيد » ، وإذا الطبيعة تصفر بعد كدر ، وتشرق الشمس . . . « وتعانق أمى مرحة وأنا انتظر . تلتفت نحوى ضاحكة وهى تعبت بشعر رأسى ، وترفعنى بين يديها فارتفع فوق الأرض عالياً ، تضمنى إلى صدرها فأغوص فى أعماق طرية ، وأشعر ببطنها مثل حشبة وثيرة ينبعث منها إلى جوارحى دفء مؤثر » ، وهو ينصت لحديثها حول عفاريت القبور . . . « المضيفة تقدم لى قطعة هريسة فأتناولها . أمنى النفس بحضن دافئ آخر عند انتهاء الزيارة » . ويظل ينتظر ليختم الحكاية . . . « أتساءل متى تحيى لحظة الوداع الواعدة بالدفء » ؟ .



نحن هنا فى مواجهة تكوين طفل ينشأ وحيداً ، وسط عالم من الكبار ، يسود فى محيط البيت جو من الوثام والاستقرار ، يظلمه حتى دينى تلقائى ، يقدّس فيه الوالدين ، تختلط فيه قصص الأولياء والأنبياء بالحكايات الخرافية والأساطير ، ويبرز فيه السحر والأحجية . وسط عالم كهذا ، كان لابد للطفل نجيب محفوظ أن يلجأ إلى (الخيال) ، ليعوضه عن طفولة طبيعية وسط إخوته وأقرانه . كما قد يحدث فى إحدى جلسات الكبار أن : « لم يكن عجيباً أن يشعر بأنه ضائع مهمل بين أهل لايكاد يلتفت إليه أحد ، وأنهم مشغولون عنه بأحاديثهم التى لا تنتهى . فلم يتورع عن الاختلاق فى سبيل الاستئثار باهتمامهم ولو إلى حين » . وعندما تورط فى حكاية غريبة . . . « أسعفه الخيال فاستردت عينه حيويتها » (بين القصرين » ص ٥٢ / ٥٣) .

إذن ، اضطره انصراف الكبار عنه إلى الاختلاق ، (ليستأثر باهتمامهم) ، وأسعفه (خياله) الخصب . كما ستكون (وحدته) بين الكبار ، حافزاً له (فيما بعد ، كى يُحكّم عقله) ، لإتقان وإجادة ما يؤديه ، حتى ينال اعتراف (الكبار) بوجوده : « عندما كنت صغيراً كنت أحب أن أتقن أى شىء أصنعه من أجل أن أسمع كلمة استحسان . أذاكر حتى أجد تقديراً من المدرس ، (أشوط) الكرة جيداً لأسمع

التصفيق . . إن الاستحسان شيء هام للنفس البشرية « (مجلة المصور : عدد خاص رقم ٣٣٤١) .

* * *

يبقى هنا ملمح أخير : كيف كان اصطدام (الخيال) - الذي صدّقه وآمن به نجيب محفوظ طفلاً - (بالواقع) ؟ !

كشف نجيب محفوظ عن تلك اللحظة في حكايتين من « حكايات حارتنا » : الحكاية الأولى رقم (٤٩) ، في المقطع الأول يرسم لنا (بخيال) الأطفال شخصية وهمية هي « زائر الليل » . وانظر لمفتح الحكاية ، الذي يقدم فيه تلك الشخصية ، والحلم بها :

« أمنية كل صغير في حارتنا أن يطوف به في منامه زائر الليل . .
إنه شخصية حقيقية بلا ريب ولكن مملكتها المضيئة تستقر في القلوب البريئة » .
وانظر لموقف الكبار ، الذين يساعدون في تشييد هذا العالم كحقيقة ، ربّما لتشجيع أطفالهم على الاستحمام والنوم المبكر : « في ليالي المواسم والأعياد يقولون لنا :
- استحم وأدخل فراشك واقرا الفاتحة وتمنّى ما تشاء واستلم للنوم فربما أسعدك الحظ بمجيء زائر الليل ليحقق لك أمنيك » . .
لكن الكبار لا يفتنون إلى أن الأطفال (يصدقون) ، ويلازمهم (إيمانهم) سنوات طويلة ، مستعينين به على كل ما يكدر صفو حياتهم ، أو كي يحقق أمنياتهم :
« وتتابعتم تمنياتي خلال مراحل متلاحقة من العمر . ابتهالات يزفرها القلب بين يدي زائر الليل . .

- يا زائر الليل أخلق الكتاب وخذ سيدنا .

- يا زائر الليل جدد حارتنا القديمة .

- يا زائر الليل نجّنا من الفقر والجهل والموت » .

ثم يصطدم زائر الليل الذي شاده (الطفل) في خياله حيّا ، قوياً ، بالواقع في

(صباه) حين شاهد رجلاً بالغ الروعة يتوسط موكباً فخماً يشق الحارة . . «بهرنى منظره فانبعثت في قلبى فرحة لا حدود لها . وانتفض وجدانى عن عقيدة راسخة أن هذا الرجل الرائع هو زائر الليل ، وأنه جاء أخيراً استجابةً لابتهالاتى في هدأة الليل » .

إن الطفل يربط بين ما يراه في الواقع مع ما تراكم من خبرات ورؤى في ذاكرته . هنا حدث تطابق بين الرجل وموكبه وما استقبل به في الحارة من حفاوة بالغة ، وبين شخصية زائر الليل . فالطفل يفسر ما يراه أيضاً وفق ما يمتلك من خبرة . لذا هتف بصوته الرفيع . . « ليحى زائر الليل ! » .

« وحدث ما لم أتوقعه أبداً ، فقد وجم الناس ، وتقلصت وجوههم كأنها اندلقت في أفواههم عصير الليمون المالح وقرص إمام الزاوية أذنى وصاح بى : يالك من ولد قليل الأدب ! » وفي النهاية أوضح له أبوه السبب : « إنك أحق ، أنسيت أن زائر الليل لا يحىء إلا في المنام ! » .

هنا تقابل بين عالمين . عالم الأطفال والكبار . عالم الخيال والواقع . إنهما عالمان لا يلتقيان . . الكبار يعيشون معطيات عالمهم ، يرفضون أى خيال . كان الصبى صادقاً مع نفسه حين هتف . لكن الكبار لم يفهموا أبعاد هتافه . اعتبروه (قلة أدب) ، وعوقب ، وطُرد من الاستقبال . حتى الأب ، كمتهم لعالم الكبار ، اعتبره أحقاً . فالخيال مكانه المنام أو داخل صدور الأطفال ، ولا محلّ له في عالم الكبار .

حكاية أخرى تكشف التقابل بين (خيال) الطفولة و (الواقع) المعاش ، هي الحكاية رقم (٥٠) من « حكايات حارتنا » ، حين كان الراوى (نجيب طفلاً) يسير مع والده فشاهد . . « جعلص الدنانيرى فتوة خطير ومن أشد الفتوات تأثيراً في حياة حارتنا . يجلس في المقهى كالطود أو يتقدم موكبه مثل بنيان ضخّم . وأنظر إليه بانبهار فيشدنى أبى من يدى قائلاً :

- مير في حالك يا مجنون .

وأسأل أبى :

- أهو أقوى من عنزة ؟ . .

فيقول باسمًا :

- عنتره حكاية أمّا هذا فحقيقة والله المستعان .

مرة أخرى نجد التقابل بين الخيال الواقع ، بين عنتره والفتوة . بين خيال تجسده حكاية ، لتبهر بالبطولة والشجاعة فيها ، حتى إذا ما برز موازٍ - لتلك الصورة التي يعشقها خيالنا - في الواقع ، نظر الطفل إليه بانبهار ، فإذا الأب سرعان ما يساوى بين انبهار الطفل وبين الجنون ، ويجذبه بعيدا لأن الحكاية قد تعيش في خيالنا ، وقد نبهر بها أو بصورتها في الواقع . ولكن يبقى أن الواقع قد يكون أحيانا أقوى وأكثر شراسة من أى (خيال) . فلا يبقى إلا أن نتبعد عنه ونستعين على جبروته بقدرات الله ، حتى نتجنب شره ، وهذا أضعف الإيمان !



إذا كان (الخيال) كامنا في دنيا الاطفال ، فإن نجيب محفوظ كان يمتلك (خيالا) قويا منذ طفولته المبكرة ، ولعل ظروف نشأته (وحيثا) ساعدت على تدعيم هذا الخيال ، الذى تأكد وهو في السادسة من عمره ، حين وجد في ابن اخته الذى كان يصغره بعام ونصف عام ، أنيسا لوحده ، ومصداقا (لأوهامه وأكاذيبه) . كما ساعدت الأم - بحكم تكوينها الخاص - على تنمية خياله بحكاياتها وأساطيرها ، فكان لها عليه أكبر الأثر (كذلك فعلت جدته) . كما أتاحت له (وحدته) أن يحضر لقاءات أمه مع ضيفاتها ، وأن يذهب معها في زياراتها ، بما ساعد على توسيع دائرة معارفه من الحكايات الخرافية ، والأحداث الواقعية ، والمشاعر الدافئة .

كما أثرت وحدته (إيجابيا) في استلهام (خياله) للاستثمار باهتمام الآخرين ، كما جعلته أكثر وعيا ، وأكثر حرصا على الاستحواذ على تشجيع الكبار بإجادة كل ما يفعل .

ويبقى دور بارز للأم في دعم خياله المتوهج بحكمة الحياة ، حتى لا يتسرع في الحكم على الآخرين ، كما كان الأب سندا له ، لحظة اصطدام (خياله) بالواقع ، مبصرا له بأن التعامل مع الواقع ، يستدعى تفهم أبعاده ، واستيعاب قوانين حركته .



٢- خالدة الذكر

« أم عبده أشهر امرأة في حارتنا . .

في قوة بغل وجرة فتوة ، حتى زوجها سواق الكاز ويتراجع أمام عنفها » .

« في أى موقع من حارتنا تحظى بالتودد ، هي الوسيطة والشفيع والخاطبة والدلالة والماشطة ، وعند الخصومة هي القوة التي تبطش بالخصم . .

وتزور أمى أحيانا فتحكى لها عن أحوالها . وهي تجملنا في المواسم فتجئنا بالكازو لتمضى بنا إلى زيارة المغاوى وأبى السعود طيب الجراح » .

« ولها بتان جميلتان ، دولت وإحسان » .

(الحكاية (١٠) من « حكايات حارتنا »)

« مناظر غائمة وأصوات غائبة وحنين دائم وقلب يخفق كلما حركته روائح الذكريات . ما كان أجدر ذلك كله أن يتلاشى في ذاكرة الماضي ، فلا يستطيع أن يستنقذه من الموت لولا خالدة الذكر أم أحمد » .

« قوة سمراء ، متحدية في ملائتها اللف ووجهها السافر وشبشبها الرنان وصوتها الغليظ الناقل لسانها الذي لا يهد ولا يعرف الحرج » ، « هي الخاطبة والماشطة وأخصائية التجميل والسعادة الزوجية » ، « شقت طريقها إلى سرايات الحى جميعاً وبيوت الطبقة الوسطى ، إلى قيامها بمهام الصحافة والاذاعة والمخابرات » .

(قصة أم أحمد - مجموعة قصص « صباح الورد »)

لأنهن أم عبده وابتأها دولت وإحسان كما أوردتهن نجيب محفوظ في الحكاية رقم (١٠) من رواية « حكايات حارتنا » (١٩٧٥) ، كملمح أساسى من أيام طفولته في حى الجمالية القديم ثم وسّع حكايتهن مكتنًا إتيانهن أم احمد وابتأها سيدة وسنية في قصة « أم أحمد » - مجموعة « صباح الورد » (١٩٨٧) ، تدليلاً على أن (الأساء) كلها في المرتين مستعارة .

ولكن هل « أم عبده » هى « أم أحمد » فعلاً ؟ :

بمعنى آخر : هل الأصل الذى عايشه نجيب محفوظ في (طفولته) واحد في الموضوعين ؟ .

المرجح أن الأصل واحد ، لأن صفات المرأة في العملين واحدة أحياناً ، أو هى متكامل وتتجسد أحياناً أخرى في شخصية واحدة ، فهى قوية ، جريئة ، ذات لسان لاذع ، وهى الخاطبة والماشطة ، والدلالة ، والوسيلة ، وبطبيعة مهنتها فهى تقوم بمهام الصحافة والإذاعة والمخابرات .

كما أنها تزوجت من معلم كارو ، ويتضح أنه عندما عايشها (نجيب محفوظ) ، كان معها بتان ، وقد تفر ذلك في قصة « أم أحمد » حين أورد الراوى (نجيب محفوظ) : « فى شبابها اليافع - الذى لم أشهده - كانت زوجة لمعلم كارو ، أنجبت منه بكرىها أحمد وزينب وسيدة وسنية . ولكنى علمت مع الأيام أن المعلم قُتل في معركة بأرض المماليك وأن ابنه أحمد مات في السجن ، ولم أشهد أم أحمد في حزنها ، حين لحقت زينب بأبيها وأخيها لمرض فتك بها في زمن متأخر نسبياً » .

أى أنه لم يكن قد بقى معها سوى ابتأها في الفترة التى أدركها فيها نجيب محفوظ لذا كان منطقياً أن يستعيد الأم وابتئها فقط في الحكاية (١٠) من رواية « حكايات حارتنا » من خلال مشهد كاشف لدوره ومشاعره في الطفولة ، فهو الرسول الذى يوفد إلى بيتها عند الحاجة : « أذهب إليه بقلب طروب يتوق إلى رؤية الحمار المربوط إلى وتد في الفناء » . (وهو نفس ما رسمه بشكل موسّع في قصة « أم أحمد » : « بيتها كان يقع ملاصقاً للشرفة التاريخية لبيت القاضى ، يصل إليه الزائر من عمر ضيق متصاعد مترب ، في جانبه كارو قديمة مركونة مهملة ، وأحياناً يرى حماراً واقفاً يقات التبن من مخللة

تطوق عَلاقتها عنقه ، كان يشدني إلى مأواها العربية المهيمة والأمل المشابر العنيد في الالتقاء بالحمار الهاديء العذب » . ثم يستطرد مبرراً طرب قلبه بالذهاب إلى بيتها بأنه « يتوق للمقرب من دولت وإحسان » وإذا كانت الكبرى قد تزوجت بمتعلم ، فإن نجيب محفوظ (الطفل) معجب بالابنة الصغرى باهرة الجمال . . « وإني صديقها رغم فارق السن . غرائزي الكامنة ترسل إنذارات خفية تمتزج في عيني بأشواق مبهمة . يهرني حجمها المتراكم وأعضاؤها الثرية المترافضة » ، لذلك سرعان ما يتحول الطفل من رسول أسرته إلى بيت (الماشطة) - حيث ابتتها الجميلة - إلى رسول يسعده أن يؤدي للابنة أية خدمة ، فيحمل منديلها إلى بيت الشيخ ليب ليقرأ طالعها ، وحين يشمه الشيخ . « يتفكر ملياً ثم يقول : عما قريب يمتلئ الكرار ويغنى العصفور » . وسرعان ما تتحقق نبؤته حين يتزوجها صاحب محل فراشة ، غنى في الخمسين ، ذو زوجة وأولاد . « تعاشره عامين ثم تختفي من بيته ومن الحارة جميعاً مخلفة وراءها ضجة وهاراً وإصابة في كبرياء أم عبده » . وبعد سنوات طويلة يراها وهي ترقص وتغنى ، وتعرف عليه ، ثم تقول له بعد أن ينفردا « الدنيا واسعة ولكنها في النهاية كالحق » (الحق : في التعبير العامي هو الإناء الصغير الضيق) .

إذن ، في الحكاية (١٠) من « حكايات حارتنا » مسّ الفنان نجيب محفوظ الأم والأصل مسّاً عابراً ، ولم يتوقف عندها كثيراً كما فعل إزاء ابتيتها وخاصة الصغرى . وانظر وتعجب من غرائب القدر ، فالأم القوية الجريئة الخبيرة بالدنيا بقي لها من نسلها بتان جميلتان : إحداهما طيبة . . « تفك الخط وتحفظ بعض سور القرآن ، يحبها شاب متعلم من حارتنا فيتزوج منها منخطبا الفوارق ومجازفاً بمصاهرة أم عبده » ، والأخرى صورة مصغرة من أمها في أخلاقها ولكنها باهرة الجمال ، ترفض خطاباً كادحين . . « تطلقاً لفرصة فريدة كما حدث لأختها » . وحين يطول انتظارها تحاول أن تستقرئ المجهول ، كمن تستعجل الأحداث ، وتقبل بزواج غنى في الخمسين ، لكنها سرعان ما تهرب من حياة الدعة والامتكانة ، محقة ذاتها حيث الرقص والغناء غير مبالية برّد فعل تصرفها على أمها ، أو بآراء الآخرين فيه .

* * *

والآن ، لننظر إلى مفتاح قصة « أم أحمد » - مجموعة « صباح الورد » : « لو رجعت إلى

الذاكرة ما وجدت إلا صوراً متناثرة لا تعنى شيئاً ، قَمَرًا يُطَلُّ من نافذة عالية ، أقمار ثلاثة يخرجون من تحت القبوس صفًا واحدًا ، حنطور يتهادى في الميدان بأمرأة كالمحمل . الزمن القديم في الحى العتيق ، لم يبق من حياته الحافلة إلا ما تبعه الطفولة . مناظر غائمة وأصوات غائبة وحنين دائم وقلب يخفق كلما حركته روائح الذكريات . ما كان أجدر ذلك كله أن يتلاشى في ظلمة الماضي ، فلا يستطيع الحب أن يستنقذه من الموت ، لولا خالدة الذكر أم أحمد .

لقد جنح الراوى (نجيب محفوظ) إلى استخدام حرف (لو) الشرطى في بداية القصة لتحقيق هدف سعى إليه (واعيًا) ، لأنه لو غاص إلى أعماق الذاكرة ، ما وجد إلا صوراً متناثرة لا تعنى شيئاً ، كان الجدير بها أن تزول إلى العدم (النسيان) ، وحتى الحب لا يستطيع إنقاذها من هذا الموت ، (لولا) خالدة الذكر أم أحمد (الدلالة ، الماشطة ، وراوية الحكايات والأخبار) .

إذن ، إتضح الهدف تماما ، إنه ينسب الفضل في الإبقاء على هذا الماضي ، وبعثه حيًا من جديد إلى خالدة الذكر أم أحمد ، لأنها : « جذبتنى بسحر حكاياتها عن الجيران ، وخاصة أهل الطبقة العليا ، وهى حكايات لا يعرف مدى الصدق فيها إلا الله ولكنها تحرك الشهية دائماً لدورانها حول أولئك السادة الممتازين » .

هنا ، فى قصة « أم أحمد » أفصح لنا نجيب محفوظ عن جانب من حركة الفنان وهو يبدع ، حين كشف عن أحد المصادر الهامة الحافزة للكتابة عن تلك الفترة والتعريف بشخصياتها ، وهو تلك السيدة (أم أحمد) الحكاءة الموهوبة ، المعمرة ، التى استخدمت معرفتها فى حدود قدراتها ، ومزجتها بخيال خصب ، فأضفت على حكاياتها سحرًا يجذب ويمحرك شهية المستمع لدورانها حول أولئك السادة .

لقد نسب لها الفضل فى مستهل القصة فى الإبقاء على حياة ذلك العالم العتيق ، الذى لم يكن حتى (الحب) ليستنقذه . لكن نجيب محفوظ كان أيضاً حاسماً ، حين حدّد دورها بأنها كانت المحرك والحافز والمنشط للإبداع فقط . . « ولا أزعّم أنها أحسنت تعريفى بأفراد السادة والسيدات من أهل سرايات حارتنا ، ولعلها هى نفسها لم يتح لها أن تعرف حقيقتهم ولكنها اهتمت بعموميات لا بأس بها وبشئون مما يتصل

بعملها ، وعلى أى حال فقد عرفت عن الأسر ككل كما عرفت أشياء عن مصائرها .
وهى فى جملتها تعد ثروة هامشية تضاف إلى التجارب التى حصلها الإنسان بنفسه
وحواسه وقلبه » .

لقد بلّور الفنان نجيب محفوظ فى نهاية هذا المقطع ولخص دور (أم أحمد) كحافز
ومحرك للإبداع بما أمدته به من ثروة هامشية تضاف إلى ما حصله الفنان بنفسه وحواسه
وقلبه من تجارب ، ليختصر كل ذلك فى أتون ذاكرته الإبداعية ، ليفرز بعد سنوات
عصيراً فنياً شهياً .

لذا يتبدى لنا أن الفنان الكبير نجيب محفوظ كان مبالغاً فى مجاملته فى مفتتح القصة
حين نسب فضل الإبقاء على حياة ذلك العالم القديم من طفولته إلى (أم أحمد) ، لأن
ما يترسب ويبقى فعلاً فى الذاكرة هو « صور متناثرة » ، لكنها تعنى الكثير . . .

فى قصة « أم أحمد » - مجموعة « صباح الورد » أيضاً وسّع نجيب محفوظ من زاوية
الرؤية لشخصية « أم أحمد » ، وأطال التعبير عن إعجابه بها فهى « خالدة الذكر »
... « لا أذكر أنى رأيتها باكية أو مولولة أو شبه يائسة ، ما عهدتها إلا متماسكة قوية
ضاحكة أو محدثة ، غارقة حتى رأسها فى أعمالها ومشروعاتها ، تعيش يومها وتبنى
للغد ، علمت أن أم أحمد التى عرفتها ما هى إلا الثمرة الأخيرة لصراع طويل مع الألم
كُتب لها فيه النصر ، فمئذ وجدت نفسها وحيدة توثب بهمة صلبة للكفاح فى الحياة
المناحة حتى ظفرت بوظيفتها المرموقة فى الميدان والحارات المنفرعة عنه ، فباتت أشهر
شخصية دون منازع » ، « ورغم ما عُرفت به أم أحمد من صفات الفجر فقد حظيت
بإعجابى لقوتها الذاتية وصلابتها وشجاعته وذكائها وانتزاعها من الصخر الأصم مكانة
مرموقة بين أرقى سيدات ذلك الزمان ، ولن أنسى أيضاً منظرها وهى واقفة فوق الكارو
بين جارات لها فى إحدى المظاهرات الوطنية تهتف بصوتها المدوّى لسعد ومصر » .

لكن نجيب محفوظ لم يتوقف عند التعبير عن إعجابه الشديد بتلك المرأة فى قصة « أم
أحمد ، بل غرّ فى التفاصيل الخاصة بابتيتها أيضاً . . . « وألحقت سيدة بالمدارس فصارت
مُعلمة ، أما ابتها الصغرى ، وكانت أجمل إنتاجها كله ، فقد أحبها ابن الأسرة
الساکنة فى الطابق الأول من بيتها ، وتزوج منها وأصبح فيما بعد من رجال التربية الكبار
فى مصر » .

هنا ، لابد أن تثار عدة أسئلة . .

لماذا غير نجيب محفوظ في إطار بنائه للجزء المكمل لهذا الملمح من ملامح طفولته ، حتى عكس صورة البتين بشكل مضىء ، ولم يوسع في امتدادهما (في قصة أم أحمد) ، كما فعل سابقاً مع ملامح طفولته الأخرى ؟ ١ .

هل أحس بقسوة مبضع الفنان حين قسى على الأم (بصدق) حيث تناول حكاية الابنة الصغرى (في حكايات حارتنا) ، فعكس صورتها ، وجعلها تختلط بتفاصيل حياة أختها الكبرى ، التي أحبها شاب متعلم ، حتى يشرب بليلة القارىء ، ويوحى إليه أن ما أورده عنها في « حكايات حارتنا » كان محض خيال فنى ؟ ١ . .

أم هل أحس نجيب محفوظ (الفنان) أنه لم يوف هذه السيدة - ابنة الحارة المكافحة - حقها ، فجاءت قصة « أم أحمد » تكريماً وتوبيخاً لحياتها ، (تخليداً لذكرها) خاصة وأنها . . « جذبتني بسحر حكاياتها عن الجيران ، خاصة أهل الطبقة العليا ، وهى حكايات لا يعرف مدى الصدق فيها إلا الله ، ولكنها تحرك الشهبة لدورانها حول أولئك السادة المتنازين » ؟ ١ . .

أم هل كتب نجيب محفوظ قصة « أم أحمد » - بعد كتابة حكايات حارتنا بأكثر من عشرة سنوات - بوحي من تأثير زيارته لها في سنواتها الأخيرة ، ولعلها زيارة حقيقية حدثت فعلاً ، والتي أوردها في نهاية قصة « أم أحمد » : « كان بصرها قد كُفَّ وقدرتها على الحركة قد ولّت ، ولما عرفتني فتحت لى ذراعها بحرارة وشوق ، ثم جلست على كرسي جنب فراشها لعل لسانها هو العضو الوحيد الذىبقى محافظاً على حيويته . ورحنا نتذكر ونتذكر ونقلب صفحات الماضى البعيد والقريب . جلنا معا في جنبات عالم حافل بالأموات . ألا ما أكثر الراحلين ، كأن الوجوه لم تشرق بالسناء والسنى في ظلمات الوجود وكان الثغور لم ترقص بالضحك ، هاهى راوية الحكايات وطبيبة الحب والجنس والسعادة ملقاة على الفراش القديم تشكل عبأً يومياً على أقرب الناس إلى قلبها » ؟ ١ . .

وتبقى الأسئلة معلقة . تنتظر يقينا لا يجيء ..
لتساءل بدورنا مع نجيب محفوظ .. «ما قيمة الحكايات يا أم أحمد وهي تتكرر
بصورة أو بأخرى قبل أن تلقى نفس المصير ؟!» ..
ولكن ، هكذا الفن العظيم ، كما الحياة ، يثير الكثير من الأسئلة ، ولا يعطى سوى
القليل من الإجابات (المؤكدة) ! .

٢. من النافذة

لا شك أن ثورة ١٩١٩ لعبت دوراً بارزاً في طفولة نجيب محفوظ ، وكانت من أهم الأحداث السياسية (الخارجية) التي أثرت على حياته في تلك الفترة .

والآن ، لتوقف قليلاً ، أمام ملمح (هام) طراً على حياة الطفل كمال عبد الجواد (الذى توارى وراءه نجيب محفوظ) ، جاء في سياق معالجته لآثار أحداث ثورة ١٩١٩ عليه ، وذلك في الجزء الأول من الثلاثية « بين القصرين » :

« لم يعد أحد يستطيع الإدعاء بأن الثورة لم تُغير وجهاً من وجوه حياته ، حتى كمال نفسه عرض لحريته التي تمنح بها طويلاً في ذهابه إلى المدرسة وإيابه منها طارئاً ثقیلاً ضاق به كل الضيق ، وإن لم يستطع له دفعا ، ذلك أن الأم أمرت أم حنفى بأن تتبعه في ذهابه إلى المدرسة وعند إيايه منها ، وألا تتخل عنه بحال كي تعود به إلى البيت إذا صادفتها مظاهرة دون أن تدع له فرصة للتلكؤ أو مطاوعة نزوات الطيش » .

أما مبرر هذه الرفقة الإجبارية ، فيرجع إلى أنه : « دار رأس الأم بأنباء المظاهرات والاضطرابات ، وإرتج قلبها لحوادث الاعتداء الوحشى على الطلبة ، فعانت من ذاك الزمن أياماً كالحات ملأتها هلعاً وجزعاً ، وذلك بعد أن رفض الأب فكرة استبقاء كمال في البيت لعلمه أن المدرسة تحول بين صغار التلاميذ وبين الاشتراك في الإضراب » .

إذن ، فالأصل هنا أنه كان يذهب إلى المدرسة الابتدائية (بمفرده) ، ثم جاءت ظروف الثورة والمظاهرات قاضطرت الأم أن تجعل (أم حنفى) تتبعه لتراقب ذهابه

وإيابه، ويرجع الأمر إلى خوف الأم عليه نتيجة حوادث الاعتداء الوحشي على الطلبة خلال وقائع ثورة ١٩١٩. وقد يكون هذا منطقيا. ولكنه يصبح مثيرا للتساؤل عندما يتكرر مرتين (الأولى) وهو في الكتاب : « والكتاب يقع في منحني من منحنيات عمارة الكبابجي على بعد خطوات من البيت، ولكنه محاط بسياج من التقاليد الصارمة تجعل منه سجنا تتلقى فيه المبادئ الإلهية تحت المقرعة . ولم تجد التوسلات ولا الدموع . ويفادره عصرا فيلقى أحمد وأم كامل في انتظاره عند الباب » (رواية « حديث الصباح والمساء » : ص ٦) . والمرة (الثانية) في فصل « يسرية بشير » من رواية « المرايا » وكان الطفل في السابعة أو الثامنة وهو يراقب فتاة . . « كانت تغربني أحيانا بالذهاب إليها فأتسل من البيت إلى الحارة، ولكن الخادمة كانت تدركني في اللحظة المناسبة وتحملني إلى البيت وأنا أبكي وأرفس دون جدوى » .

هنا طفل تذهب به الخادمة (أم كامل) إلى الكتاب وتعود به ، لكنها في البيت تراقب تحركاته ، فاذا ما سولت له نفسه أن يتسلل (بما يفيد التحرك في الخفاء بعيدا عن أعين الرقباء) من البيت ، فإنها تدركه في اللحظة المناسبة (لحظة مغادرة البيت) وتعيده بالقوة . وانظر إلى رد فعله في « بين القصرين » إزاء الرقابة المفروضة عليه من الخادمة بناء على أوامر الأم ، فكان أن عارضها . . « بما وسعه من قوة لأنه أدرك بالبداهة أن هذه الرقابة التي لن تخفى عن أمه خافية من شئونه ستقضى قضاء مبرما على كل ما يتمتع به في الطريق من ألوان العبث والشطارة ، وإنها ستلحق هذه الفترة القصيرة من يومه بالسجنين اللذين يتردد بينهما : البيت والمدرسة » .

هنا أسفر نجيب محفوظ عن حقيقة تصويره كطفل لما يحكم حياته من قيود في كل من البيت والمدرسة . أما أن تكون المدرسة سجنا فهذا مفهوم ، لأنه سبق أن اعتبر الكتاب سجنا ، لأنه محاط بسياج من التقاليد الصارمة ، ولكن لماذا اعتبر البيت - أيضا - سجنا ؟ . .

وهل نستج من الرقابة المفروضة من الخادمة على (تسله) من البيت ، أنه كان ممنوعا من اللعب في الشارع أو الحارة ؟ . .

وهل يؤكد هذا قوله : « طبعاً البيت يرتبط في ذكرياتي دائماً باللعب ، وخاصة

السطح ، فيه مجال كبير للعب ، فيه خزين ، بط ، فراخ ، كتاكيت صغيرة ، زرع في اصص ، ليلاب ، ريجان ، ثم السماء الفسيحة ؟ ! » (نجيب محفوظ يتذكر ص ٤٦) .
وإذا كان الأمر كذلك . فلماذا عاد بعد فترة من حديثه . في ذات الكتاب . عن البيت وتكوينه ، ليستطرد . . « كنا أيضاً نلعب في الشارع مع أطفال وبنات الجيران » ؟ ! . .

هنا يتطلب الأمر ، إعادة ترتيب لطفولة نجيب محفوظ ، توضيح مسألة السماح والمنع بالنسبة للعب في الشارع والحارة ، وهي تنقسم إلى ثلاث مراحل : المرحلة الأولى سابقة لدخوله الكتاب وكان يُسمح له باللعب خارج البيت ، ونستدل على ذلك بموقفين ، الأول : في قصة « أم أحمد » - مجموعة « صباح الورد » - « محمد الصغير كان قريني في اللعب في الميدان وفي قطف ذقن الباشا من أشجار البلخ . ودخلنا الكتاب معا فمكث فيه عامين أكثر مني لينقطع بعد ذلك عن التعليم » . وما يهمنا هنا هو قرينه في اللعب في الميدان (وهو الوحيد الذي ذكره خلال مرحلة الجمالية) في فترة ما قبل الكتاب ، وهو ما تأكد خلال لعبه مع ابن اخته - أيضاً - في الميدان ، في رواية « حديث الصباح والمساء » : « وكان أحمد كأنه آية في الجمال ، مورد البشرة ملون العينين ناعم الشعر خفيف الروح ، يتبع خاله كظله في أرجاء الميدان ، يشاهدان ألعاب الحاوي ، وهربة الرش ، وطابور جنود الشرطة ويستقبلان معا عم كريم يتاع الدندورمة ، ويتابعان بشيء من الخوف مواكب الجنازات » .

ولعل مرحلة دخوله الكتاب ، كانت بداية متابعته خلال ذهابه وإيابه في صحبة الخادمة ، إيذانا بنضجه وخوفاً عليه من شقاوة وعفرتة الطفولة ، وإشارة لسلامته ، ولعل الأم فكرت في منعه من اللعب في الميدان ، وأوصت الخادمة (سواء كانت أم كامل ، أو أم حنفى) بمراقبة تحركاته ، ومنعه من الخروج من البيت ، بل امتدت متابعته له داخل البيت أيضاً . انظر لرد فعله حين مات ابن اخته وأنيس وحدته . . « وصرخ باكياً حتى حملته أم كامل إلى السطح ، ومن وراء خصائص نافذة الغرفة الصيفية رأى جدّة أحمد تحمل بين يديها لفافة مزركشة وتستقل الحنطور » (« حديث الصباح والمساء » ص ١٠) .

وعند انتقاله إلى المدرسة الابتدائية : لعل مرحلة جديدة بدأت ، بعد أن رُفعت عنه

مرافقة الخادمة له في ذهابه وإيابه من المدرسة ، ماعدا فترة مظاهرات ثورة ١٩١٩ (حين عادت تتبعه ولكن من بعيد ، فمن العيب أن ترافقه بعد أن كبر والتحق بالمدرسة الابتدائية) لكن مع استمرار فرض رقابتها عليه في البيت ، لمنع تسلله منه إلى الخارج ، حيث الحارة والشارع والميدان ، أصبح رهين البيت ، الذي صار مرادفاً للسجن ، والانغلاق على الداخل ، يعيش في عزلة داخل جدرانها . لكن الطفل - كأي طفل - بتلقائية الطفولة الكامنة فيه وسعة خياله وحيوية عمره ، لم تكبله القيود ، فكان منطقياً ألا يستسلم للحبس ، بل مضى يُفتش عن (ملهى) له داخل البيت ، حتى عثر على ضالته ، حيث وجد في (السطح) مجالاً متسعاً للعب ، بعيداً - بقدر الإمكان - عن أعين الرقباء ، ففيه : « خزين ، بط ، فراخ ، كناكيت صغيرة ، زرع في اصص ، لبلاب ، ربحان ، ثم السماء الفبيحة » . وانظر إلى قوله في « السكرية » : « ولكن كيف تكون الحياة لو ردت إلى الطفولة محتفظاً في ذات الوقت بعقله النامي وذاكرته ؟ فيعود إلى اللعب في بستان السطح بقلب عامر بذكريات ... » لذا أصبح السطح هو الملاذ والملجأ الأمين ، فكان منطقياً - بعد ذلك - أن يرتبط البيت في ذاكرته باللعب ا .



هكذا أشبع الطفل نجيب محفوظ هم الطفولة إلى اللعب والانطلاق داخل حدود البيت المرسومة حدود حركته فيه ، فكان (السطح) مرتعاً لطفولته . ولكن كان لابد له أن يجد متنفساً آخر ، كي يشبع فضول الطفولة وتطلعها إلى العالم الخارجي ، الممنوع من المشاركة فيه . .

هنا ، لابد أن نتوقف ثانية أمام ظاهرة نزوع نجيب محفوظ إلى تكرار مفردة (النافذة) مُعَرَّقة أو غير مُعَرَّقة في العديد من أعماله الإبداعية . . والأمثلة عديدة :

انظر مفتاح فصل « يسرية بشير » من رواية « المرايا » : « يرجعني الاسم إلى مهد الطفولة ، ميدان بيت القاضي وأشجار البلخ المثقلة بأعشاش العصافير ، ومن نافذة جانبية كنت أطل وأنا طفل على حارة قرمز ، وهي حارة مبلطة تنحدر في هبوط » .

وانظر أيضاً في ذات الفصل من « المرايا » : « ويوماً أمطرت السماء ، ووقفت في النافذة أرقب المطر وهو ينهمر فوق أديم الحارة ويمر ليصب في القبو القديم . وما لبث

أن ارتفع مستوى الماء حتى غطى وجه الأرض وانقلبت قرمز جدولاً راكداً يستحيل عبوره إلا بالحمالين أو بالكازو .

وانظر إلى فصل « أنور الحلواتى » من « المرايا » : « قبعت وراء شيش النافذة أنظر بعينين محمقتين إلى جموع البشر المتدفقة . . »

وانظر إلى « حديث الصباح والمساء » : « وصرخ باكياً حتى حملته أم كامل إلى السطح ومن وراء خصاص نافذة الغرفة الصيفية رأى جدّة أحمد تحمل بين ذراعيها لفافة مزركشة وتستقل الحنطور . . »

وانظر إلى قصة « أم أحمد » مجموعة « صباح الورد » : « من نافذة صغيرة عالية قبيل القبو يلوح أحياناً وجه أبيض كالقمر ، أراه من موقعى فى نافذة بيتنا الصغير المطلّة على الحارة فأهيم رغم طفولتى فى سحر جماله . »

وانظر إلى الحكاية رقم (٢) من « حكايات حارتنا » : « وأعبر السور . أمضى نحو المنور ، أطلّ من نافذة فيه مخلوعة الزجاج ، أرى تحت المنور مباشرة ست أم زكى حارية تماماً ، تجلس على كنية تتشمس . »

وانظر إلى قصة « صباح الورد » - مجموعة « صباح الورد » : « ومنذ عصر ذلك اليوم انتشر المخبرون فى الشارع كله ، فصادروا أى تجمع لأبناء الحى حتى اضطرت لمشاهدة ما يجرى من نافذة بيتنا . »

إذن كان (السطح) هو مرتع طفولة نجيب محفوظ ، ولا شك أنه كثيراً ما جعل من (الحجرة) الصيفية ، التى كانت توجد به ، امتداداً وملحقاً للعبة . حتى إذا ما فُكّر فى الراحة أو سأم اللعب ، أو جذبته ضوضاء العالم الخارجى ، كان حتماً أن ينظر من (نافذة) تلك الغرفة ، فىرى الحارة ، ويتأمل تفاصيل تكوينها وما يحدث فيها بروية وهدوء . ومنها راقب تحولات الطبيعة وتغيرات الفصول وتأثير ذلك على حارته . ومنها رأى أهم أحداث طفولته ، وهى ثورة ١٩١٩ . بل اتسع الأمر ، وأصبحت (النافذة) هى المنفذ للإطلاع على المستور من حياة الآخرين . كما أتاح له موقعه وراء النافذة ، أن يراقب نوافذ الجيران ، حتى أصبحت (نافذة) أخرى صغيرة عالية قبيل القبو ، هى المدخل للانجذاب إلى (جمال) المرأة . ومن موقعه (المنزوى) أيضاً تتبّع رحيل أنيس

وحدثه الأخير . وبذلك كان قرار المنع (الداخلى) من الخروج وراء ارتباطه بالنافذة ، فيصبح الأمر طبعياً ، بعد انتقال أسرته إلى العباسية ، حين يتتشر المخبرون فى الشارع كله - كأنه قرار بالمنع من جهة (خارجية) من الخروج - أن يضطر إلى الالتجاء تلقائياً إلى (نافذة) بيتهم لمشاهدة ما يجرى ! .

هنا ، يتفسر نزوع نجيب محفوظ (اللاواعى) إلى تكرار مفردة (النافذة) فى العديد من أعماله الإبداعية ، وذلك حين صار البيت مرادفاً للسجن ، نتيجة (تربية) تحظر عليه الخروج إلى الشارع والاختلاط بأطفاله ، وتقف (الخادمة) حارساً لتراقب التنفيذ . عندئذ أصبح البيت مرتع طفولته المتاح ، فارتبط فى ذاكرته باللعب ، ولكن ليس البيت على إطلاقه - بطبيعة الحال - ملعباً للهوى ، بل أصبح السطح وحجرته هما الملاذ والملجأ والملاعب . وأصبحت (نافذة) حجرته مرادفاً للخلاص والحرية والانعتاق والانفتاح على الخارج ، حين منحتة فرصاً لا تنتهى للتأمل ، والتعمق ، والانطلاق ، والعبور إلى عالم النور والشمس والقمر ..

بل فتحت له (النافذة) مدخلاً إلى عالم (الخيال) السحري ، حين تفاجئه الأحداث أو تستبد به المشاعر ، كما حدث فى مناسبة عودة الزعيم سعد زغلول من المنفى .. « يمتاح الحارة إحساس غامر بالنصر ، ويعتقد كل قلب أن الحرية تدق الأبواب . وتطبق المظاهرات على حثنا لا تريد أن تنتهى . سعد .. سعد .. يحيا سعد .. وتلهب حرارة الهنافات خيالى ، وآسف على أن المظاهرات لا تدخل حارتنا شبه المسدودة التى لا تخرج لها من طرفها الآخر إلا الممر الضيق المحاذى للتكية والمفضى إلى القرافة .. » .

طوفان من البشر فى (الخارج) يغمرهم إحساس بالنصر ، والطفل نجيب محفوظ رهين البيت ، حبيس (الداخل) . جموع المظاهرات غطت الحى ، موحية لكل فرد باقتراب التحرر . لكن الطفل يأسف لصعوبة أن يصل تدفق الجموع إلى حارته ، أم هو الفنان نجيب محفوظ (الرابض وراء الراوى الصغير) يعى استحالة وصول أمل الحرية إلى موقع الطفل ، لأن الخلاص الوحيد من هذا الحبس ، لن يكون إلا عن طريق .. « الممر الضيق المحاذى للتكية والمفضى إلى القرافة » ؟ ! .

وفي الليل يحتفل الأهالي احتفالاً خاصاً بعودة الزعيم ، فتضاء الكلوبات ، وترتفع
الأعلام ، وتدوى الزغاريد ، وتتطوع العالة الماظية بإحياء الليلة ، تقيم مدتها في
الوسط أمام الوكالة يحف بها تحتها . . «وتكتظ البوطة بالسكاري ، وتشتعل الفرز بتيران
المجامر ، وحتى المجاذيب والمشردون واللصوص يسهرون ويفرحون» ، «وأسهر أنا
في النافذة ، وقوى مجهولة تشحن قلبي الصغير بحيوية سحرية» (الحكاية رقم (١٨) -
«حكايات حارتنا») .

هنا يحتفل الجميع بتلك المناسبة ، كلُّ بطريقته الخاصة ، والطفل نجيب متزو
هناك ، كامن بأعلى ، وحيد ، تتوهج منه المشاعر ، ويأخذه الحماس فيتمنى أن يندفع
معه ، لكنه يعي أنه مقيد الحركة ، غير مسموح له بالفعل ، فلا يملك سوى أن يسهر
في (النافذة) حالماً ، فيتوهج خياله ، ويسرى إلى أعماقه (السحر) ، لينطلق مشاركا
الآخرين فرحتهم ، متخطيا حواجز الزمان والمكان .



٤. الحارة

لماذا عاشت (الحارة) وأحياء القاهرة (القديمة) ، وتجمدت في العديد من أعمال نجيب محفوظ ؟ ...

سؤال لابد أن يلح على قارئ نجيب محفوظ ، ويطارده أتى ذهب ، في أعقاب الانتهاء من قراءة أى عمل جديد . .

فلنحاول إذن البحث عن مفاتيح تساعدنا على الإجابة عن هذا السؤال ، وتلمس جوانبها والإلمام بأبعادها ، معتمدين - بقدر الإمكان - على تحليل كلمات الفنان الكبير.

● المعاشية :

* « لا يكفي أن تفهم عالمًا حتى يصبح عالمك الذي يخصك . إن المعاشية أعمق من ذلك » .

(من كتاب « نجيب محفوظ يتذكر - جمال الفيضان »)

* « لقد عشت حياتي في نطاقها وهو نطاق محدود ضيق لا يزيد على بيت ومصلحة حكومية ومقهى وعدة شوارع وأحياء أبرزها حي الحسين ، ولكنى حاولت أن استخلص منها كل ما أستطيع » .

* « لقد عشت حياة القاهرة حتى النخاع وإمتصت تجربتها المتعددة الأشكال بلون الحياة الاجتماعية والنماذج الشعبية حتى تشبعت »

(من كتاب « الرؤى المتغيرة في روايات نجيب محفوظ - عبد الرحمن أبو عوف ») .

« ما هي التجربة الحية المكتملة التي عشتها ، متجدد أنها تتمثل في القديم ، باعتبارها المأوى الخاص بك ، لأنك عايشت وفهمته »

(من كتاب « نجيب محفوظ يتذكر ») .

« مصدر إلهامي هو الواقع . بيد أن الواقع محبط بلا حدود ، فضروري أنى أتأثر في استلهامي بضرورات مختلفة مثل موقعي منه ، ظروف الخاصة من : بيئة ، تعليمية ، عائلية ، مكانية ، زمانية ، ... الخ » .

« إذا فهمنا أن حياتي هنا هي حياتي الخاصة والعامة وما يعضمه من حياة الآخرين ، فهي المنبع الأول والأخير لأدبي » .

(من كتاب « نجيب محفوظ : حياته وأدبه - نبيل فرج ») .

« أنا مشغول من زمان بما عشت في الواقع ، وبما أحيته » ، « فالأدب ينبع من الداخل أساسا ، من الذاكرة » .

(جريدة « الاهرام » : ١٥ / ١٠ / ٨٨)

« إن تلك الأحياء هي كل شيء بالنسبة لي .. إنها مثل زوجة فريدة . ومن الطبيعي أن تكون تلك الأحياء مسرح تجاربي ولا أشعر أنى أكتب جيدا إلا عندما أكتب عن رفاقي .. وقد تحول كل ذلك إلى عالم كل من الكمال استطعت أن أجعله كما أريد »

(مجلة الأفلام - مايو ١٩٨٩) .

هنا تبدئ العنصر الأول للإجابة . قد يكون (الفهم) مدخلا هاما للارتباط بالمكان ، لكن (المعيشة) ، تظل أعمق بكثير ، وهي لا تتأثر بكون المكان ضيق محدود ، كالخارة ، فالمهم أن يعاش حتى النخاع ، وأن يمتص الفنان ألوان حياتها المتعددة ونهاذجها الشعبية ، وأن يحاول أن يستخلص منها كل ما يستطيع ، بذلك تصبح تجربته (الحية) ، هي ذلك (القديم) ، باعتباره المأوى الخاص به ، فإذا شاء الفنان أن يكتب ، فإن مصدر إلهامه يصبح هذا الواقع ، الذي يتأثر في استلهامه له بضرورات مختلفة مثل موقعه منه وظروفه الخاصة ، وبمعنى آخر (حياته) ، التي تحتزن

هناك في أعماق (الذاكرة) ، فيكون منطقياً عندما يدع الفنان ، أن يجعل من تلك الأحياء مسرحاً لتجاربه ، بعد أن تبلورت ونضجت في (ذاكرته) ، ودانت له ، حتى استطاع أن يشكلها كما يريد .

● حياة تلقائية :

* « أنا أعتقد أن الطفولة مخزن لكل أديب ، لأنها الفترة التي يتلقى فيها الحياة بتلقائية كاملة ، وليس من خلال نظرية أو فلسفة أو أي شيء آخر وتختلط في وجدانه ، ويعود الأديب إلى فكرتها وإيقاعاتها » .

(مجلة « المصور » - ٢١ أكتوبر ١٩٨٨)

« الحياة الأولى هي التلقائية والطبيعية ، وتمدك بالإنسان في كامل أبعاده ولا تعوض . كلما تقدمت في السن أصبح لك فلسفة ورؤية ، تتغير الأبعاد ، ويصبح عندك منظور يرى الأشياء أكثر من غيرك ، وأشياء بمعنى عليها لا يراها .

لماذا ؟ لأن هذه الفترة عاشها حياة غير مرسومة . حدث لي أن كل التجارب الروائية الأولى كانت نتيجة حياة عاشت بدون تخطيط ، الذي كان يتحكم في علاقاتها العلاقات الإنسانية . أنت تعرف الإنسان كأنسان وبس . . فيه مودة ، نفور ، حب ، كله طبيعي » .

(من كتاب « نجيب محفوظ يتذكر »)

* « بدأت تجربتي الفنية قبل أن يبلور لي رأي أو هدف . كانت التجربة أسبق دائماً من الهدف ، وكأنها كانت سبيل إلى الكشف عن ذاتي أكثر منها وسيلة للدعوة إلى رأي محدد . . . » .

(مجلة « الفكر المعاصر » - سبتمبر ١٩٦٨)

« كل كاتب له جزء من نفسه داخل كتابته . الكتابة تجربة اكتشاف حقيقية . أنت تكشفها من جميع العناصر المتاحة لك . من بين هذه العناصر : الآخرين . . العائلة . . الجيران . . الزملاء في المدرسة أو الوظيفة . . رفقاء السفر ، وأيضاً ذاتك » .

(مجلة « المصور » - ٩ أغسطس ١٩٩١)

• ما الشيء الذى تؤدّ تحقيقه فى كتاباتك المستقبلية ؟ . . .

- مزيد من اكتشاف الذات إن أمكن : والأكثر من هذا : أن أحيا ، لأنى عندما أتوقف عن الكتابة أشعر أنى ميت

(مجلة « فصول » - يناير / مارس ١٩٨٢)

هناك فى حارة (درب قرمز) التى كانت جزءا من ميدان القاضى بحى الجمالية ، قضى نجيب محفوظ طفولته ، التى تُعتبر (مخزنا) لكل أديب ، لأنها تمثل له الحياة الاولى ، التلقائية ، الطبيعية ، حيث تستطيع أن ترى كل شيء ، وتتدفق مشاعرك بسلاسة ويسر ، فترى الإنسان فى كامل أبعاده ، قبل أن تتقدم فى العمر ، وتكتسب خبرات وفلسفة ، فيصبح لك منظورا ورؤيا ، يريك أشياء ويحجب عنك أشياء .

البداية الأولى له كأديب ، تشبه الطفولة ، نتجت عن حياة عاشها دون تخطيط ، كانت التجربة فيها أسبق دائما من الهدف ، فكانت سبيله إلى الكشف عن ذاته ، فكل كاتب له جزء من ذاته داخل كتابته ، لذا فإن ما يتمناه نجيب محفوظ - مستقبلا - هو مزيد من اكتشاف الذات ، وأن يحيا بالكتابة ١ .

• • •

● حب المكان :

• « أعتقد أن الأديب يدع أفضل ما عنده وهو يحب . ولما كان حب المرأة غير متاح دائما . فقد كان حب أى شيء محل حب المرأة » .

(من كتاب « نجيب محفوظ يتذكر »)

• « ولدت فى القاهرة ، وفى أحد أحيائها وأنا أحبها . وأعتقد أن أساسيات الكتابة أن يكون هناك حب لمكان ما ، للناس أو للفكرة أو للهدف »

(مجلة « الاقلام » - مايو ٨٩)

• « إن المنجم الطبيعى هو الماضى البعيد ، ستجد أنك تحب كل من عرفت ، وترغب فى الكتابة عنهم » .

* « إن ما يحركنى حقيقة عالم الحارة ، هناك البعض يقع اختيارهم على مكان واقعى ، أو خيالى ، أو فترة من التاريخ ، لكن عالمى الاثير هو الحارة ، أصبحت الحارة خلفية لمعظم أعمالى ، حتى أحيى فى المنطقة التى أحبها ، لماذا تدور الحرافيش فى الحارة؟ كان من الممكن أن تجرى الأحداث فى منطقة أخرى ، فى مكان آخر له طبيعة مغايرة ، إنما اختيار الحارة هنا لأنه عندما تكتب عملاً روائياً طويلاً ، فإنك تحرص على اختيار البيئة التى تحبها ، التى ترتاح إليها ، حتى تصبح « القعدة حلوة » .

(من كتاب « نجيب محفوظ يتذكر » .

* « كتبت عن الحارة كحارة ، وكتبت عن الحارة كوطن ، وكتبت عن الحارة كالوطن الأكبر أو البشرية . فالحارة بحى لما جعلت منها مدخلى إلى أى تعبير ، وقد أخطأ البعض فظن أبنى أكرر نفسى » .

(من كتاب « نجيب محفوظ : حياته وأدبه »)

هنا ، عنصر حاسم حافظ للإبداع ، فالأديب يبدع أفضل ما عنده وهو يحب ، ولأن نجيب محفوظ وُلد فى إحدى حارات القاهرة القديمة ، وعاش طفولته فيها ، لذا أحب المكان بكل ما يعيش على سطحه من بشر ، وما يسوده من أفكار وطقوس وعادات ، وبذا أصبح منطقياً أن تصبح الحارة - حيث ولد - هى الخلفية لمعظم أعماله ، وكان بديهياً - أيضاً - أن تجرى أحداث ملحمة العظيمة « الحرافيش » فى الحارة ، حتى تصبح « القعدة حلوة » ، ففى الإبداع - كما الحياة - نختار تلقائياً المكان الذى نحبه أكثر لنعيش فيه إذا أمكن ، أو نعود لفترة إليه إذا لم تكن الإقامة ممكنة .

هكذا جعل نجيب محفوظ من الحارة مدخله إلى الإبداع ، فاتخذها أساساً لمستويات مختلفة : تارة كحارة (واقعية) ، وتارة أخرى (رمزاً) للوطن الأصغر أو للبشرية كلها .



● الحنين إلى الطفولة :

* « لقد ولدت في حي الجمالية بجوار الحسين ثم انتقلت إلى العباسية وأنا أحمل هذه الأحياء ذكريات غالية دافئة مارلت أحنّ إليها وأنا في شيخوختي » .

(من كتاب « الرؤى المتغيرة في روايات نجيب محفوظ »)

* « يخيل لي أن الإنسان كلما تقدم في العمر يتذكر طفولته أكثر ، ويستعيد تفاصيل كان يخيل إليه أنها اندثرت » .

* « في هذا الاضطراب ، في هذه الدنيا الغريبة ، يركن الإنسان إلى طفولته ، إلى العمر الآمن الذي انقضى » .

* « مع تقدم العمر يشعر الإنسان ويدرك أن منشأه هو المأوى ، كأنه يعيد دورة الحياة ، إنه يقابل بعالم جديد يبدو لأول وهلة أنه ليس عالمه » .

(من كتاب « نجيب محفوظ يتذكر »)

* « كل طفولة ولها متاعبها التي نعانيها ، ولكن عندما تغادر هذه المرحلة ونرى أشياء أفظع يهياً إلينا أن الطفولة كانت فردوساً » .

(مجلة « المصور » - ٢١ أكتوبر ١٩٨٨)

هنا ، يلور نجيب محفوظ جانباً هاماً ، فكلما تقدم الإنسان في العمر ، وبدأ يشارف مرحلة شيخوخته يحن إلى طفولته ، يتذكرها أكثر ، يستعيد تفاصيل كان يظن أنه نسيها ، فيسترجع ذكريات غالية دافئة حملها لأماكن طفولته في حي الجمالية أو العباسية . أما تعليل هذا الحنين ، فقد يرجع إلى أنه مع تقدم العمر ، يقابل الإنسان بعالم جديد يبدو لأول وهلة أنه ليس عالمه ، فعالمه الذي عرّكه وعاشه حتى النخاع ، هو منشأه الأول ، وهو المأوى الذي يؤوب إليه . كما أن طفولتنا بعد أن تنقضى بكل ما اكتنفها من متاعب ، وبعد أن تغادر هذه المرحلة ، ونرى أشياء أفظع ، تبدى لنا الطفولة كالفردوس المفقود .

ولنتوقف هنا قليلاً ، فهذا (مفتاح) هام يقودنا إلى عالم نجيب محفوظ . إن نجيب

محفوظ قد عانى كثيراً في سنوات طفولته الأولى في الجمالية ، بسبب (وحدته) وسط عالم من الكبار ، إضافة إلى (العزلة) التي ضربت حول تحركاته ومنعته من الانطلاق إلى الحارة ، فظل حبيس جدران البيت ، وإن وجد في السطح ملعباً ، وفي (نافذته) منفذاً إلى عالم (الحارة) السحري في الخارج . إن نجيب محفوظ (طفلاً) لم يعيش الحارة أبداً في (الواقع) ، ولم يتخذ من أترابه فيها (أصدقاء) ، وسرعان ما انتقل منها إلى العباسية ، حيث نال (حرته) ، وانطلق إلى تكوين صداقات طالما حُرِم منها من قبل . . . (من أجل ذلك حرص على صداقاته الجديدة دائماً) ، فظلت (الحارة) حلم حياته المرتجى ، المستعصى ، بعيد المنال ، الذي لن يتحقق أبداً ، وتحولت (الحارة) بمضى العمر إلى فردوس مفقود ، فحاول أن يعيشها ثانية وأن يحقق من خلال الأدب ، ما عجز عن تحقيقه في الواقع .



الباب الثاني

صداقات الصبا

الفصل الأول : الهجرة إلى العباسية

الفصل الثاني : زعيم جماعة أصدقاء العباسية

الفصل الثالث : صاحب الحلم المستحيل

الفصل الرابع : الباحث عن النعمة

الفصل الخامس : رجل عمل

■ الفصل الأول ■

الهجرة إلى العباسية

« وبعد فترة قصيرة حملت المرأة إلينا خبراً مزعجاً وهو أن آل العمري قرّ رأيهم على الانتقال إلى العباسية حيث اشترى أرضاً فضاء لإقامة سراي كبرى . ونساءلت أمي هل هان عليهم حقاً أن يهجروا الحارة التي هي أصل الخير والبركة . فقالت أم أحمد بيقين :
- بعد عام أو عامين لن تجدى أسرة واحدة من أسر الأعيان في الحارة . . . »

(قصة « أم أحمد » - مجموعة « صباح الورد »)

« كنا أول من هاجر من الطبقة الوسطى الصغيرة في أثر أعيان الحارة الذين سبقوا إلى العباسية الشرقية فشدوا القلاع وغرسوا الحدائق . »

(قصة « صباح الورد » - مجموعة « صباح الورد »)



هي واقعة (هجرة) أسرة نجيب محفوظ إلى العباسية ، التي تمت في عام ١٩٢٤ . استخدم نجيب محفوظ فعل (هاجر) للتدليل على ترك موطنه الأصلي (الانتقال) بفرض الإقامة في مكان جديد . وتعتبر هذه (الهجرة) جزءاً من حركة تطور عمراني طبيعية ، فحين ازدهرت الأحياء القديمة في الجمالية وغيرها ، بدأ الأعيان في الانفصال عن الحارات ، التي كانت سراياهم تشكل دعامة أساسية في تكوينها الطبقي ، والانسحاب إلى منطقة جديدة قريبة ، فوجدوا في اتساع العباسية مرادهم وفي أراضيها الفضاء مبتغاهم ، فبدأوا في شراء أراضٍ خالية لبناء سراياهم عليها .

إذن (بدأت) الهجرة إلى العباسية دليل ثراء فاحش ، ورغبة في الاستقلال ، فبنوا

سراياهم في الجانب (الشرقى) منها . ومن لم يسعفه ثراه بنى في البغالة وغيرها من الأحياء ، وسرعان ما تبعهم أهالى الطبقة الوسطى الميسورة ، فأقاموا بيوتهم في الجانب (الغربى) منها .

لقد فطنت الذلالة النشيطة (قصة « أم أحمد » - مجموعة « صباح الورد ») إلى مبرر آخر للانتقال إلى العباسية (أو لعل نجيب محفوظ وضع ما توصل إليه على لسانها) حين قالت : « الدنيا تتغير بسرعة ، الأحياء الإفرنجية هي الموضة اليوم » .

بل إن المرأة بذكائها الفطرى زينت الأمر ، لأم الراوى (نجيب محفوظ) حين استطردت « والعباسية مزامية الأطراف ، وفيها منيع للمستورين أمثالكم .. »

- ونبعد عن الحسين ١٢ .. -

- سوارس تنقلك إليه في نصف ساعة .. -

وهو ما سيفعله كمال عبد الجواد في الجزء الثانى من الثلاثية « قصر الشوق » ، عند ذهابه من بينهم في الجمالية إلى سراى المحبوبة في العباسية : « طوت سوارس شارع الحسينية ، ثم أخذ جوادها المهرولان يجتاز فوق إسفلت العباسية والسائق يلهبها بسوطه الطويل .. » .



والآن ، فلننظر إلى حى « العباسية » في العشرينيات من هذا القرن ، كما استعاده نجيب محفوظ في العديد من أعماله الأدبية :

« حى الهدوء الشامل والحقول المترامية والحدائق الغناء . شرقه قصور كالقلاع وشوارع شبه خالية يجللها صمت وقور ، وغربيه بيوت مستقلة ذوات حدائق خلفية صغيرة تزدان بكرمة وشجرة جوافة وأرض مزروعة بالشيخ والورد والقرنفل ، تحدق بها الحقول ، في طرفها ساقية تدور بين خوائل من أشجار الحناء ، وتزهو رقعتها بالجرجير والطماطم ، وتنتثر فوق أديمها نخلات معدودات ، أما فيما يلى أسوار البيوت فتتمتد غابة من أشجار التين الشوكى . في النهار لا يخرق صمتها إلا جلبة الترام ، وفي الليل لا

يتردد في جنبائها إلا صيحة الحفير ، وإذا هبط الليل عليها بظلامه فلا يخفف من غلظته إلا إشعاعات الفوانيس المدلاة من أعالي أبواب بيوتها .

(فصل « جعفر خليل » - رواية « المرايا »)

« وتحقق من الزمن ما خطر لأم أحمد فانتقل الأعيان إلى العباسية الشرقية وشيدوا قلاعهم العملاقة ، كما انتقلت الطبقة الوسطى « المستوردون » إلى العباسية الغربية فسكن البعض بيوتا صغيرة واشترى البعض ما يناسبه .

(قصة « أم أحمد » - مجموعة « صباح الورد »)

« العباسية في شبابها المنطوى واحة في قلب صحراء مترامية . في شرقها تقوم الرايات كالقلاع وفي غربها تتجاور البيوت مزهوة بجدرانها وحدائقها الخلفية . تكتنفها من أكثر من ناحية حقول الخضر والنخيل والحناء وغابات التين الشوكي ، ويشملها هدوء عذب ومكينة ساذجة لولأ أزيز الترام الأبيض بين الحين والحين في مسيرته الدائبة ما بين مصر الجديدة والعتبة الخضراء . . . ويب عليها هواء الصحراء الجاف فيستعير من الحقول أطايبها مثيرا في الصدور حبها المكنون ، ولكن عند الأصيل يطوف بشوارعها عازف الرباب المتسول بجلباب على اللحم ، حافيا جاحظ العينين ، يشدو بصوت أجش لا يخلو من تأثير نافذ :

آمنت لك يا دهر
ورجعت ختني

(رواية « قشمر »)

إذن ، بقى من عباسية العشرينات في (ذاكرة) نجيب محفوظ ، موقعها الجغرافي كواحة في قلب صحراء مترامية ، وبنائها الطبقي حيث أقام الأعيان (شرقيها) سرايا أو قصورا كالقلاع ، كما سكنت الطبقة المتوسطة (في غربها) بيوتا صغيرة واشترى البعض ما يناسبه .

وإذا كان نجيب محفوظ قد ولد وعاش طفولته في حارة قرمز التي عبّر عن تكوينها الطبقي في كتاب « نجيب محفوظ يتذكر » حين قال : « كانت الحارة في ذلك الوقت عالما غريبا ، حيث تتمثل فيها جميع طبقات الشعب المصري ، تجد مثلا ربعا ، يسكنه

ناس بسطاء ، أذكر منهم عسكري بوليس ، موظف صغير في « كبانية » المياه ، امرأة فقيرة تسرح بفجل أولب وزوجها ضرير ، لهم حجرة في الربع . وأمام الربع مباشرة نجد بيتا صغيرا تسكنه امرأة من أوائل اللواتي تلقين التعليم وتوظفن ، ثم نجد بيوت أعيان كبار : مثل بيت السكري ، بيت المهيلمي ، بيت السبسي ، وبيوت قديمة أصحابها تجار ، أو من لولئك الذين يعيشون على الوقف . كنت نجد أغنى فئات المجتمع ، ثم الطبقة المتوسطة ، ثم الفقراء ، حتى انه توصل إلى نتيجة عبر عنها في قصة « أم أحمد » حين كتب :

« ومن عجب أن الحارة كانت أسرة كبيرة لا تعترف بالفوارق الطبقة ، أجل لم يكن التزاور ممكنا بين الربع والسراي ، ولكن السرايات كانت تفتح أبوابها لأهل الربع في رمضان والأعياد ، يجلسون في الحديقة ويأخذون نصيبهم من اللحوم والكعك ويستمعون لتلاوة القرآن من كبار القراء » .

فانظر إلى (التحول) الذي عايشه في صباه ، عندما اندثرت هذه التركيبة بانتقالهم إلى العباسية ، فإذا الأعيان والأثرياء بسراياهم إلى الشرق من شارع العباسية وإذا الطبقة الوسطى بيوتهم إلى الغرب من شارع العباسية . ولكن أي (تغير) رهيب قد طرأ ؟ ولم تتواصل الرابطة القديمة بين الطرفين فرعان ما تعرضت للوهن والتمزق . لأمر ما شغل كل فريق بيئته الجديدة . وكان شارع العباسية الذي يفصل بين الجانبين أصبح سدا لا يعبر إلا في الملمات وقد لا يعبر أبدا . عدنا غرباء ، أو كالغرباء ، بل صرنا مع الزمن أعداء أو شبه أعداء . . . وحمل إلينا الزمن أفكارا جديدة تكرس العداوة والانقسام ، وحتى الانتهاء للحزب الواحد لم ينجح في محو تلك الغربة الزاحفة » .

(قصة « أم أحمد » - « صباح الورد »)

هنا انفصال كامل بين (الغنى) و (الفقر) ، وبرز للفارق (الطبقي) بينهما بعد أن عاشا ونام الجيرة في الحارة زمنا طويلا ، وكان هو الفرق الأول (الجوهري) بين الحين ، أو على حد تعبير نجيب محفوظ في قصة « أم أحمد » : « انتقلت الحارة إلى العباسية ولكن لتعيش في دويلات مستقلة » والفارق الآخر الذي أوضحه نجيب محفوظ في أكثر من عمل هو « الهدوء المخيم على ربوعها » الذي لا يعرفه « حية العتيق الزيات »

(كما عبر عنه في « قصر الشوق ») وكان طيعيا أن يركز نجيب محفوظ أضواءه على الجانب الغربي من العباسية . حيث استقرت أمرته في شارع الرضوان ، الذي كان يقع بين شارع العباسية وبين الجنائين ، ورتبنا حبا لهذا الشارع ، وتخليداً لسكنى أسرته فيه كتب قصة « صباح الورد » التي يبدوها بوصفه . . « كان يستكن في حوض الهدوء الشامل ، محاذيا في حبور الحقول والحدائق ، يشمل بمناجاة يومية مع أشجار الحناء والياسمين والتين والخضروات ، وخرير السواقي ، مزهوا ببيوته المهندمة ذات الحدائق الخلفية الصغيرة وفي الشتاء تسقفه السحب وتتجهجه وجوها المكفهرة . وحتى إذا أمطرت مطرة واحدة مال سطحه المائل بالمياه الجارية لتتجمع في شارع بين الجنائين صانعة نهرا يفور بالزبد ، وفي الصيف تلهب الشمس فتنتلق من صناير جدرانها خراطيم المياه ترش الأرض مهددة حرارتها الحامية » .

وكان منطقيا بعد أن رصد نجيب محفوظ التحول والتغير بشكل (عام) بين الحارة القديمة والحى الجديد ، أن يقارن أيضا بين العباسية الغربية والحى العتيق بشكل (خاص) وذلك في قصة «صباح الورد» : « وينظر القادم من الحى الشعبى العتيق فيما حوله بدهشة وسرور ، ولا يجد في قاموسه وصفا للشارع والبيوت والناس إلا أنه شارع إفرنجى وبيوت إفرنجية وأناس متفرنجون ، لا ينقصه إلا القبعة واللغة الأجنبية ، ومع ذلك فقد ترى القبعة فوق شعر مقصوص الاجرسون ، أو تسمع الفرنسية في حوار عابر، وقد نطق صباهه بجملة " أحبك واعطنى قبة " بالفرنسية قبل أن يتعلموها في المدارس بسنوات طويلة » . ثم ها هو يضيف فارقا آخر ، في ذات القصة : « والنقلة من الجمالية إلى العباسية في ذلك الزمان تعتبر وثبة من القرون الوسطى إلى أعتاب العصر الحديث . توارت الحارة والأزقة بعيرها العنبرى ومصاييحها الغازية وعرباتها الكارو وملاءاتها اللّف والجيب والقفاطين والععمم . وتلقانا الرضوان ، ملتقى الريف والمدينة ، بعصرية مقتحمة مهديا إلينا المياه والكهرباء والصرف الصحى » .



كانت أسرة نجيب محفوظ قد استقرت في بيت من البيوت في منتصف الجناح المطل على الحقول ، وكانت تتكون من الأم والأب ونجيب ، أما الإخوة والأخوات فقد هاجروا هجرة دائمة إلى بيوت الزوجية . ولتنظر إلى مشاعر الأبوين بهذا الاستقرار ، كما عبر

عنها نجيب محفوظ في قصة « صباح الورد » : « وكان والدای قد فارقا الشباب بعقد أو عقدين من السنين ، والحق أن فرحتها بالحياة الجديدة شابها اكتئاب وحنين ، ولم يستطيعا التحرر من هيمنة الحى القديم على قلبيهما ، من أجل ذلك لم ينقطع أبى عن حبه ، أناسه ومقاهيه ، وكذلك أمى واطبت على زيارة الحسين وجيران الزمان الأول ورتبا سألت أبى فى عتاب :

.. لماذا هجرنا بيتنا القديم ؟ » .

حتى تطورت أمورهما بعد ذلك .. « منذ زمن لا أذكر أوله استقرأ فى أعماقهما طمأنينة أبدية ونعما بسلام دائم . ولا يخرج أبى عن إطاره إلا إذا أغرته السياسة بأخبارها . يطيب له متابعة الأحداث والتعليق عليها » (قصة « الغابة المسكونة » - مجموعة « الفجر الكاذب ») .

* * *

والآن ، ما هى التغيرات التى طرأت على الصبى نجيب محفوظ نتيجة هذه الهجرة ١٩٠٠ ..

إذا عدنا إلى كتاب « نجيب محفوظ يتذكر » ، وفى سياق حديثه عن الهجرة أو الانتقال إلى العباسية ، سرعان ما تلفت كلمات الكاتب الكبير الاهتمام فى ثلاثة مواضع :

الأول : حين يقول : « فارقت منطقة الجمالية إلى العباسية وعمرى اثنا عشر عاما ، وكان لانتقالنا إلى العباسية تأثير كبير على حياتى ، ولم تكن العباسية التى انتقلت إليها فى تلك السن المبكرة تشبه العباسية الحالية ، الآن ، تقوم المباني فى كل مكان ، والشوارع تتقاطع وتتجاوز ، لكن عباسية زمنى القديم كانت تحوى الكثير من الخضرة ، والقليل من المباني ، كانت البيوت صغيرة من طابق واحد ، وكل بيت تحيطه حديقة ، ثم تمتد الحقول حتى الأفق ... » .

هنا تأكيد لوجود « تأثير كبير » للعباسية على حياته ، وبدلا من توضيح وتفصيل هذا التأثير ، إذا به يقفز مباشرة إلى (النقلة) الذى اجتاحت العباسية بمرور الزمن ، مركزا حديثه على العباسية (الغريبة) التى عاش فيها .. فلماذا هذه (النقلة)

المفاجئة؟ وما هو الارتباط بين تأثير العباسية الكبير على حياته ، والنقلة التي طرأت على حيّهم الغربى خاصة ؟ ا .

ثم يعود نجيب محفوظ فى ذات الصفحة - وهذا هو الموضع الثانى - ليستأنف حوارہ . . « قلت إن انتقالى إلى العباسية أحدث نقلة كبيرة فى حياتى ، والغريب أن أصدقائى ، أصدقاء العباسية ، أصدقاء الصغر ، استمرت علاقتى بهم حتى هذه اللحظة ، باستثناء الذين انتقلوا إلى رحمة الله ، حتى بعد أن فرّق بيننا المكان ، أحدهم إلى المعادى ، وآخر إلى الهرم ، لكننا عندما نلتقى ، حتى بعد انقطاع زمنى ، فكأننا نستأنف لقاء لم ينقطع إلا بالأمس فقط ، كان أصدقاء العباسية مجموعة متناقضة ، فيها كل نوعيات البشرية ، من أسماها إلى أدناها ، فيهم نامس تقلدوا أكبر المناصب المهنية ، أطباء ومهندسين ومحامين ، ومنهم بلطجية ، وبرجىة ، ومنهم فتوات ، والعلاقة بيننا كانت حميدة ، حتى الشرير منهم كان يمارس شره بعيدا عنا ، كانوا أكثر من مجموعة ، لكننى كنت صديقا لكل ، كلهم شخصيات لا تنسى ، لم يهن العلاقات ، حتى بالبعد ، وهذا غريب ا . »

لقد عاد نجيب محفوظ - فى هذا المقطع الثانى - إلى تأكيد أن انتقاله إلى العباسية أحدث (نقلة) كبيرة فى حياته . انظر لتعبير (نقلة) يكاد يكون مرادفا لا واعيا لتعبير (تأثير) . هل يمكن أن نستج من هذا ، أن (التأثير) الذى أحدثه انتقاله إلى العباسية على حياته مواز (للنقلة) أو (التغير) الذى أحدثه مرور الزمن على العباسية ، من حيث الشكل والعمق والجوهر ؟ وانظر إلى انتقاله مباشرة إلى الحديث عن أصدقائه ، ثم تحديد (أصدقاء) العباسية ، (أصدقاء) الصغر (كأن هذا هو التأثير والنقلة الكبيرة التى حدثت فى حياته) . ثم انظر إلى تأكيدى على (استمرار) علاقته بهم حتى هذه اللحظة واستدراكه بأنه كان صديقا (لكل) . وانظر إلى افتتاح حديثه بكلمة و (الغريب) ، واختتامه بتعبير (هذا غريب ا) ، وكأنه بعد مضى أكثر من خمسين عاماً ، عندما يستعيد تأثير تلك الفترة ، يندهش ، اندهاشة من فوجيء بحقائق عالم (صداقات العباسية) ، واستمرارها ، وحرصه الشديد عليها !! .

وأخيرا ، نجد نجيب محفوظ يطرق ذات الموضع - للمرة الثالثة - فى سياق إجابته :
هل أنا منطو ؟ أنا طول عمرى لم تحل فترة واحدة لى من أصدقاء ، فى العباسية كنت

طوال النهار مع أصحابي ، لكن في فترات أخرى تجدني لا أبادل الزيارات مع الأقارب .

ننظر هنا إلى الأجابة بالمقابل ، بتأكيد تواجد الأصدقاء طوال فترة حياته . ثم ننظر إلى انتقاله مباشرة إلى فترة (العباسية) . لقد سقطت مرحلة طفولته في الجمالية من حسابه بشكل لا واع ، لخلو تلك الفترة من الصداقات . وهذا هو (التأثير) الكبير الذي حدث في حياته نتيجة انتقاله إلى العباسية .

لقد وجد نجيب محفوظ (الصبي) أخيرا العالم الذي كان يفتقده ، ولم يعشه أبدا في الجمالية ، حين مرت طفولته فيها بثلاث مراحل من حيث السماح والمنع بالنسبة للعب في الشارع والحارة وتكوين الصداقات بالتالي : المرحلة الأولى سابقة لدخوله الكتاب وكان يسمح له باللعب خارج البيت لصغر سنه . والمرحلة الثانية هي مرحلة دخوله الكتاب فكانت بداية منعه من اللعب في الخارج ، على أن تصحبه الخادمة خلال ذهابه وإيابه خوفا عليه من شقاوة وعفرتة الطفولة . أما المرحلة الثالثة التي بدأت بانتقاله إلى المدرسة الابتدائية ، فرفعت عنه مرافقة الخادمة له في ذهابه وإيابه، ماعدا فترة مظاهرات ١٩١٩ ، مع استمرار رقابتها عليه في البيت لمنع تسلله منه إلى الخارج . هكذا أشبع الطفل نجيب محفوظ نهم الطفولة إلى اللعب والانطلاق داخل حدود البيت ، فكان (السطح) مرتعا لطفولته ، وكانت (نافذة) غرفته هي همزة الوصل أو أداة الربط مع العالم الخارجي (انظر فصل « من النافذة ») .

إذن ، كان ذلك هو التأثير الكبير الذي أحدثته العباسية في حياته . لقد ارتبط انتقاله إليها بتحرره من قيود المنع والرقابة التي لازمته غالبية فترة طفولته في الجمالية . هل كان الأمر يرجع إلى اقتناع الأبوين بنضجه وكبره بما يستلزم ذلك من رفع الوصاية عنه ؟ أم أن الأمر كان يرتبط برقي الحى الجديد ، وارتفاع مستوى الصبية من عمره فيه ، بما يتيح له الاختلاط بهم دون خوف عليه من تأثير رفقتهم ؟ أم هي تقاليد واقع جديد أجبرت الأبوين على الانصياع لها ؟ أم أن هناك حدث ما (أو مرض ما كالصرع مثلا) قد حدث بحيث وجد الأبوين أنفسهم مجبرين على منحه قدرا أكبر من الحرية والانطلاق ؟ . . .

ربما يرجع تحرره إلى أكثر من مبرر من هذه المبررات . المهم أن انطلاقه في العباسية (على تقيض ما كان يحدث في الجمالية) أتاح له أن يحقق ذاته ، وأن يجد عالم الأصدقاء الذي طالما حلم به ، بحكم نشأته وحيدا ، ومنعه من اللهو وتكوين الصداقات في الجمالية . فكان حتما أن يقبل على هذا العالم الجديد بكل عنفوانه ، متمسكا بالأصدقاء والصحاب ، حريصا عليهم كل الحرص ، بحيث صار صديقا لكل ، واستمرت علاقته بهم على الرغم من كل الظروف .

بطبيعة الحال لم يفتن نجيب محفوظ لهذا (التأثير) ، وهذا سر (استغرابه) كمن فوجيء بحقائق عالم (صداقات العباسية)، عندما أطلّ على تلك الفترة بعد مضي أكثر من خمسين عاما. وإن حاول أن يتلمس تبريرا عقلانيا لسر تشبه الغريب بصداقات العباسية - حين أوضح بعد ذلك في سياق إجابته لسؤال عما إذا كان انطوائيا، في كتاب «نجيب محفوظ يتذكر» - حين قال : «إنني لا أندمج إلا مع الأصدقاء الذين أبقي معهم على سجنى ، ونقعد كما أقعد مهك الآن ، في مقهى ، في الشارع ، فوق الأرض» ، و «مع الأصدقاء كنت أصبح على طبيعتى ، إننى لا أطبق التكلف ، لا أحمله ، لا أحب إلا الجلسة التى أصبح فيها مع أصدقائى وكأئننى بمفردى» .

هكذا ترسخت «الصداقة فى وجدان نجيب محفوظ ، ولتنظر إلى مشاعر كمال عبد الجواد فى الجزء الثالث من «السكرية» . فى أعقاب تعرفه بالقاص رياض قلندس «شمل كمال إحساس بالسعادة لهذه الصداقة الجديدة» ، «كان يشعر أحيانا أن جانبا ساميا من قلبه استيقظ بعد سنوات عميق ، فافتتح أكثر من قبل بخطورة الدور الذى تلعبه الصداقة فى حياته ، وبأنها عنصر حيوى ، لا غنى له عنه ، أو يظل كالظامىء المحترق فى الصحراء» .

لذلك فإننا قد نتعاطف مع نجيب محفوظ وهو يعبر عن مشاعره بعد انتقالهم إلى العباسية فى قصة «صباح الورد» حين يقول : «أما أنا فقد انقسمت إلى اثنين ، .. تكيفت مع الجديد وأصدقائه ومجالسه وعصريته ، وكلما سنحت فرصة للرحلة للحى العتيق انتهزتها حتى جرفت معى الأصدقاء الجدد فاكتشفوا على يدى عالما غريبا ، عشقوه ، وأقبلوا عليه كالسائحين» .

ويرجع هذا التعاطف إلى اقتناعنا بأن نجيب محفوظ قد وجد في العباسية ضالته من الأصدقاء (فعلا) ، وروى ظمأه إليهم ، الذى ظلّ يعانيه سنوات طويلة في الجمالية . ولكن كيف نتقبل معنى أن يحرف أصدقاءه الجدد إلى الحى القديم ، ليكون هو دليلهم إليه ؟ لأن هذا لم يحدث في الواقع ، بل إن ما حدث فعلا هو أن أحد أصدقاء العباسية الجدد (كما سنرى) هو الذى كان دليلهم ودليل نجيب محفوظ للتعرف على خبايا الحى العتيق .

هنا ، ربّما يتفسر أن نجيب محفوظ حقق في الفن حلما طالما راوده ولم يسعفه الواقع بتحقيقه ، في أن يكون هو القادم من الحى العتيق (الذى قضى فيه طفولته ، ويفترض فيه معرفته به) مرشدا لجماعة الأصدقاء الجدد (الذين يفترض أنهم يجهلون ، ولا يعلمون عنه شيئا) ، فيحييهم إليه ، (وهو يكشف لهم خباياه وأسراره) ، حتى يعشقوه (كما عشقه) ، ويقبلوا على زيارته مرات ومرات ، ليظلوا رغم ذلك بعيدين عنه كالبحاثين (لا يملكون تفرّده - وحده - بالانتهاء إليه) .



ويبقى في النهاية ملمحان يرتبطان بانتقال أسرة نجيب محفوظ إلى العباسية . . . الملح الأول لعبت فيه صحراء العباسية دورا هاما في صباه ، حيث كانت . . « صحراء مولد النبی » هي ملعب الكرة لصبيان العباسية ، تتسع للعديد من فرق الهواة يمارسون هوايتهم في وقت واحد . ولما نفرغ من مبارياتنا الودية نرتدى جلابينا فوق أردية اللعب المعروفة ونرجع إلى الحى « قصة الغابة المسكونة » - مجموعة « الفجر الكاذب » . وكثيرا ما سير « نجيب محفوظ » في « المرايا » بحذاء سوز سراى آل الكاتب (بيت المعبودة) مع أصدقائه وهم في طريقهم إلى الصحراء للعب الكرة ، بل سيكون لقاءه الأول مع فتاته « ذات يوم وكنت ماضيا نحو الصحراء » . كما أنه أوضح في قصة « الغابة المسكونة » : « وكنت أدخلو إلى نفسى كثيرا في الصحراء خاصة في العطلات الصيفية أقرأ وأنامل أو أدخن السجائر بعيدا عن أعين الرقباء » . وأخيرا . . يعترف نجيب محفوظ في كتاب « نجيب محفوظ يتذكر » : « أما الخلاء الذى يظهر في عالم الحارة فاستوحيته من العباسية . أثناء مكثى في العباسية كثيرا ما كنت أخرج إلى حدود الصحراء إلى منطقة عيون الماء حيث كان الاحتفال يقام عادة بالمولد النبوى ، هناك كنت أجد نفسى

وحيدا، خاصة أن هذا الخلاء كان على حافة المقابر . . كان خلاء لا نهائيا .

قد يكون مفهوم « الخلاء » قد تجسد ونضج وتبلور - بمفزاه الذى سينعكس فى الأدب فيما بعد - فى العباسية ، ولكن لا يجب أن تنسى أن بذرته الأولى نبتت فى الجمالية، حين كان نجيب محفوظ طفلا يتابع من نافذة غرفة السطح جزءا من عالم الفتوات ، كما أوضحه فى « نجيب محفوظ يتذكر » : « كنت أفرج على الفتوات الذين يجيئون بعد معاركهم فى الخلاء إلى قسم الجمالية » ، « كان الفتوات يتفقون على الخروج إلى الخلاء ، فتوة العطوف مثلا مع فتوة قصر الشوق ، للمخناق ، لكل فتوة رجاله ، يشيلون المقاطف المليئة بالطوب والزجاجات ، وينجهون كلهم إلى الخلاء ، خلاء اسمه أرض الممالك ، وبعد أن يحطم كل منهم الآخر ، كنت أرى النتيجة ، السيارات تحملهم إلى قسم الجمالية » .

أما الملمح الثانى الذى لازم نجيب محفوظ بعد انتقاله إلى العباسية : فعلى الرغم من أنه من ساكنى الحى الغربى من العباسية ، إلا أنه اعتاد أن يجعل من العباسية الشرقية موطننا لتزهاته المتكررة صيفا ، وانظر إلى الراوى (نجيب محفوظ) فى (قصة « أم أحمد » - مجموعة « صباح الورد ») حين يقول : « واعتدت أن أجعل من العباسية الشرقية مرتادى ونزهتى خاصة فى أصائل الصيف ، أتمشى فى شوارعها الواسعة وميادينها الأنيقة ، أقلب النظر فى القصور الشائخة والحدائق الغناء » . وهو نفس ما كان يضمه كمال عبد الجواد فى الثلاثية (رغم أنه من السكان المقيمين فى الجمالية) : « كان يضمم للعباسية إعجابا كبيرا ويكن لها حبا وإجلالا يبلغان حد التقديس ، أما الإعجاب فمرده إلى نظافتها وهندستها والهدوء المخيم على ربوعها ، وكل أولئك سمات لا يعرفها حبه العتيق الزيات . وأما الحب والإجلال فمرجعهما إلى أنها وطن قلبه ومنزل وحى حبه ومشوى قصر معبودته » .



■ الفصل الثامن ■

زعيم جماعة أصدقاء العباسية

« كان لنا صديق من شلة العباسية توقف عن الدراسة وانتقل للعمل مع والده في دكان منيفاتورة بالغورية . كنا في الأجازه ، في العطلة المدرسية ، كانت أكثر من أربعة شهور ، كان يقول لنا : لابد أن نجثوني يومياً .

كنا عندئذ نقطع الطريق سيراً على الاقدام ، بدءاً من ميدان فاروق (ميدان الجيش حالياً) ثم شارع الحسينية ، ثم بوابة الفتوح ، فشارع المعز . كان لابد أن نمشي حتى الغورية لاستمتع بالمنطقة ، وعندما نصل إليه نبقى معه حتى يغلق الدكان . ثم نمضي إلى مكانين كان بفضل الجلوس فيهما . مقهى زقاق المدق ، ومقهى الفيشاوى . « عرفت المقهى في سن مبكرة منذ أوائل الثانوى بفضل سيد الشماع صديقنا في الغورية ».

(من كتاب « نجيب محفوظ يتذكر » - ص ٥٤ ، ١٢٦)

« ولما يش من مواصلة الدراسة في المدرسة الابتدائية عمل في دكان أبيه في الغورية ، وفي العطلة السنوية كنا نذهب إليه في المغارب ، ولما يغلق الدكان يمضى بنا في أنحاء الحى الحسينى ، من عطفة إلى عطفة ، ومن مقهى إلى مقهى ، فعرفنا بإرشاده مجاذيب الباب الأخضر والفيشاوى والمدق وخان الخليل ، واستمعنا إلى أذان على محمود ومواويل

العربي ، وعلمنا - ونحن في السنة الأولى من المدرسة الثانوية - تدخين الجوزة والبورى
والنارجيلة ولعب النرد والدومينو .

(سيد شعير - رواية « المraya »)

« سيد الشماع » ، من أهم أصدقاء نجيب محفوظ بعد انتقاله إلى العباسية مع أسرته
عام ١٩٢٤ . شخصية حقيقية عايشها نجيب محفوظ في صباه ومراهقته ، فانعكست
بعد ذلك في العديد من أعماله الإبداعية ، كان أولها رواية « المraya » (١٩٧٢) .

كيف كانت معالجته الفنية لتلك الشخصية في « المraya » ؟ .

كيف تطورت معالجته في أعماله الأدبية الأخرى ؟



تأرجحت معالجة نجيب محفوظ لشخصية هذا الصديق بين عدد من الثوابت
والتغيرات . أول الثوابت أنه حافظ على اسمه الأول وغير اسم الأب ، فصار سيد
شعير. كما أنه لم يتم دراسته الابتدائية ، فعمل في دكان أبيه في الغورية . وأن لقاءات
الأصدقاء معه - ومن بينهم نجيب - كانت تتم في دكانه بالغورية ، ليبقوا معه حتى
يغلق الدكان . وفي حين لم يذكر نجيب محفوظ - في حوار - أيًا من صفاته ، بل أوضح
أنه كان يمضى بهم إلى مكانين كان يفضل الجلوس فيهما هما مقهى زقاق المدق ومقهى
الفيشاوى ، وأنه بفضل هذا الصديق عرف نجيب محفوظ المقهى (منذ أوائل ثانوى ،
وهو ما أثبتته في الحوار و « المraya ») ، فإنه في « المraya » أفاض في تعداد صفات هذا
الصديق ، حيث كان زعيم الجماعة . . « ولكن الزعامة لا تقوم على القوة وحدها ، لابد
لها من أساس مكين من الحب . وكان سيد شعير محبوبا كما كان كريما ، وفي أوقات
اللعب كان مهرجا ، وفي ليالى رمضان كان نجما ساطعا . . » ويقدر ما كانت أسرته
متدينة بقدر ما كان مستهترا . ثم اعترف نجيب محفوظ ضمنا بأنه كان أداة ربط رئيسية
له في دعم وتنمية واستمرار علاقته بالحى القديم ، بعد أن بدأ وعيه يتفتح وينضج ،
بل إنه كان نعم المرشد للتعرف على أهم معالم وطقوس وشعائر ونماذج وآثار الحى
القديم ، حين كان يمضى بهم . . « فى أنحاء الحى الحسينى من عطفة إلى عطفة ، ومن
مقهى إلى مقهى ، نعرفنا بإرشاده مجاذيب الباب الأخضر والفيشاوى والمدق ... الخ » ،

لذا كان منطقيًا أن يعترف نجيب محفوظ - في حوار - بفضل هذا الصديق في الكتابة عن زقاق المدق ، حين قال : « عرفت زقاق المدق بفضل صاحبنا هذا . الحقيقة كان بيني وبين المنطقة والناس هناك ، والآثار علاقة غريبة ، تثير عواطف خيمة ، ومشاعر غامضة ، لم يكن ممكناً الراحة منها فيما بعد إلا بالكتابة عنها » .

وفي حين علل هجر هذا الصديق لأبيه ، بمجىء أزمة الثلاثينات وبأنه مغامر ، فإنه في « المرايا » فُسر رحيله ، بنشوء الخلاف بينه وبين أبيه بسبب النساء من زبائن المحل ، لأنه كان يغازلهم مما اضطره إلى طرده ، فعمل في محال كثيرة حتى خنقت الأزمة الاقتصادية التجارة فاستغنى عنه ، ووجد نفسه وحيداً بلا مورد ولا أهل ولا أمل .

وانفرد الحوار بمحاولة نجيب محفوظ حين وسطه صديقه للذهاب إلى والده ، لإصلاح الأمر بينهما ، فهب البيت كله في وجهه ، حتى أمه ، لأنه تخلى عن الأسرة في وقتٍ حرج ، بينما انفردت « المرايا » بتبع تاريخ حياته ، حين اشتغل خلال الأزمة الاقتصادية كموزع لتاجر مخدرات ، وفي الخطوة التالية عرف السبيل إلى أحياء البغايا ، لا كهوا ، ولكن كمحترف ، وعاشر امرأة وأقام معها في بيتها . وإنضم بقدره قادر إلى زمرة رجال الأعمال فافتح مقهى في وجه البركة ، كان يديره بحزم الفتوات وابتسامة التجار المحترفين . .



كثيراً ما أذهل الفنان نجيب محفوظ قراءه بخبراته الواسعة عن عالم البغاء ، وفي رواية « المرايا » خلال تقديمه لصديق العباسية الذي كناه « سيد شعير » ، اعترف بنبع هذه الخبرة ، حين دعاهم سيد شعير إلى الطواف بمملكته الجديدة في عالم البغاء : « ومضى سيد شعير في تلك الدروب ، كما فعل من قبل في الحى الحسينى ، ولقننا كافة تقاليدنا وأسرارها ، وسهرنا في مقاهى الأُنس ومجالس المعلمات والفتوات والبلطجية والبرجية ، حتى باتت أغانيها الخليعة وأناشيدها الساخرة ودعاباتها الفاضحة ورقصات العارية ، باتت تعزف في رؤوسنا كالسحر الأسود وتسكب في قلوبنا عصير الأفراح والمآسى » .

ومن خلال هذه (الخبرات) كتب نجيب محفوظ قصة « العالم الآخر » - مجموعة « شهر العسل » (١٩٧١) ، وهى تحكى قصة طالب محدود التجربة ، وقع حى البغاء

ضمن المنطقة التي كُلف فيها بأن يحض الأهل على الإضراب في اليوم التالي ، لأنه الذكرى الأسيفة لمرور عام على إلغاء الدستور . وبطبيعة الحال لا تفهم المعلمة دعوته ، إلا أن الطالب تعرّف في تابعها على صديق الدراسة والحي القديم - وهنا لا نستطيع أن نفهم هذا الحوار ، إلا على ضوء علاقة نجيب محفوظ بزعيم جماعة الأصدقاء القديم ، ومحاولته الفاشلة لإصلاح العلاقة بينه وبين أبيه وأسرته - (كما وضح في حوارهِ في « نجيب محفوظ يتذكر ») وانظر إلى حوارهما والتابع يسأل الطالب :

« - أمارلت نذاكر وتنجح وتشارك في المظاهرات ؟ ..

- وانت ا . . . أين أنت ؟ .. كم أوحشتني ا . . .

- بنجّل إلى أنك نسيتني ا . . .

- أبدًا . . . حتى والدك نفسه . واثنتي الجراة مرة على أن أسأله عن مكانك . . .

فضحك التابع وتساءل :

- وكيف أجابك ؟ ..

- نهزني ، وحذرنى من العودة إلى ذكر اسمك على مسمعه ا . . .

- وكيف حال أسرني ؟ ..

- بخير ، ولكن لم انقطعت عن زيارتهم ؟ » .

وسرعان ما يعرض التابع على الطالب أن يقضى وقتاً ممتعاً مع راقصة ، لكن الطالب يرفض (انظر أصدقاء تجربة نجيب محفوظ طفلاً مع قريبه وهروبه مذعوراً لحظة اصطدام خياله البكر مع ضراوة الواقع وفجاجة عرى المرأة) وكأنه استفاد من تجربته القديمة ، وأصبح أكثر وعياً ونضجاً .

إن نجيب محفوظ كفتان كبير واسع الحيلة ، يُعيد بناء قصته الجميلة ، وذلك بالتوليف بين عدد من خبراته . هنا تعتبر شخصيتا الطالب والتابع (المتقابلتان) امتداداً لشخصيتا الطفل الغريب والقريب المجرب ، لذا كان منطقيّاً أن يرفض الطالب أن يخوض تجربة سبق أن عرّكها نجيب محفوظ وهو طفل برىء . كما أضفى نجيب على الحوار بعداً موحياً ، حين جاء مبتوراً حذفت أبعاد تشكيكه السابق (وإن كنا فهمناه

على ضوء خبرة صداقة ومحاولة حقيقية قام بها نجيب فعلاً ! . ومن ناحية ثالثة اعتمد نجيب على اللمسة الفنية في تعرية مأساة تلك الشخصية بعيداً عن فجاجة الاعترافات الميلودرامية التقليدية (انظر إلى مجرد استفسار الطالب عن الصورة التي كانت داخل حلية حول عنق الراقصة فأثار بكاءها . إنها لقطه توحى بمأساة دفينه في حياة الراقصة لن نطلع أبداً على أبعادها ، وإن تجسّد تأثيرها أمام مشاعرنا) . وأخيراً فإن نجيب محفوظ وظّف خبرته المكتسبة حول تقاليد وأسرار عالم البغاء في بناء أحداث القصة ، حيث الفتوة الذي يأخذ الأتاوة ويستحوذ على الراقصة ، والجديد أنه لا يجد الراقصة (لأنها ماتت بعد مجيئه إثر أزمة قلبية مفاجئة) ، كما أن التابع يُقتل في المواجهة ، لتقبض الشرطة على الطالب في النهاية ، ويتعرف عليه أحد الجنود فيلومه الضابط : « ماشاء الله ! . . تُشعلون الفتنة في البلد وتهربون إلى الموابخ ! »



لا شك أن علاقة نجيب محفوظ بزعيم جماعة الأصدقاء ، وما اكتسبه منه من خبرات ، ظهرت أصداؤها بشكل طبيعي في العديد من أعماله الإبداعية . ولنتوقف أولاً عند قصته الرائعة « الظلام » - مجموعة « تحت المظلة » (١٩٦٩) . وفيها نجد (معلماً) أقام قعدة مخدرات (خيالية) لمجموعة من الشخصيات يعيشون من أماكن مختلفة ، يجمعهم غرض واحد . وانظر لكلمات المعلم كلما دعا أحدهم قال له :

« في عزبة النخل دارى . وفي حوضها الخلقى فيما يلي الحقول شبتت حجرة مرتفعه ، معزولة عن الأرض بلا موصل يفضى إليها ، سنصعد إليها على سلم خشبي سرعان ما يطرح تحت أكوام النبن ، فهو حصن لا يكس ، ولها من الظلام حولها حصن آخر .

أجل ، هاهم معلقون في الهواء ، غائصون في الظلام ، كأنها يعيشون في الزمن الذي لم تكن العين قد خلقت فيه بعد . وكل يد تلامس اليد المجاورة عند تناول الجوزة ولكن يد من هي ؟ أى شخص وأى هوية ؟ » .

بطبيعة الحال ، لا يدع لنا الفنان الكبير الفرصة لنفكر في إمكانية تعرف هؤلاء الأشخاص على بعضهم الآخر خلال وصولهم إلى ذلك البيت المعزول ، حين يدخلنا مباشرة إلى خضم الحدث ، ليجد - القارىء - نفسه وسطهم في قعدتهم العجيبة . .

ولكن أى مخيلة إبداعية تلك التى تخيلت ذلك المكان ١٩ . .

أى مخيلة فنية جبارة تلك التى تستدعى جمعًا من البشر يختلفون فى المهن والأعمار ، ولكن يحلمون جميعًا بالأمان والستر تحت ظلال دخان المخدرات فى غرفة معزولة كأنها معلقة فى السماء ١٩ . .

ولكن لتريث قليلًا ، فأى (خيال) هو فى نهاية الأمر نبت الواقع ، ولنبحث عن جذور تركيب ذلك المشهد . .

فى سياق سرد نجيب محفوظ لتطور حياة زعيم جماعة الأصدقاء « سيد شعير » فى رواية « المرايا » . نجده يقول عن إحدى مراحلها : « وبالرغم من شدة العقوبات التى فرضتها الثورة على تجارة المخدرات فقد تاجر فيها بكل استهانة وبغير تقدير للعواقب . وقد شيد لنفسه بيتًا كبيرًا فى طرف الدراسة على حافة الخلاء المفضى إلى جبل المقطم ، وسط حديقة مساحتها فدان زرعها بالنخيل والأعناب والجوافة والليمون والحناء والياسمين ، وأثنت بالأثاث الشرقى ، وأقام فوق سطحه حظائر الدجاج والأوز والأرانب » .

ولا شك أن نجيب محفوظ زار - أكثر من مرة - بيت ذلك الصديق المحاط بالنخيل ، ولعله استوحى منه موقع ذلك المكان الخيالى (فى عزبة النخل) . ولا شك أيضًا أن عزلة ذلك البيت (على حافة الخلاء المفضى إلى جبل المقطم) قد أثارت خياله ، معجونة بحياة صديقه الحافلة بتجارة المخدرات . .

ولكن هذا ليس كافيًا (لخلق) ذلك المكان الغريب . . إذن لاشك أن هناك حافزًا آخر حرك مخيلة نجيب محفوظ الإبداعية . . انظر لوصفه لسطح ذلك البيت . . « أقام فوق سطحه حظائر الدجاج والأوز والأرانب » ، ألا يستدعى هذا إلى الذاكرة وصفه لسطح البيت الذى قضى فيه طفولته فى الجمالية . « طبقًا البيت يرتبط فى ذكرياتى دائمًا باللعب ، خاصة السطح ، فيه مجال كبير للعب ، فيه خزين ، بط ، فراخ ، كتاكيت صغيرة . . » (« نجيب محفوظ يتذكر » - ص ٤٦) .

لعل مشهد سطح بيت الصديق استدعى إلى ذاكرة نجيب محفوظ سطح بيتهم القديم ، وبالتالى برزت غرفة السطح التى قضى فيها أوقاتًا كثيرة من طفولته . . أحيانًا

لصق النافذة بتأمل ، يستطلع - على ضوء النهار - ما يجري في الخارج . وأحياناً أخرى يتزوى وحيداً ملولاً في (ظلام) الحجرة ، يفكر ويسرح بخياله إلى بعيد . .

هل كان تفاعل هذا الواقع الخارجى مع واقع نجيب محفوظ الخاص ، حافزاً على تركيب مشهد القصة الغريب ؟ . .

هل كان نجيب محفوظ واعياً بتركيب هذا المشهد ، أم أن عناصره تداخلت وانصهرت والتحمت في بوتقة مخيلته الإبداعية ، لتولد - دون وعى منه - في شكلها الجديد ؟ . .

أسئلة كثيرة لابد أن تثار هنا . . وهذا دأب الفن الجيد ، حين يفجر الأسئلة ويترك كثيراً من الاحتمالات واردة .



بطبيعة الحال ، إزاء شخصية مغامرة كشخصية زعيم الأصدقاء تلك ، كان لابد أن يستقصى نجيب محفوظ عوامل تحولها ، وأن يتفحص الأسباب الكامنة وراء قدرته الغريبة على تمزيق الأواصر ونبذها من حياته كأنها نفاية من النفايات . وانظر إليه في ذات الفصل الخاص بسيد شعير من « المرايا » يطرح أمامنا حيرته ثم ما توصل إليه بعد ذلك : « وقد حرت في تعليل ذلك في وقتها ولكنى أدركت فيما بعد أنه كان مراهقاً منبوذاً وسط ثلاثة أخوة ناجحين ، عمل أحدهما مع والده بعد حصوله على التجارة المتوسطة ، وواصل الآخران تعليمهما بتفوق ساحق » .

لقد حاول نجيب محفوظ صيياً أن يفهم أسباب (خروج) سيد على البناء الأمري ، ثم جنوحه أو شططه - بعيداً عن منطق الاعتدال - إلى مناطق مغامرات نائية تستعصى على الأفهام ، خاصةً وهو زعيم الأصدقاء القوي المحبوب الكريم . ثم أدرك نجيب محفوظ ، بمضى الزمن وبعد أن اتسعت خبراته بالبشر ، أن التعليل يكمن في أنه في فترة تفتح قوى صديقه ومواهبه وإمكانياته القيادية وسط الأصدقاء ، كان منبوذاً في محيط أسرته لفشله في استكمال دراسته الابتدائية مقارنة بثلاثة أخوة ناجحين ، وخاصةً بعد مواصلة أخوين منهم تعليمهما إضافةً إلى تفوقهما الساحق . .

فكان حتماً أن يتفحص نجيب محفوظ ما توصل إليه في معمل فنه ، وهو ما نجده في

قصة « آخر الليل » - مجموعة « التنظيم السرى » (١٩٨٤) ، وهى قصة مروية بضمير الغائب عن رحلة شخص ما (مسطول) بين مطعم « الرائد » ومحل « الكبير » (انظر إلى ما يشهده الاسمان من إيجاعات تتعلق بالقذوة والنموذج والمثال) وطلب منها طلبات كثيرة ويتضح من الحوار أن صاحبيهما يفهمانه أو يجاريانه ، حين يوافقانه وأنها سيرسلان الطلبات إلى البيت . عندئذ (تفتحهم) . . « ذكرى ذلك الرجل الذى صاحبه يوماً مثل ظله » ، وبطبيعة الحال سرعان ما سيفهم أن ذلك (الآخر) هو ذاته الذى انفصل عنها ، حين تلج مأساة وجوده . . « هو ثالث ثلاثة أشقاء وأصفرهم . نعم أصفرهم يا عزيزى فاشترك الآخران فى تدليك فترة من الزمن ولو على سبيل المجازاة ومداواة الغيرة المتأصلة . وشاء الحظ وهو كل شىء فى الدنيا أن يوفقا فى المدارس فيصير الأكبر وكيل وزارة المالية والأوسط كبير مفتشى الرى ، على حين أبى الحظ أن تحظى بأى قدر من التوفيق فتحى الخط لم تفكه » .

لقد لعب تداخل الضمائر هنا بين الغائب والمتكلم والمخاطب دوراً هاماً فى تجسيد أزمة الرجل . وهى ذات أزمة سيد مقارناً بأخويه الناجحين ، وهكذا يمضى الرجل متعالياً ، واقتحم حانة « ايدىال » (انظر لتكرار فعل اقتحم ، واربط بين الدخول المفاجئ لذكرى حياته التى تؤرقه فى محيط تفكيره ، ودخوله دون سابق انتظار للحانة . وانظر أيضاً لاسم الحانة « ايدىال » وهو يعنى « المثالى » إذا ما ترجم من الإنجليزية ، وهو أيضاً امتداد لاسم المطعم ومحل الحلوانى « الرائد والكبير » ، وارتباط ذلك بمأساته مع أخويه الكبيرين) .

وحين وجم الحاضرون وهم ينظرون ، « فقال ليذهب عنهم الروح :

- لا تراعوا . . أخوكم من طين مثلكم ! » .

هذه الجملة تحمل تأويلين . أحدهما متواضع والآخر متعال . ويرجع الاحتمال الثانى ، الذى يعكس تنازلاً من طرفه للتعامل مع أمثالهم ، لذلك غلبهم الضحك . ويثار حوار حول رفضه وزارة الصناعة لأنه ليس ممن يبيعون أنفسهم عند أول طلب ، ثم يدعوهم إلى قضاء سهرة رأس السنة فى بيته . ثم يمضى أخيراً إلى النيل حيث يستحم ليتخفف من الحر والعرق ثم يستلقى على أريكة خالية لم يشغلها صعلوك من صعايك الليل بعد ، وينام .

هنا الأزمة بدأت في الأسرة . من تدليل من الأخوين في الطفولة ، انقلب إلى نبذ كامل في (المراهقة) ، لنجاح وصعود أسهم الآخرين ، لذلك سرعان ما يتخلى هو أيضاً عن ذاته القديمة وينبذها ، فيعيش وهماً متضخماً بأنه فوق الآخرين ، وكان المفروض في الأخوين أن يكونا القدوة والنموذج والمثال ، وأن يحتضنا ضعفه البشري (فشله في الدراسة) ، ليعيش في كنف الأسرة ويستمتع بثروة الأب التي له حق فيها بالوراثة (شبه نجيب هذا الحق بملكيتته بالوراثة لمائه فدان) . لكنهم لم يتحوا له هذه الفرصة أو هذا الحق المشروع ، بل نبذوه . . « فأنهالت عليك الإتهامات لا أول لها ولا آخر ، ورميت فيما رميت بالسفه ، واستصدروا عليك حكماً بالحجر . سرقوك الشياطين ، وقتلوا عليك الرزق حتى إنسدت في وجهك الطرق ، ولم يكن عجيباً بعد ذلك أن تقسم لتجلبن عليهم الفضيحة والعار » (أو ليس هذا حال الصديق سيد حين حرته أسرته من ميراثه ومن جنة المأوى ١٩ . . أو لم يكن انحرافه بعد ذلك محاولة لتلطيفهم بالفضيحة والعار ١٩) .

والأزمة - هنا - في جوهرها ، أزمة تربية - يجب أن نرعى ضعف الأبناء ، ونحتضنهم ونبحث عن أفضل السبل المتاحة أمامهم ، حتى نتيح لهم الفرصة ، ونصبح النموذج والقدوة والمثال . أما إذا عاجلنا الضعف بالعنف (المعاييرة والطرْد) ، فسيضطّر الأبناء أن ينجحوا بعيداً عن جادة الصواب ، فنكون قد جلبنا العار على أنفسنا مرتين : الأول بفعلنا ذاته ، والثانية بانعكاس سوء فعلهم علينا ! .



وأخيراً ، في قصة « رحلة » - مجموعة « خمارة القط الأسود » (١٩٦٩) نجد بطل القصة عجوز في السبعين من عمره ، غاية في الوقار . . جلس على مقهى بلدى في الحى العتيق ، الذى أقيم على طرف خرابة محل بيته القديم ، ذلك أن شيئاً نزع به إلى رؤية الحى القديم ، فوجد أن كل شيء قد تغير ، واختفى الكتاب والسيل ، وهناك استعاد بعض ذكريات صباه : رفاة ، ذلك الغلام الذى مات في صباه ، وكان يلعب الحجلة تحت (نافذة) زينب التى كانت تطلّ من فرجة شيش الشباك وهم يلعبون . . « عشقها في العاشرة ، كما يعشق ابن العاشرة » . ومن عجب أنه جاء الحارة وهو لا يذكر زينب البتة ، حتى رأى (النافذة) ، أما رفاة فكان يلعب تحت (النافذة) . كان

يتسم لضحكات الأصدقاء ولا يحرق أو يغضب . ولكنه كان يذعر إذا تحرش به الشريبي ، فتوة العصابة ، وأمام التجارب الجديدة للمجموعة . وسرعان ما انتقل الراوى بذكرياته إلى جنازة رفاعه الذى مات صغيرا . وحين عاد مع الشريبي إلى الحارة وقف فى ذات المكان الذى كان يلعب فيه رفاعه الحجلة . . . « وشىء جعلنى أرفع رأسى فرأيت زينب فى (النافذة) تطلّ بوجه غير باسم . . » .

ويتهى الراوى إلى أن صور الأصدقاء ضاعت من الذاكرة . . « والرحلة وإن تكن عبثاً إلا أنها أيقظت القلب دقائق ، وقرر أن يزور الحى من حين لآخر ، لكنه بعد أن ابتعدت به السبارة ، أيقن أنها لن تتكرر ، لكن (النافذة) لم تكد تتغير . . » .

نحن هنا فى مواجهة عجوز ، يعود إلى الحارة حيث وُلد . ويستعيد علاقة حب قديمة من خلال (نافذة) زينب التى ظلت على حالها ، ويتذكر صبيّاً مهذباً (رفاعه) كان يلعب الحجلة أسفلها ، وذعره من (الشريبي) فتوة الشلة ، لىتهى بجنازة موته . . لكن ملامح الحارة القديمة جميعها قد اندثرت . .

والآن ، فلنترى قليلاً ولنبحث عن جذور شخصيات هذه القصة فى عالم (خبرات) نجيب محفوظ سنجد تناظراً بين شخصيات هذه القصة وعدداً من علاقات نجيب محفوظ فى صباه فى العباسية من خلال رواية « المرايا » : الشريبي هو سيد شعير، رفاعه هو شعراوى الفحام ، وزينب هى حنان مصطفى .

وانظر إلى الراوى يتذكر الشريبي - فى قصة « رحلة » . . « كان ذا قدرة غريبة على الاستهزاء بكافة القيم رغم أنه لم يجاوز العاشرة . ولم يكن التحدى ليجدى معه ولو اجتمعنا عليه كلنا . فقوته وجرائه كانتا كالإعصار الذى يطبع بأى شىء يعترض سبيله . كان رئيسنا بالانتخاب الطبيعى ولكن بلا خلق ولا مبادئ ولا يهاب أباً ولا أما . ولا أذكره إلا ضاحكاً أو غاضباً أما العواطف الرقيقة فلم تعرف مكاناً فى قسما وجهه ، ولكنه كان رجلاً عند الشدائد ، عند أى اقتحام لحارتنا ، أو اعتداء على أحد منا ، وكان أيضاً كريماً لا يتأثر بمليم وحده . وكان إمامنا فى التجارب الجديدة ، يشدنا إليها واحدة بعد أخرى ، والآخرى يلهثون وراءه مشدوهين » .

وبطبيعة الحال سنجد أن هذه صفات « سيد شعير » فى « المرايا » ، فقد كان زعيم

الجماعة من أصدقاء العباسية ، وكان كريماً ، وكان . . « ذا قدرة غريبة على تمزيق الأواصر العائليه ونبذها من حياته كأنها نفاية من النفايات » ، وكما لقنهم تقاليد أسرار حى الحسين ، لقنهم تقاليد وأسرار عالم البغاء .

وانظر إلى ما يؤكد أن الشريينى هو سيد شعير وهما عن أصل واحد هو سيد الشماع ، فى قصة « رحلة » يتذكر الراوى . . « وقد غاب الشريينى عنى دهراً حتى كنت فى جولة تفتيشية بجرجا فصادفته على غير انتظار . عرفته من أول نظرة كما عرفنى . كان معتمداً بعمامة خضراء مطلق اللحية ، يدعى « عبدالله المدنى » ويزعم أنه مهاجر من جيرة رسول الله ، ويبيع للبسطاء تراباً فى لقاكات من الورق قال إنه من تراب القبر النبوى ، وأنه يشفى من جميع الامراض » ، وقد أورد نجيب محفوظ هذه الواقعة فى سياق حديثه عن « سيد الشماع » ، حين قال : « عندما جاءت أزمة الثلاثينات هجر أباه ، اختفى ، راح يلتقط رزقه من الصعيد ، كان جريئاً جداً ، وأطلق لحيته ، وقال إنه قادم من المدينة المنورة ، وباع التراب للناس على أنه تراب قبر النبى » .

إذن ، لقد تأكد أن الشريينى هو سيد شعير هو سيد الشماع زعيم جماعة أصدقاء العباسية ، أما رفاة فهو شعراوى الفحام . فى قصة « الرحلة » يتذكره الراوى . . « ينظر إليك بعينين واسعتين لا أثر فيها للعنف أو الشقاوة » ، « وكان نحيلاً لدرجة تشيى الضحك فكان ينسم لضحكاته ولا يحتم ولا يفضب . لا يذكره حانقا أو غاضباً قط » . وفى فصل « شعراوى الفحام » من « المرايا » يراه نجيب محفوظ . . « لعلّه كان أطيب أصدقاء العباسية . . طيبة تخالطها لامبالاة وبساطة بالغة فى الذكاء والتفكير ، وأتذكره كلما تذكرته ضاحكاً لسبب ولغير سبب » .

أما زينب فالأرجح أن تكون حنان مصطفى . وكان منافسه فى حبها هو شعراوى الفحام ، انظر الفصل الخاص به من « المرايا » ، حيث يتذكر نجيب محفوظ . .

« ويوماً قال لى وكان ما زال تلميذاً بالابتدائية :

— أنا عارف ؟ . .

فسأله عما يعنيه . . فقال :

— أنت لحب حنان مصطفى .

فككت ضيقاً وحياً فقال :

- وأنا أحب حنان مصطفى ا . .

فدهشت وتوقعت صراحاً من نوع ما غير أنه ضحك وقال :

- يد الله مع الجماعة ا .

- ماذا تعنى ؟ . .

- نستدرجها معاً إلى غابة التين الشوكى ا .

فصحت به :

- عليك اللعنة ا .

وكان ذلك قبل رحيل آل مصطفى بأيام فسرهان ما تلاشى سوء التفاهم ،

كانت تلك هي جذور الشخصيات ، وكلها من العباسية . . لكن وقائع قصة «الرحلة» جرت في (الحارة) ولم تحدث في (العباسية) . .

فما هو تعليل ذلك ؟ وما هو موقع نجيب محفوظ من راوى القصة ؟ ا .

لتوقف أولاً أمام ملمحين بديا أمام راوية القصة المعجوز ، الأول هو التغير الذي اجتاح الحارة فتلاشى البيت والكتاب والسبيل و « تغيرت الحارة تماماً ، أين الحوض الذي كانت تسقى منه بغال عربات الرش ؟ أين كشك الحنفية العمومية ، ونحن نعى أن الحوض وكشك الحنفية العمومية من ملامح ميدان بيت القاضى القديم الذى كان يطل عليه بيت نجيب محفوظ فعلاً في طفولته . والقصة تبدأ وتنتهى ومظاهر التغير تلح على وجدان الراوية .

الملمح الثانى هو تلك (النافذة) التى ظلت في مكانها واستدعت علاقة عشق قديمة . ونحن نعى أن علاقة عشقه القديمة لفتاة النافذة ابنة السابعة عشر من عمرها ، كانت في الحارة فعلاً (انظر فصل «قمر» ، « ويسرية بشير » من « المرايا ») . وفى القصة نزوع حاد نحو تكرار كلمة (النافذة) معرّقة وغير معرّقة ومرادفها الشباك ، حتى بلغت ثمان مرات ، مع الإلحاح على أن (النافذة) لم تتغير .

هنا تحول وزوال عالم قديم يقابلة بقاء (نافذة) لم تتغير . لقد اختفى عالم الحارة القديم ، وبقيت (نافذه) نجيب محفوظ التى استعاد من خلالها ذلك العالم المندثر .
النافذة جزء من تكوين نجيب محفوظ فى الحى القديم ، لكن النافذة هنا معادل للذاكرة التى احتضنت كل شىء وكتبت له الخلود ، بحيث بدت الحياة القديمة . . « حياة حاضرة تبدو عادةً راسخة ممتدة ممتعة على التغير فضلا عن الزوال » .

ومن خلال الذاكرة (النافذة) تمت عملية إحلال لعالم العباسية بصداقاته وخبراته وعلاقة عشقه على الحارة القديمة ، بما يعكس أو يكشف حلما جارفا - لا واعيا - طالما راود نجيب محفوظ طفلا ، ولم تمكنه ظروف تربيته فى عزلة البيت خلال طفولته من تحقيقه ، فجاء الإبداع ليلبى ويحقق حلمه الأثير ، فى نسج مركب شديد الإحكام . .
وبذلك يمكن تفهم بعض التعديلات التى أضيفت إلى شخصية الراوية ، وتطلبتها العملية الفنية ، حتى لا يصبح الراوية صورة مطابقة تماما لنجيب محفوظ (كأن يمتلك الراوية سيارة يقودها بنفسه ، ونحن نعرف أن نجيب محفوظ لم يمتلك ولم يقد سيارة أبدا ، كما أنه قد يكون قد بذل أقصى ماعنده من مهارة فى اللعب والقفز والشقبة وهو صبي صغير أمام أو تحت نافذة محبوبة ليستأثر باهتمامها ، ويحظى باعجابها ، لكننا لم نعرف عن نجيب محفوظ أبدا أن تلك العادة لازمت . . « فى أطوار متأخرة من حياته وهو يعرض لألعيه فى ركاب الوزراء والحفلات العامة لتسجلب التصفيق الحاد من الجنسين » . ومن ذات المنظور الفنى ومتطلباته الضرورية يمكن تفهم ما طرأ على شخصية رفاعه (الذى كناه « شعراوى الفحام » فى « المرايا ») ، حين مات طفلا صغيرا فى هذه القصة ، بينما عاش الأصل فى « المرايا » إلى عمر متأخر . .



سيد ، هو زعيم جماعة أصدقاء العباسية التى اندرج نجيب محفوظ بينهم ، منذ استقرار أسرته فى العباسية عام ١٩٢٤ . كانت زعامته لا تقوم على القوة وحدها ، بل كان لها أساس مكين من الحب ، وكان هذا الصديق محبوبا ، كما كان كريما ، وفى أوقات اللعب كان مهرجا ، وفى ليالى رمضان كان نجما ساطعا .

كان هذا الصديق نبع (خبرات) لا ينضب لجماعة الأصدقاء ، فبواسطته (عرفوا)

خبايا حتى الحسين ، بدءًا من تضاريس أزقته وشوارعه وآثاره ومقاهيه ، ومعه (استمتعوا) بأذان المؤذنين ومواويل المنشدين ، و(تعرفوا) على أنماط مختلفة من البشر حتى أدق التفاصيل بين مجاذيب أنحاء الحى المختلفة .

كان هذا الزعيم إماما لجماعة الأصدقاء في التجارب الجديدة ، يشدّهم إليها واحدة بعد أخرى ، وعلى يديه (تعلموا) تدخين الجوزة والبورى والنارجيلة ولعب النرد والدومينو .

كما طاف بأصدقائه داخل مملكته في عالم البغاء ، الذى عمل فيه كمحترف ، ولقّنهم كافة تقاليد وأسرار .

لذا كانت هذه الشخصية ، وهذا الفيض من التجارب والخبرات ؛ نبعا ملهما . للفنان نجيب محفوظ ، استعاده من (ذاكرته) في قصة « رحلة » - مجموعة « شمارة القط الأسود » (١٩٦٩) ، بحيث بدت الحياة القديمة . . « حياة حاضرة تبدو عادة راسخة ممتدة ممتنعة على التغير فضلا عن الزوال » . وبزيارة بيته الكبير في طرف الدراسة على حافة الحلاء ، مصهورا داخل أنون مخيلة نجيب محفوظ الجبارة ، ابتكر حجرة مرتفعة معزولة عن الأرض ينشد أفرادها الأمن والستر في الظلام تحت ظلال المخدرات في قصته الرائعة « الظلام » - مجموعة « تحت المظلة » (١٩٦٩) . ثم غاص إلى جانب من خبراته في عالم البغاء في قصة « العالم الآخر » - مجموعة « شهر العسل » (١٩٧١) . ثم رسم إطارا كليًا لحياة ذلك الزعيم الذى (عرفه) تحت اسم « سيد شعير » في رواية « المرايا » (١٩٧٢) . ثم عاد ثانية محاولا استكشاف أبعاد تلك الشخصية والأسباب الكامنة وراء تحولاتها في قصة « آخر الليل » - مجموعة « التنظيم السرى » (١٩٨٤) .

تلك كانت شخصية زعيم جماعة أصدقاء نجيب محفوظ في العباسية ، والتي كان لها أعظم التأثير عليه ، فكتب عنها العديد من أعماله الإبداعية ، واعترف بفضلها في تعريفه بالمقامى ، وخاصة مفهى « زقاق المدق » ، التي كانت حافزا هاما وراء إبداع رواية « زقاق المدق » .



■ الفصل الثالث ■

صاحب الحلم المستحيل

« ولكنه لم يستطع المواظبة على العمل ، وكان يمضى يومه فى الفيشاوى متظراً سيد شعير حتى يفرغ من عمله فى دكان أبيه ، وسرعان ما فصل من الوزارة ، ولم يتخلف يوماً عن سهراتنا الأسبوعية سواء كنا طلبة أم موظفين » .

(شعراوى الفحام - رواية « المرايا »)

« وفى وحدته عندما يغيب الأصدقاء فى أعمالهم يقضى وقته فى الكسل وأحلام اليقظة ، ويتل ربه بشىء من اليسر فى مواسم الانتخابات والأفراح والمآتم . هاش دهره بفضل خفة روحه وكرم أصدقائه ، واحترف التهريج ، يفنى ويرقص ليفوز بأكله فول أو قطعة بسبوسة أو نفسين حبشش ، وظلت غرائزه مكبوتة جائعة مجنونة » .

(قصة « خطه بعيدة المدى » - مجموعة « الفجر الكاذب »)

* * *

هو أحد جماعة أصدقاء نجيب محفوظ فى صباه فى العباسية ، كما أورده باسم « شعراوى الفحام » فى رواية « المرايا » (١٩٧٢) ، وباسم « عصام البقل » فى قصة « خطه بعيدة المدى » - مجموعة « الفجر الكاذب » (١٩٨٩) ، تدليلاً على أن الاسم فى المرتين مستعار .

كيف استعاد نجيب صورة صديق صباه بين « المرايا » ، وقصة « خطه بعيدة المدى » ؟ . .

ماهى أهم صفاته (الأصلية) التى تكررت بينهما ؟ .
كيف تناوله نجيب محفوظ فى أعماله الإبداعية الأخرى ؟ ا

* * *

عندما استعاد نجيب محفوظ صورة هذا الصديق فى أعماله الإبداعية ، فإن معالجته الفنية إتسمت بثبيت بعض الصفات (بما يزكى تطابقها مع الأصل) ، وامتدت بالتغيير إلى سمات أخرى (بما يحقق أغراض فنية معينة) .

أول الصفات التى حافظ نجيب محفوظ على تثبيتها هى نشأته ، حيث كان يعيش مع أمه بمعاش محدود ، فى بيت قديم : « كان يقيم مع أمه فى البيت المجاور لبيت سيد شعير بلا أب ولا أخوه ، مات أبوه وهو فى المهد تاركاً له ولأمه البيت ومعاشاً مقداره عشرة جنيهات » رواية (المرايا) ، « لم يكن للأسرة إلا معاش أمه الصغير والمأوى » ، « الأب كان موظفاً بالبريد وأمّه ورثت بيت قشمر بطابقه الواحد الصغير وفنائه الواسع المهمل ، فحق له أن يقول إنه ابن ناس طيبين ولكن سىء الحظ » (قصة « خطة بعيدة المدى ») .

ولم يكمل هذا الصديق دراسته الابتدائية : « لم يوفق شعراوى فى دراسته الابتدائية ، لا بسبب الإهمال والشقاوة مثل خليل زكى وسيد شعير ولكن بسبب الإهمال والشقاوة والغباء ، وفُصل من المدرسة لكثرة سقوطه ، فلم يجد سوى البيت والمقهى والطريق » (« المرايا ») . « لم يحرز أى نجاح فى المدرسة » ، و « الحقيقة أنه كان بليداً تنبلاً وقليل الأدب فسرعان ما طُرد من المدرسة » .

ولم يصلح فى أن يستمر فى أى حرفة بديلة : « لما يشت أمه من تعليمه أرادت أن تجد له عملاً ، وكانت تردد دائماً أن أى عمل خير من البطالة . وقصدت قريباً لها من الكبراء هو أحمد باشا ندا فوظفه فى وزارة الأوقاف ، ولكنه لم يستطع المواظبة على العمل » (« المرايا ») ، « لم يتعلم حرفة ، لم يؤد عملاً أبداً ، صعلوك ضائع »

أما التغيير الذى أدخله نجيب محفوظ على شخصية ذلك الصديق ، فقد ظهر فى ملمحين : الأول هو علاقته بأمه ، فبينما بدت فى « المرايا » و « خطة بعيدة المدى » كالناصح الأمين للابن ، تحاول أن تقوم اعوجاجه بكل ما تملك من جهد ، فإنه كشف

في قصة « خطة بعيدة المدى » أنه كان يسىء معاملتها . . « ولم يجد إلا أمه ليصب عليها جام غضبه وإحباطه رغم حبها الشديد له . . حب عجوز لابنها الوحيد . وكلما حثه على العمل أو الاستقامة سألها متحدّيا :

« متى ترحلين عن هذه الدنيا ؟ » و « لم يسمعها كلمة طيبة قط ، ونصحه أصدقاؤه بتغيير سياسته معها حتى لا يقتلها هما وكهذا ويُعرض نفسه حقا للشحاذة . وذكره بها قال الله وما قال الرسول ، ولكن ضياعه اقتلع جذور الإيمان من قلبه المغمم بالجوع والحشرات . »

أما الملمح الآخر (الجوهري) في شخصية ذلك الصديق فهو حلمه (المستحيل) ، الذي بدا في « المرايا » حين كان ينتظر الفرج القادم ، بعد أن يموت قريبه أحد باشا فتؤول ثروته الضخمة من الأفدنة والأموال السائلة إلى وارثته الوحيدة الباقية على قيد الحياة وهي أمه ، وبالتالي يرثها هو أيضا ، وعندئذ يحقق أحلامه : « سأبنى قصرا في القاهرة وآخر في الإسكندرية كالباشا نفسه ، وسأملأ الخزائن بجميع صنوف الخمر المعتقة ، وأما النسوان . .

فقاطعه سيد شعير :

- وماذا ستقدم لنا نحن الأصدقاء ؟ .

فأجاب :

- سنكون سهرتكم في حديقة القصر، وسيقدم لكم أجود ألوان الطعام والخمر والنساء ، عهد الله بيني وبينكم .

أما في قصة « خطة بعيدة المدى » فكانت أحلامه . . « تهيم في وديان من الولايم الغامضة والجنس المكبوت . وكانت له أساطيره عن غراميات مع أرامل ومطلقات ومتزوجات أيضا فلم يكذبه أحد ولم يصدقه أحد . »

إذن ، ما الفرق الأساسي بين معالجة نجيب محفوظ لتلك الشخصية بين « المرايا » و« خطة بعيدة المدى » ؟ . .

في « المرايا » يستعيد عبق شخصية صديق ، رافق صباه في العباسية ، لذلك فهو يرسم أثره في نفسه بدءاً من مفتاح الفصل الخاص به . . . « لعله كان أطيب أصدقاء العباسية . طيبة تخالطها لامبالاة وبساطة بالغة في الذكاء والتفكير . وأتذكره كلما تذكرته ضاحكاً لسبب ولغير ما سبب وكان يكفيه أن يسمع شتمه أو ملاحظة عابرة حتى يفرق في الضحك » ، ويستمر البناء ، حيث تتامى فيه أهم أحداث حياته ، حتى يتبدد حلم حياته ، حين عاد قريبه الباشا وهو في السبعين من عمره مع عادة شقراء من إحدى سفراته في النمسا ، وقيل إنه ينوي الزواج منها ، فطاش عقل شعراوى الفحام ، وأقام عليه دعوى حجر باعتباره سفيهاً ، غير أن قوى مجهولة تدخلت لتعيد إلى الأمر توازنه ، فسافرت الفتاة فجأة بعد ترضيتها ، واعتكف الباشا ثم أعلن (وقف) أرضه وأملكه للخيرات والمساجد ، لذا سرعان ما تدهورت حالة شعراوى ، بعد أن وُثِدَ حلمه ، فكان يشرب نهاراً وليلاً أنبذة رخيصة . . . « ونجت شهواته الأخرى كشهوة الطعام وشهوة النساء ، وبدأ أنه يعيش في منفى من صنعه ، يتخاطب بلغته القائمة على الإشارة ويضحك لخيالاته الراقصة أو يطرق في كآبه حيال أمباحه ، وأنه يسير بقوة نحو الذوبان » ، ومات عام ١٩٤١ ، في النصف الثاني من الليل ، حين أغارت إحدى الطائرات الإيطالية على القاهرة ، وكان جالساً فوق السطح في غيوبة تامة من السكر ، فاستقرت شظية في رأسه ، فكان « أول من فقدنا من أصدقاء العمر » .

أما في قصة « خطة بعيدة المدى » فإن نجيب محفوظ يفتح قصته من خلال ذروة تحقق الحلم المستحيل . . . « بالأمس تحديات الجوع والصعلكة واليوم تحديات الثراء الفاحش . بيت عتيق بنصف مليون ، خُلِقَ عصام البقل من جديد وهو في السبعين من عمره . . . » ، ومن خلال هذا المنطلق الحاسم ، يعود الراوى بنقلات متفرقة إلى الوراء ، لإضاءة عالم هذا الصعلوك ، ليختم قصته بذروة - أخرى - أكثر إذهالاً وسخرية ، لأن الليلة الأولى لتحقيق الحلم كانت هي ليلة الأخيرة في الحياة ، حين لم يعجبه طعام الفندق ، وانتعشت لديه (شهوة الطعام) ، فانطلق إلى محل كوارع معروف ، وطلب فته ولحمة رأس وأكل حتى استوى في المزاج ، وغادر المحل ليرمرم ما بين البسيعة والكنافة والبسبوسة . . . « وكأنها أصابه جنون الطعام ، وحين عاد إلى

غرفته في الفندق ، عجز عن الحركة ، عندها أيقن أنه « الموت » ، الموت يتقدم بلا موانع ولا مقاوم . ونادى بخواطره المحمومة المدير . . . نوح . . . عثمان . . . الثروة . . . العروس . . . المرأة . . . الحلم . . . لا شيء يريد أن يستجيب . . . لم كانت المعجزة إذن ؟ . . . خير معقول . . . غير معقول يارب . . . » .

لقد جعل نجيب محفوظ حياة بطله تتأرجح بين ذروتين عاليتين : تحقق الحلم ، والموت العبثي . وهو بناء فني يحكم قبضة الروائي على موضوعه ، ليعرضه في وحدة مكثفة شديدة التركيز ، تكشف - بتقنية عالية - أن حياتنا كبشر تتوزع بين أحلام نأمل تحقيقها وبين موت عبثي يترصد خطانا ، ليبدد أحلامنا لحظة تحقيقها على مذبحه . . .

ولكن لتمهل قليلا ، لنقارن بين شخصيتي « شعرواي الفحام » في « المرايا » وبين « عصام البقل » في « خطة بعيدة المدى » : في « المرايا » ربط الصديق حلمه بإرادة قريب ثري ، تنبه لأطماعه في الوقت المناسب ، فحرمه من نيل مراده . في « خطة بعيدة المدى » تعلق الصديق بحلم لا يملك إمكانيات تحقيقه ، فجاء انفتاح المجتمع الاقتصادي بالمفاجأة ، وحقق الحلم ، لكن النهم إلى إشباع (شهوة الطعام) كان يحمل في طياته نهايته .

في « المرايا » حلم بما لا يستحق ، وبما لا يملك ، ولم يبذل بالمقابل جهدا ، فجاء جزاؤه منطقيا ، حين لم ينل شيئا من آماله . أما في « خطة بعيدة المدى » فقد حلم بما لا يستحق ، ولم يبذل جهدا ، لكنه بلغ غايته بيت يملكه ، من خلال تطورات المجتمع ، الذي لم يشغله يوما أمره ، فكان منطقيا أن تكمن جرثومة نهايته في إحدى غرائزه النهم التي لا ترتوى .

الموت في العاملين كان حتما مؤكدا ، لكنه جاء في « المرايا » عبثيا ليختم حياة تافهة ، من خلال تطورات حرب لم يشغله أبدا أمرها . أما في « خطة بعيدة المدى » فقد جاء قاضيا ، مرافقا لذروة التحقق ، ليقوض أركان حياة عبثية لم يبذل صاحبها فيها جهدا يذكر.

في « المرايا » مشيئة إلهية ، لا يمكن تفسيرها ، بل يجب قبولها والتسليم بها ، وإن تبلورت تجربة حياة الصديق على لسان بعض الأصدقاء ، بعد أن حضروا جنازته :

« ما أجمل ذكرياته .. هاش ضاحكا ومات ضاحكا .. »

« راهن طيلة عمره على حلم لا يريد أن يتحقق » ..

في « خطة بعيدة المدى » بناء فنى رؤيوى ، يحاول أن يتفهم ما استغلق من أمور الواقع ، ويؤكد مغزى هاما ، فإن من لم يعيش حياته لن يستوعب أبدا أسباب نهايته !

في قصة « رحلة » - مجموعة « خمار القط الأسود » (١٩٦٩) استعاد راوية القصة العجوز (الذى تخفى وراءه نجيب محفوظ) خلال زيارته لحارته القديمة صديقين من أصدقاء صباه ، أحدهما « رفاعه » - هو نفس الفتى صاحب الحلم المستحيل - لكنه يستعيد هنا شذرات من صباه - « كان يقيم في البيت الأيل للسقوط ، يتعل التراب توفيراً لصنذه ، وينظر إليك بعينين واسعتين ناعمتين لا أثر فيهما للعنف أو الشقاوة » .

إنه نفس الصديق ، الفقير ، الذى يرتبط بذلك البيت القديم ، بنفس صفاته الطيبة والبشوشة . لكن نجيب ركز أضواءه على اشتراكهما معا في علاقة حب في سنوات الطفولة حيث كان رفاعه « يلعب الحجلة في ذاك المكان تحت تلك النافذة - نافذة زينب » ، وكان الراوية .. « يغسل وجهه ويمشط شعره ويتأنق في جلبابه ويتعل حذاءه المطاط ويبدى أقصى ما عنده من مهارة في اللعب والقفز والشقبة تحت عينها ليسرها ويحظى باعجابها » .

إن الراوية هنا لم يفصح عن اشتراكهما معا في عشق نفس الفتاة ، لكن القارئ يرجح وجود هذا الاحتمال . وهو ما يتأكد في فصل « شعرواى الفحام » في « المرايا » حين قال للراوى (نجيب محفوظ) وكان ما زال تلميذا بالابتدائية :

« أنا عارف ؟ .. »

فسأله عما يعنيه فقال :

« أنت تحب حنان مصطفى .. »

فسكت ضيقا وحياء فقال :

« وأنا أحب حنان مصطفى ! » .

ولكنه - على عكس نجيب محفوظ - كان عابثا في عشقه حيث دعا نجيب إلى أن يستدرجاها معا إلى غابة التين الشوكى ١ .

هنا أعاد نجيب محفوظ بعث واقعة من صباه ، عاشت في ذاكرته . . . مفعمة بحيوية خارقة تتحدى الزمن ، لكنه لم يستطرد مع بقية تفاصيل حياته ، بل جعله صيبا ، بعد موت أمه أيضا .

ولكن ، لماذا فعل نجيب محفوظ ذلك ؟ ! . .

هل يرجع هذا إلى أن هذا الجزء من طفولة صديقه ، هو الجزء الذى بقى حيا - لتلقائته - من حياته الحافلة ؟ ! . .

أم أن نجيب محفوظ شاء أن تتداعى خواطر الموت فى قصته ، ضمن ذكريات طفولته ، بما تطلب - فنيا - موت الأم مبكرا ، ليلحق بها الابن بعد ذلك ؟ ! . .

أم هى تنويعه جديدة على الطفولة المستعادة ، تستدعى ضرورة الاختصار على جزء من حياة كاملة ؟ ! . .

هنا منطق (الإبداع) يسرى ، ولا راد لقضائه ١ .



عاد نجيب محفوظ مرة أخرى إلى ذات الصديق فى قصة «عندما يأتى الرخاء» - مجموعة «التنظيم السرى» (١٩٨٤) ، لكنه ركز أضواءه على جانبين رئيسيين : الأول خاص بنشأة وتربية هذا الصديق واضعا إياه فى محك متغيرات أخرى ، حتى يتفحص الأسباب الكامنة وراء تكوّنه بتلك الكيفية وهو لم يعطه اسما وإن منح لقباً . انظر إلى مفتاح القصة : «مات الأب ففقد الابن عرشه . ذلك أنه كان وحيد أبويه ، ولى العهد المدلل ، المغموس فى نعيم الحنان . ما إن بلغ حتى زوجه أبوه ليفرح به فأنجب بدوره ابنا وحيدا ، وزوجه فى حياة أبيه ليفرح به أيضا . أما الأب المدلل فأفسده الدلع فقعد عن التعليم دون أن يحصل على الابتدائية وأما الحفيد فقد نال التجارة الثانوية بطلوع الروح . وعقب وفاة الأب - الجد - وجد الخليفة الأول نفسه وحيدا عاطلا ، والخليفة الثانى كاتباً على الآلة الكاتبة » .

نحن هنا أمام مبررات نشأة الابن (الخليفة الأول !) فاشلا في تعليمه ، لا يعمل فالأمر مرجعه أساسا إلى خطأ في التربية . حين كان الأب سمسارًا موفور الرزق ، فقام بتدليل ابنة فأفسده ، بل امتد الأمر إلى تزويجه في صباه الباكر، ليفرح به ؛ قبل أن يكون قادرا على تحمل مسئوليات الزواج وتبعاته ، فكان منطقيا أن يكرر الابن خطأ أبيه .

ثم تمضى القصة مع ثوابت تكاد تتطابق مع أساسيات حياة الصديق السابقة . فقد أورثه الأب (بيتا) من ثلاثة أدور يقيم هو في دور وابنه في دور ويقبض (إيجار) الدور الثالث والدكان ستة جنيهاً كل شهر . انظر لهذا الإيجار يكاد يعادل (معاش) الأم الثابت بعد وفاة الأب في « المرايا » أو « خطه بعيدة المدى » . كما كان هو المستحق الوحيد (لوقف) جده للمرحومة أمه (لعل نجيب محفوظ استفاد من فكرة أن قريب الأم وقف ثروته على الخيرات والمساجد . لكننا نجد هنا نفس الأصدقاء القديمة ، ميراث محتمل للأم سيؤول للابن) .

وحين زار إدارة الأوقاف الأهلية ، اكتشف أن ثروته على الورق ضخمة : خمس قطع أراض فضاء ، ومقدار كبير من المال ، لكن الكل وقف لا يمس . (هكذا أعطى نجيب محفوظ مبررا لذلك الشخص لتندلع النار في قلبه وآماله ، فلم يعد له حديث إلا الوقف والحرمان) .

هكذا يمضى الزمن ، فتبلور شخصيته بين الأصحاب والأقارب نمطًا للإنسان الشاكي الباكي ، بجنون الوقف ومال البدل وأجر المثل . ويتضاعف إحساسه بالظلم والهم ، ويصبح زائرا دائما لإدارة الأوقاف ، وينصححه الموظف بأن ينزل عن كبريائه ويمرر عريضة بطلب شيء من الخيرات فتزوره مندوبة الوزارة في البيت ، فيغازلها ، فتلومه زوجته . . « ما يؤدبك إلا الفقر . وتقرر له ثلاثة جنيهاً ، فزار الفتاة ليشكرها في الظاهر ، ورجع إلى بيته وفي قلبه حلم . وأنجب الحلم أحلاما أخرى عن فيلاً وسيارة ومائدة » (هنا عودة لنفس أحلام اليقظة القديمة ، لمحاولة إشباع شهواته للمرأة والرفاهية والطعام) .

وتتقدم الأيام ، فتكثر عليه الأمراض والعلل ، وتقوم ثورة يوليو فلا يثير اهتمامه أى حدث عام (إنه يتمتع بنفس اللامبالاة إزاء الواقع الخارجى وما يجرى فيه من أحداث جسام . . منفلق ، متفوق على نفسه ، يجد في أحلامه الكفاية) .

« ويتلقى بعد ذلك أنباء حل الوقف وتوزيعه على أصحابه وهو طريق الفراش بصفه نهائية . ويرح يبصره في الغيب طويلا ، طويلا ، ثم يتمم :
- حكمتك يا رب ... » .

لقد تحقق الحلم المستحيل أخيرا ، لكنه لن يجديه شيئا وهو على أعتاب الموت . (أنظر التقابل بين ذروة تحقق الحلم وذروة الموت المفاجيء في قصة « خطة بعيدة المدى ») . وبقي هنا تطور أخير، ففي حين لم يستوعب عصام البقل حكمة ما حدث هناك ، حين تساءل مستكرا ، رافضا . . . « لم كانت المعجزة إذن ؟ . . . غير معقول يا رب » . . . نجده هنا يتقبل القضاء مستسلما « حكمتك يا رب ... » .



أكدت غالبية الأعمال السابقة ملمحا أساسيا في شخصية هذا الصديق ، هو حلمه (المستحيل) بالثراء ، حتى أفضى عمره في انتظار تحقق هذا الحلم : تارة عن طريق الإرث (رواية « المرايا ») ، أو عن طريق حل وقف إرث مستحق (قصة « عندما يأتي الرخاء ») ، وتارة أخرى عن طريق تطورات تحدث في المجتمع الخارجي كالانفتاح الاقتصادي (قصة « خطة بعيدة المدى ») .

وفي جميع هذه الحالات السابقة ، كان الصديق لا يذل جهدا لتحقيق حلمه وليس لديه أي وسائل لفرضه على الواقع ، فتنع بموقف سلبي ، حين مكث في (كهف) الانتظار العقيم ، حتى تبددت قدراته ، وانقضى عمره ، معزولا عن الواقع ، يجتر أحلاما (مستحيلة) تحت تأثير دخان المخدرات ، أو سابحا في بحار أحلام البقطة ، حتى دهمه الموت فجأة .

ولعل نجيب محفوظ في تنويعاته تلك قد اعتمد على تيمة أساسية في واقع شخصية ذلك الصديق ، ألا أنه كفنان كبير كان لابد أن يخلق بخياله - متجاوزا هذا الواقع - ليقدم الوجه المقابل (الإيجابي) لتلك الشخصية مستفيدا من اكتشافاته السابقة لنواحي القصور في تشكيلها ، وإن حافظ على أساسيات تكوينها ، فالفنان - في نهاية الأمر - يبنى ويركب ويلور خبراته باستمرار ، ففي رواية « قشمر » (١٩٨٩) نجد صادق صفوان - أحد الأصدقاء الأربعة أبطال الرواية - (وحيد) أبويه ، لا إخوة له ولا

أخوات بسبب مرض أصاب أمه عقب ولادته . وهو أمل الأسرة ، وموضع رعايتها .
وصادق « مؤدب ، مهذب يصلى ، وسوف يصوم عندما يبلغ السابعة » (وهذه نتائج
طبيعية لحسن الرعاية والاهتمام بالتربية في محيط أسرى سليم ، حتى . . « أن أباه
الحصيف يقول له كثيرا : يا صادق ، اجتهد . . أبوك لا يملك شيئا ليركه لك ،
فاجعل الشهادة وسيلتك إلى الوظيفة » . الأب - هنا - يقوم بدوره الطبيعي حين يُصتر
الطفل بحقيقة ظروفهم الاقتصادية ، ويحذره من مغبة التكاسل ، حتى يضع جهده في
الدراسة ثم الوظيفة . ولكن يجب أن نلاحظ أن الأب - هنا - موجود ، على عكس
غالبية المعالجات السابقة ؛ لأن للأب دوراً رئيسياً في تنشئة الطفل تنشئة سليمة في محيط
أسرى متوازن) .

ثم دبّ تغير عميق في روح صادق منذ طرق عالم قريب لهم هو رأفت باشا الزين
الذى . . « بدأ حياته من صغار الأغنياء ، وبفضل ثروة زيدة هانم أنشأ أكبر مصنع
للنحاس ورزقه الله بالطول والعرض ، ومدّ حباله إلى الكبراء والسادة الإنجليز ثم نال
رتبة البشوية . ويقول صادق :

- أهم شيء في الدنيا أن تكون غنيا . .

حبّ الثراء غرس في قلبه في سراى قريه . ينعكس ذلك في أحلامه أكثر مما ينعكس
في اجتهاده . . تلميذ متوسط كغالبية شلتنا » .

هنا يكشف نجيب محفوظ جذور حلم الثراء . وانظر لا استخدام فعل « دبّ » بداية
التسرب ويبدأ بالتدريج ، فبعد طفولة في عالم فقير يحكمه التعليم وتؤطره الوظيفة ، إذا
بعالم آخر يفتح على مصراعيه أمام عينيه . عالم آخر من الثراء والغنى . كانت تلك هي
(البذرة) ، التى سرعان ما نمت في وجدانه ، وامتد تأثيرها إلى روحه ، لذا أصبح « أهم
شيء في الدنيا أن تكون غنيا » .

هنا - أيضا - اختلاف عن المعالجات السابقة ، فنحن هناك نفاجأ بالحلم المستحيل
بالثراء كنبت شيطاني يهفو الصديق إلى تحقيقه . وقد يكون هذا أقرب إلى عالم (الواقع) ،
أما (الفن) فإنه يخضع للمنطق وفيه ترسم الأسباب الكامنة وراء النتائج .

ومنذ تلك اللحظة يبدأ صراع بين الأب وابنه ، أو يبدأ تأرجح صادق بين الحلم

والواقع . الأب يرى أن مستقبله يكمن في الاجتهاد ، ليستقر - كفقير - في وظيفة مناسبة ، والصبي يرى في الباشا النموذج والقذوة والطريق . الأب وإن كان يؤمن أن الرزق بيد الله ، إلا أنه يرى أن تفكير الصبي غير سليم ، ويبدد وقته في الأحلام الفارغة ، حتى الأصدقاء إتفقوا على أن حب الثراء شيء والعمل شيء آخر ، وأن لا عيب فيه إلا حلمه الغريب بالثراء ، حيث الراوية (الذي يتخفى وراءه نجيب محفوظ) حكم بأنه : « شخصية متكاملة وتقليدية ، ولكنه نصب لنفسه هدفا بدا لنا غير معقول » .

لكن الحلم يجتزم في عقل الفتى ، فيتحول إلى هدف ، يضعه - بعد تفكير عميق - موضع التنفيذ ، إنه سيفتح محل خردوات ، حيث يوجد دكان بثلاثة جنيهاً في العمارة الجديدة التي شطبت حديثاً على ناصية العباسية مع أبو خودة . وأن أمه تملك بعض الحلى القديمة . سيردها إليها أضعافاً مضاعفة . لذا لن يكمل تعليمه فيعارضه الأب وينتهي إلى أنه لا يمتلك الخبرة لهذا العمل ، وأن التدليل أفسده ، وحين شكى الأب لرأفت باشا ابنه خلال زيارة عائلية ، شجع الباشا الفتى . . « تفكير سليم ، الدنيا يجب أن تتغير ، أنعرف أنها ستكون دكان الخردوات الوحيدة في العباسية كلها؟ » وقرر أن يمول المشروع بقرض بدون فوائد ، وأمدّه برجل من دائرته ينظم له الدكان ويمسك له دفاتره ويبصره بخفايا عمله ، كما عرفه الباشا بتجار الجملة من معارفه وضمه عندهم .

ولتوقف هنا أمام تعبير هام في رسم ملامح الفتى ، فهو لم يفشل في التعليم لكسبه وعفرفته ، بل لتحول حلمه إلى هدف محدد ، بحث طويلاً عن أفضل الوسائل لتحقيقه ، حتى انتهى إلى فتح دكان خردوات ، و (اختار) ألا يكمل تعليمه ، لأن الطريق أصبح واضحاً أمامه . من ناحية أخرى بدت أهمية وجود النموذج والقذوة أمام الشباب ، حتى يهتدوا بخطاهم ، ويقتفوا آثارهم .

كان طبيعياً بعد ذلك أن يتحقق حلم صفوان بالثراء ، ويتزوج ويساعد أباه ، وتتضاعف ثروته في أثناء الحرب بإرشاد من الباشا ، لكن نجيب محفوظ لا يتوقف عند ذلك ، بل يستمر معه حتى النهاية ، حين ينجب إبراهيم وصبرى . فإذا هما لا يهتمان بالمال . إنه ليس حلمهما ، ويتخرجان من كلية الحقوق ويلتحق إبراهيم ببنك مصر أما

صبرى ، فقد قبض عليه لانتهاه إلى الإخوان ، ثم هرب إلى السعودية حيث استقر هناك .

إن نحاح صفوان في تحقيق هدفه في (الثراء) ، كان مرهونا بأشباع غرائزه الأخرى خاصة (الجنس) ، لذلك تزوج منذ بداية الطريق ، حتى يتفرغ لتحقيق هدفه ، وحين أهملت الزوجة بعد الإنجاب في تلبية غرائزه ، اضطر أن يتزوج من أخرى ، مفرطة الأنوثة ، لكنها كانت عصبية المزاج ، مسرفة (لا تفهم قيمة الثروة) ، وحين طالبته بتسجيل إحدى عماراته باسمها ، كان هذا المطلب هو القشة التي أدت إلى الطلاق . وأخيرا ، اضطر أن يتزوج من فتاة في الثامنة عشرة ، أنجبت له نهي ، وطالبته أن تكمل تعليمها ، لأن : « المعرفة أهم من المال نفسه » . فعاش في عذاب ، حتى قال يوما : « يا لها من حياة ! إبراهيم ابنى يرفض فيمن يرفض الأغنياء ، وزوجتى لا تضع المال في موضعه اللائق ، ألاّ يعكس ذلك شعورهما الخفى نحوى ؟ ! » وانتهى به الأمر إلى تطليق زوجته الشابة حين اكتشف دلائل خيانتها مع جار لها .

المغزى هنا واضح . قد يحقق الفرد حلمه المستحيل في (الثراء) ، لكن ليس حتما أن ينشأ أبناؤه على مثاله ، وليس حتما أن يجد سعادته في حياته الزوجية أيضا !

ويبقى لرواية « قشتمر » وجهها الآخر ، إن شخصيات أبطالها (الأصدقاء الأربعة) هم نماذج لمعزوفة تحقق الهدف والحلم ، يمكن تلخيص تنويعاتها كما يلي :

صادق صفوان : بحكم نشأته (الفقيرة) كان أبوه يشجعه على الاجتهاد ليصل إلى هدف (الوظيفة المناسبة) لكنه كان يحلم (بالثراء) ، وكان يعرف هدفه ، ففكر في دكان خردواتى هى الوحيدة (وقتها) في العباسية ، ووجد في قريه الباشا نموذجا وقدوة وتشجيعا ودعما ، فنجح في تحقيق المراد .

حمادة الحلوانى : بحكم نشأته (الغنية) . كان أبوه يخطط له أن يلتحق بسلك النيابة أو يكون عماما ناجحا ، لكنه كان يحلم أن يعيش صعلوكا ، متفرغا وعاشقا للثقافة والحياة والحرية . وبمجرد موت الأب استفاد من ميراثه الضخم في التمتع بحريته المطلقة ، فهجر كلية الحقوق ، وحقق أحلامه في التصعلك بين شقة في خان الخليلي وعوامة بشارع الجبلية .

طاهر عبيد : من أسرة غنية . كان أبوه يحلم أن يصبح جراحا كبيرا أو محاميا . لكن هدفه كان واضحا ، أن يصبح شاعرا ، فهو موهوب ، وبدأ ينشر أشعاره ، وتزوج ممرضة أحبها (ضد رغبة أسرته) . تفانى في تحقيق هدفه ، حتى صار علما .

إسماعيل قدرى : من أسرة فقيرة . دائم التفوق . شديد الاهتمام بالسياسة . كان هدفه دراسة القانون ، لأنه الباب المفضى إلى المجد والسياسة . عاندته الظروف . مرض أبوه ومات وهو في البكالوريا ، فاضطر أن يتحول إلى دراسة الآداب لقلة معاشهم . قاد مظاهرة في الحرم الجامعى (لشدة انتباهه للوفد) ، فتقرر رفعه نهائيا ، وساعده الوفد بعمل بوظيفة في دار الكتب . تزوج في عمر متأخر . مال وهو عجوز إلى دراسة الروحانيات .

هنا يتضح أن نجاح الفرد في تحقيق هدفه (الذى يحلم به) لا يتوقف فقط على توافر الإمكانيات الذاتية اللازمة له ، بل يتطلب الأمر توافر ظروف أخرى لا تقل أهمية : تارة في المجتمع الخارجى مثل القدوة والدعم (صادق صفوان) ، أو مناخ ثقافى يشجع الموهبة ويدعمها (طاهر عبيد) ، وتارة أخرى في الظروف القدرية التى تحكم حياتنا ولا يد لنا فيها ، كموت الأب (حين يصبح نعمة بزوال العائق أمام حمادة الحلوانى) ، (أو حين يصبح نقمة حين يقف معاش الأب الصغير عقبة أمام التحاق إسماعيل قدرى بأمل عمره : الحقوق) أو حين يلاحقه النحس فيكون اشتراكه في مظاهرة (نتيجة وعى سياسى وانتماء جاد) مبررا لرفته ، فلا يحقق هدفه أبدا . .



إذن ، « صاحب الحلم المستحيل » ، هو أطيب جماعة أصدقاء نجيب محفوظ ، الذى عرفه منذ صباه في العباسية اعتبارا من عام ١٩٢٤ ، وأول من مات من هذه الجماعة . مات أبوه في المهد . تاركاً له ولأمه البيت ومعاشا صغيرا . . كان مهذبا ، ضحوكا . لم يكمل دراسته الابتدائية . عاش عمره لاهنا وراء سراب حلم مستحيل بالشراء الفاحش ، فلم يجن سوى الضياع الكامل .

كان نوعا قائما بذاته ، تأثر به نجيب محفوظ ، فاستعاد فترة خصبة من صباهما وعشقهما المشترك في قصة « رحلة » - مجموعة « خمار القط الأسود » (١٩٦٩) . ثم

تناول حياته كاحلة ، ضمن سياق الشخصيات التي عايشها وأثرت في حياته في رواية «المرايا» (١٩٧٢) تارة بشكل كامل في فصل «شعراوى الفحم» ، وتارة أخرى بشكل جزئى في فصل «سيد شعير» . ثم عاد نجيب محفوظ إلى استقراء تلك الشخصية ، منقبا وراء جذور تشكلها ، ومبررات نشأتها في قصة «عندما يأتى الرخاء» - مجموعة «التنظيم السرى» (١٩٨٤) . وأخيرا ، بعد أن نضجت تلك الشخصية في وجدانه واختمرت ، ولدت سامقة في قصة رائعة مكتملة البیان هي «خطة بعيدة المدى» - مجموعة «الفجر الكاذب» (١٩٨٩) .

إلا أن نجيب محفوظ ، كفتان كبير ، كان لابد له أن يستكمل أبعاد رؤيته في آخر أعماله الروائية «قشمر» (١٩٨٩) ، حين قدم الوجه المقابل (الإيجابى) لتلك الشخصية ، ولم يكتف بذلك بل وتمتع من مجال بحثه الفنى وراء الشروط اللازمة لنجاح (الفرد) في تحقيق هدفه الذى يحلم به ، سواء أكانت شروط شخصية (ترتبط بذاته) ، أو قدرية (مرهونة بالمشيئة الإلهية في توزيع الرزق والتوفيق والمرض والموت) .



■ الفصل الرابع ■

الباحث عن المتعة

« قال حسين شداد وفي عينيه السوداويتين الجميلتين نظرة حاملة :

- لن أكون مضارباً في البورصة كأبى ، لأننى لا أطيق حياة : العمل المتواصل جوهرها والمال غايتها ، ولن أكون موظفاً ، لأن الوظيفة عبودية فى سبيل الرزق ، ورزقى موفور . أريد أن أحيى فى الدنيا سائحاً ، أقرأ وأرى وأسمع وأفكر ، وانتقل من جبل إلى سهل ومن سهل إلى جبل . . . » .

(الجزء الثانى من الثلاثية « قصر الشوق »)

« اقترح عليه بعضهم أن يبحث عن أى وظيفة كتابية حتى يجىء الفرج ، ولكنه قال بكبرياء :

- إننى أفضل الصعلكة .

وعرض عليه رضا حمادة أن يبدأ من جديد فى مكتبه ولكنه قال له :

- نسيت القانون ولا همة لى على استرجاعه » .

(عدلى بركات - رواية « المرابا »)

* * *

هو أحد جيران نجيب محفوظ فى فترة صباه بالعباسية ، وأحد جماعة الأصدقاء اعتباراً

من المرحلة الجامعية ، سَماه « حسين شداد » ، وأورده ضمن أصدقاء المدرسة الثانوية في الجزء الثاني من الثلاثية « قصر الشوق » (بداية الخمسينات) . ثم وسَّع حكايته ، مكنيًا إياه « عدلى بركات » في رواية « المرايا » (١٩٧٢) ، تدليلاً على أن الاسم في المرتين مستعار.

كيف استعاد نجيب محفوظ صورة هذا الصديق في العملين ؟ . .

كيف كانت معالجته الفنية في أعماله الأخرى ؟ . .



انظر لافتتاحية فصل « عدلى بركات » في رواية « المرايا » ، حين استعاد نجيب محفوظ صورته : « له في الذهن صورة قديمة ، كالعباسية القديمة بحقوقها وسكونها الأبدى ، عندما كان يتهادى به الحنطور من العباسية الشرقية إلى المدرسة ، فيغادره وهو يسير - رغم حداثة سنه - في عظمة خيالية تناسب ولاية العرش ، ويمرّ بنا دون أن يلقى نظرة على أحد ، وحيداً بلا صاحب إلا فيما ندر ، ونعائبه بسخرية تخفى تحتها إعجاباً وحسداً » .

هنا صورتان متلازمتان ، مستكنتان في أعماق (ذاكرة) نجيب محفوظ من الزمن (القديم) لكن هناك التحام آخر (طبعى) بينهما ، هو الارتباط بين (الشخص) و(المكان) الذى وجد فيه . فحين استعاد نجيب محفوظ صورة ذلك (الصديق) ، كان طبعياً أن يستعيد صورة المكان أيضاً ، فإذا (العباسية) تبرز في مشهد وامض سريع ، بحقوقها وسكونها الأبدى ، ليتفرغ الراوى لإرساء معالم صبي وحيد ، متفرد ، يتهادى به الحنطور من حى الأثرياء ليمضى إلى مدرسته في استعلاء ، لا يلتفت إلى أحد ، ليشير إعجاب الأصدقاء وحسدهم .

ولعل تثبيت صورة هذا الصبي المتفرد في (ذاكرة) نجيب محفوظ يرجع إلى امتداد تكرار حدوثها زمناً طويلاً ، ولينشأ حائل من عدم (المعرفة) يساعد على ترسيخ أركانها . وانظر إلى استطراد نجيب محفوظ في « المرايا » : « وكنا في صبا نراه كثيراً ، في المدرسة ، في حديقة القصر ، ولكن لم تنشأ بيننا وبينه أى معرفة أو حتى ميل إلى ذلك .

ومرة كنا عائدتين من ملعب الكرة في الصحراء وجدناه واقفا أمام قصره فقرر خليل زكى أن يتحرش به فوقف أمامه وسأله بوقاحة :

- هل تعرف أين تقع دكان عم فلقوس بياع المدمس ؟ ..

فتراجع إلى داخل القصر دون أى ينبس ، ومضينا ونحن نكتم الضحك ونلعب خليل ، ولكن اجتاحتنا سرور لا شك فيه .

إذن ، متى انكسر هذا الحاجز ، وحدث التعارف بينه وبين نجيب محفوظ ؟ ..

في جزء « بين القصرين » نتابع كمال عبد الجواد (الذى تخفى وراءه نجيب محفوظ) يزور حسين شداد في سراياه بالعباسية ، كأحد أصدقاء المدرسة الثانوية ، لكنه لم يوضح منشأها ، كما أن حسين شداد في « بين القصرين » لم يكن له ذلك التعالى المتفرد .. أما في « المرايا » فقد حدد بدايتها بوضوح ، وذلك في مطلع الدراسة الجامعية : « ودخلنا الجامعة في عام واحد فزامل رضا حماده في كلية الحقوق ، وعارف رضا بينى وبينه ونحن نشاهد مباراة حامية بين النادي الاهلى والمختلط .. قلت له :

- نحن أبناء حى واحد منذ قديم ومع ذلك لم نتعارف إلا اليوم ..

فابتسم قائلا في اقتضاب :

- نعم .

والآن ، ماذا تكشف لنجيب محفوظ عندما اقترب من ذلك الأنيق المتعالى ؟ ..

« وأدركت من أول وهله أنه متعبد . وأنه يحتاج إلى سياسة خاصة في معاملته كي يمنح ثقته وصداقته ، وأنه يحتقر كل شخص في الوجود ، وأن كلمة « مضحك » اكليشيه لاصق بلسانه يصف به أى شخص أو أى فعل مهما يكن رأى المتحدث فيه . . . فاستاذ المدنى « دكتور مضحك » ومصطفى النحاس « زعيم مضحك » ... ، « بل حكى موميقار من جيران الفتى لنجيب محفوظ عن مقتله لأبيه ، فقال إنه - عدلى - لم يعد يخفى كراهيته لأبيه منذ زمن بعيد ، وإن الباشا يداريه مسلما أمره لله . »

ولكن ماهى الأسباب الكامنه وراء هذا التعالى أو مقت الألب إلى احتقار كل شىء في الوجود ؟ ..

لن نجد بطبيعة الحال مبررات هذا الملمح في « بين القصرين » أو « السكرية » ، لأنه لم يكن مرسوما أصلا في شخصية حسين شداد . أما في « المرايا » فنجد تلك الأسباب أو المبررات - التي حاول نجيب محفوظ استقصاء أمرها - في جانبين : الأول في زواج أبيه من أخرى مصرية بعد وفاة أمه التركية ، وهو في الثانية عشرة من عمره . . . وقيل إن وفاة أمه رتبت الحزن في أعماق روحه . كما أن حلول أخرى محلها قضى على توازنه مدى العمر . ولعل زواج أبيه من أخرى هو مرجع كراهيته له .

أما الجانب الثانى من محاولات نجيب محفوظ لاستقصاء الأسباب الكامنة وراء هذا المظهر ، فتم بعد أن توثقت العلاقة بينهما حين سأله بشكل مباشر : « هما يدهوه إلى مقت أبيه واحتقاره فحدجنى بنظرة قاسية وقال :

- الا يكفي لذلك أن بورثنى سحتة ؟ ..

فقلت :

- أنت فلاح جميل !

فجس قائلا :

- لو نافقتى مرة ثانية فسامقك أكثر منه .

لقد سبق أن ذكر نجيب محفوظ بعد أن تم التعارف بينهما . . . « وتمتته عن قرب فإذا به رغم الأناقة والعظمة المطبوعة يشبه أباه الفلاح لحد التماثل ، ولم يرث عن الأم التركية شيئا ظاهرا ينتفع به ! » .

هنا يضع أمامنا الفنان الكبير ما توصل إليه . إنه لا يرجع جانبا على آخر ، أو يتعصب لرأى معين ، لكنه يتقدم - بفعله هذا - متصاعدا ، ليضعنا أمام أهم ملمح صبغ حياة الفتى في تلك الفترة واستشرى إلى حياته كلها بعد ذلك . فلكى يتعد عن مجال أبيه ويتجنب رؤيته أقام في مبنى مستقل في الحديقة . . . « وفي آخر عهده بكلية الحقوق انتقى من زملاء صحبة قليلة عرفت باستهتارها الأخلاقى ، وجعل منها خاصة أصدقائه ، وبهم خرج من عزلته فعرف مواطن اللهو ومقهى الفشاوى ، وانقلب مقامه المستقل في الحديقة إلى حانة وحررة ! » .

لقد اختار الشاب أن يخرج من عزلته ، ليتزلق إلى عالم كامل من المتعة . وهو الملمح (الرئيسى) المشترك بينه وبين حسين شداد فى (الثلاثية) . ولكن بينما شكّل هذا الملمح (واقعا) معاشا فى حياة عدلى بركات فى « المرايا » أتى عليها بالكامل ، فإننا نجد حسين شداد (يؤصل) بفكره دائما ما يقدم عليه من أفعال . وإذا كانت حياة عدلى بركات (فعل) دائم فإن حياة حسين شداد تتراوح بين (التفكير) و (التنفيذ) . لذلك يعتبر عدلى بركات نموذجا معجونا فى (طين) الواقع ، تسيطر عليه مشاعره وغرائزه وتجذبه لأسفل باستمرار ، بينما حسين شداد نموذج على درجة عالية من الوعى والثقافة ، من خلالها يخطط وينفذ ، مقل على الواقع ، يواجهه عند الضرورة ، مقتنع ، لا يستسلم أو ينقاد . لذا كان منطقيا ألا يستطيع عدلى بركات التعبير عن ذاته دائما بوضوح بينما بدت لدى حسين شداد دائما القدرة على توضيح نفسه ومواقفه باستمرار ، حتى أنه جنح إلى التكرار أحيانا .

وفى مرحلة الدراسة الجامعية كان عدلى بركات (يمارس) فعلا متع الحياة الحثية فى (وكره) المستقبل فى حديقة سراياهم ، بينما كان حسين شداد (يخطط) للمستقبل : « جميع المدارس عندي سواء ، ليس فى هذه المدرسة أو تلك ما يجذبني إليها . حقا أريد أن أتعلم ، ولكنى لا أريد أن أعمل ، ولن أجد فى مدرسة من مدارسنا ما ابتغيه من علم لا يراد به عمل ، ولكنى لم أظفر فى بيتا بشخص يوافقنى على رأى ، ولا أرى مناصا من أن أجاريهم إلى حد ما ، وساءلهم : أى مدرسة تختارون ؟ فأجاب أبى : وهل يوجد غير الحقوق ؟ فقلت : إذن لتكن الحقوق » ، ثم يستطرد موضحا ما يطمح إلى تحقيقه فى المستقبل ، بأنه من . . . « غير المستبعد إذا سارت الأمور على ما أشتهى أن أقطع دراستى المحلية كى أسافر إلى فرنسا ، ولو بحجة دراسة القانون فى معاهدها المختلفة ، وهناك أنهل من منابع الثقافات بغير قيد » .

وانظر إليهما فى مرحلة تالية فاصلة ، عندما تخرج عدلى بركات من الحقوق ، بعد سقوط أربع مرات ، وفشل أبوه فى تعيينه فى سلك النيابة بعدما كشفت التحريات عن (غرزة) الحديقة ، فحولها الأب إلى مكتب للمحاماة ، وسرعان ما حولها عدلى إلى غرزة وماخور فاضطر الأب إلى طرده من البيت ، فاقترح عليه بعضهم أن يبحث عن أى وظيفة ولكنه قال بكبرياء : « إننى أفضل الصعلكة » . أما حسين شداد الذى سبق أن

(خطط) أن يسافر إلى باريس ، وربما تزوج هناك كي يقضى العمر . . . « سائحاً في عالمي الواقع والخيال » فإنه سرعان ما يقتنص فرصة زواج أخته وسفرها إلى بروكسل ، ويطلب من أبيه السفر إلى باريس ، فيوافق بعد أن وعده بمواصلة دراسته القانونية ، لكنه لا يدرى إلى أى مدى سيستطيع المحافظة على وعده ، فهذا هو فرصة تحقق أحلامه قد دانت ، ولن يهدرها .

ولتوقف أمام تعبير كل منهما : « صعلوك » ، و « سائح » ، إن جوهر قناعتها واحد . كلاهما رافض للعمل عدلى دون تفسير ، وحسن . . . « لا يطبق حياة : العمل المتواصل جوهرها والمال غايتها ، ولن أكون موظفاً ، لأن الوظيفة عبودية في سبيل الرزق ، ورزقي موفور » . وكلاهما رافض للسياسة وللمشاركة فيها (عدلى تعالياً ، ولا مبالاة بها ، وحسن يرى . . . « أن السياسة تفسد الفكر والقلب ، وينبغي أن تعلق عليها ، حتى تترأى لك الحياة ميداناً لا نهائياً للحكمة والجمال والتسامح لا معترك صراع كبير) . كلاهما مقبل على المتعة بشتى ألوانها ، إذا لم يتوافر الرزق فهو (صعلوك) وإذا توافر فهو (سائح) . الصعلوك غارق في عالم المتعة يعيشه بكل نهمه ووجدانه ، بينما السائح أكثر وعياً باحتياجاته لا يفتأ يخطط وينفذ ، حين مات الأب (الثرى) ورثه عدلى وبدد ميراثه الضخم على متعه حتى أتى عليه تماماً . أما حين صار والد حسين مفلساً ، بعد أن التهمت البورصة أمواله جميعاً ، إذا به بعد أن استقر به المقام في فرنسا ، وتزوج وعمل في متجر حماء ، يقرر أن يعود إلى مصر ، وعاد فعلاً وحده ، ليعمل باجتهاد ، ليوفر لزوجته حياة تناسبها ، لأنها من أسرة محترمة ، وكان حين تزوجها معدوداً من الأغنياء . لقد انساق عدلى وراء متعه حتى النهاية ، فإذا ما نضبت أمواله . . . « شرب زجاجتى ويسكى وبلع ربع أوقية حبشش وهام على وجهه ، وعثر عليه صباح اليوم التالي جثة هامدة على شاطئ النيل » . أما حسين فقد واجه (إفلاس) أبيه ، ولم يستسلم ونبد (أحلامه) القديمة ، حتى عبّر عن تحوله بقوله : « إننى غارق في العمل منذ أعوام وأعوام . . . لست إلا رجل أعمال » !

هنا نموذجان ، جمعتهما وحدة الاقتناع بالبحث عن المتعة . فأقبل أحدهما عليها بكل عنفوانه ، دون روية أو تأمل أو تفكير ، فانعزل عن العالم الخارجى تماماً وكان مآله الضياع والانتحار . أما الثانى فكانت ثقافته ووعيه زاداً له ، فكان (عقلاً) في

إقباله ، بحسب دائئها قبل أن يقدم ، فإذا ما جدّ الجدّ وتزوج (أو ساءت أحوال أسرته)
تحمّل مسئولياته ، وواجه الواقع بجسارة ، نابذا أحلامه القديمة !

في رواية « قشتمر » (١٩٨٩) تتابع تنويعه أخرى على نموذج الباحث عن المتعة في
شخص « حمادة يسرى الحلواني » . وهو من أسرة شديدة الثراء ، أبوه الباشا صاحب
أكبر مصنع للحلاوة الطحينية في القطر ، وهو رجل مال وأعمال ، وفدى قديم سيعتقل
ويصير بطلا (إنه النموذج المقابل لشداد باشا « الثلاثية » ، مضارب البورصة ذو
العلاقات المشبوهة بالخديو) . هنا الأب مشغول دائئها ، أما الأم فهي شديدة ونحب أن
تطاع ، وتفوق فخامتها جمالها (على عكس الثلاثية حيث كانت أم حسين شداد باهته
التأثير ، وأيضاً على عكس « المرايا » حين ماتت الأم وهو في الثانية فأورثت الابن حزناً
وكرها للأب الذي تزوج بعدها) . وله أخ يكبره بأعوام وأخت تكبره أيضاً (أى أنه آخر
العنقود ، على عكس حسين شداد الذي كان يتوسط اختين في « الثلاثية » ، أو عدلى
بركات الذي كان له أخ أكبر وحيد في « المرايا ») . وإن اتفقت هذه الأسرة مع أسرة
حسين شداد ، إنهم أصلاً من دمياط ، ويصطفافون دائئها في رأس البر .

أما حمادة فهو : « عميق السمرة ، يبشر نموه بقامة طويلة ، رأسه كبير فيه نبل
واحترام ، ملامحه مقبولة ، ويمتاز بنظرة هادئة » . إنه لم يرث سحنة الأب (كما في
« المرايا ») : « يمتد طولاً ورشاقة ، ويتجلى فيه مظهر ابن الذوات الأصبل ، يتكلم بتؤدة
، ويشفق كلماته من قاموس مهذب ، ولعلّه كان ينمزل عن العالم في كبرياء » ، (وهو
في هذا يتماثل مع عدلى بركات « المرايا » ، وحسين شداد « الثلاثية ») ، « لولا وقوعه في
صداقتنا ، ولم يتخل عن هذا الجانب الشمعى طول حياته » .

هذا عن جانب النشأة ، أما بالنسبة لجانب البحث عن المتعة ، فإن نجيب محفوظ
يرصد تبلور له ، على مدار تطور عمره :

* في نهاية المرحلة الأولية وسنه تقترب من التاسعة .. « تحايّلت لأحبنا أهداف عن
مستقبل بعيد ، إلّا حمادة بدا غامضاً لا نعرف له هدفاً » .

* وفي المدرسة يسأله صديق : « ماذا تريد أن تكون ؟ » ..

فيفكر في شيء من الخبرة ثم يقول :

- لا أدري ، لم أحب عملا بعد ، ولكنى أحب الحياة » .

* « ودخل حمادة الحلوانى كلية الحقوق بلا أدنى رغبة فيها ولا فى غيرها قال :

- لأسكت أبى ليس إلا ، كفت الآن عن إغرائى بالاهتمام بعمله وقنع بأخى توفيق كخليفة له ، وقد دخلت الحقوق لأوهمه بأننى صاحب هدف هام أيضا » (انظر هنا للتشابه بين موقفه مع حسين شداد) .

« قال له صادق :

- بوسعك أن تعمل فى النيابة والقضاء .

فقال ضاحكا :

- هدفى أكبر من ذلك ، أنا عاشقٌ للثقافة والحياة والحرية .

- الحرية ؟ ..

- سمها مؤقتا البطالة إذا شئت » .

(انظر هنا للتطور من عدم وجود هدف إلى حب الحياة إلى عشق أوسع للثقافة والحياة والحرية . وانظر لسابق استخدامة تعبير « بصفة مؤقتة » فى « بين القصرين » عن استمراره فى دراسة الحقوق ، والتي سيقطعها إذا سارت الأمور على ما يشتهى ، والإحلال المؤقت للبطالة محل الحرية) .

* « مع الزمن مضى حلمه بتبلور ويتجسد ، أن يعيش كالأعيان ، يقطف من كل بستان زهرة ، بالطول والعرض ، بالروح والجسد ، دون التزام أو ارتباط » .

هنا حلم بدأ من اللاهدف ، وتبلور بمضى الزمن ، حتى اكتمل . بخلاف حسين شداد فى « الثلاثية » الذى ولد حلمه مكتملا خلال مرحلة التخطيط .

وإذا كان عدلى بركات (المرأيا) وحسين شداد (الثلاثية) قد بدأ تنفيذ حلمهما خلال مرحلة دراسة الحقوق ، دون علم الأب (الذى اكتشف حقيقة أفعال عدلى بعد تخرجه ، والذى لم يكتشف أبدا أن حسين لم يكمل دراسته الجامعية) فإن موت والد حمادة الحلوانى إثر مرض وجراحة ، حرّر حمادة فلم يتردد فى هجر كلية الحقوق غير

آسف أو مكثرت لرجاء والدته ، وانطلق إلى تحقيق أحلامه فاستأجر شقه في خان الخليلي وأثثها على الطريقة الشرقية ، كما أعد لنفسه ناديا خاصا في عوامة بشارع الجبلاية ، ليشبع شغفه بالحياة العريضة ، حسيه وعقلية ، في رحلته الطويلة المتحررة من أى التزام (إنه يتشابه مع عدلى بركات وحسين شداد في تفضيل البطالة ورفض العمل ، وكذلك أبى الانتباء - مثلها - لرأى أو مذهب سياسى) .

ولكن لابد أن نتريث - هنا - قليلا ، محاولين البحث عن (جذور) أحلام هذه الشخصيات في ظروف نشأتهم الأولى التى وفرت لهم بيئة غنية غنى فاحشا ، يتر لهم تحقيق أحلامهم . وقد يكون توافر المال قد حقق لديهم نوعا من الاكتفاء أو الزهد ، وبصرتهم بعيوب التكالب عليه ، بحيث أصبح لديهم نوعا من المناعة ضده ، وبذلك لن يكونوا يوما من عبيده . إذن ، قد يعتبر توافر المال عاملا مساعدا ، لكنه لن يكون أبدا الدافع الأصلي ، لأن عدلى بركات بعد أن طرده أبوه ولم يعد له مصدر رزق ، رفض العمل بكبرياء ، واختار أن يعيش صعلوكا لسنوات طويلة حتى مات أبوه فورته .

إذا رجعنا إلى حياة هذه النماذج الثلاثة فسنجد عددًا من العوامل المشتركة ، أولها أن هذا الباحث عن المتعة يكاد يكون الرجل الوحيد في أسرته (حسين شداد هو الابن الأوسط بين بتين ، حتى إنه قال ذات مرة : « إن أسرتي جميعا لا تفهم آمالى ، يرونى طفلا مدللًا ، قال خالى مرة متهمكا على مسمع منى : لا يتظر أن يكون الذكر الوحيد في الأسرة خيرا من هذا » . عدلى بركات كان الأخ الأصغر بين أخوين ، كما كان حمادة الحلوانى آخر العنقود أيضا) .

إذن لعل توافر الغنى الفاحش ، وتدلليل الابن ، يفتح آفاق فكره على عوالم أخرى ، محاولا تخطى الحياة المتاحة بكل تسهيلات ورفاهيتها التى ملها وسأم من توافرها .

عنصر آخر هام يقابل حياة الغنى التى يوفرها الأب ، والتى تجعله مشغولا دائما لا يعطى لأسرته أو لأبنائه الوقت الضرورى اللازم لتنشئتهم النشأة الصحيحة ، بحيث يؤثر غياب الأب سلبا في نفسية الطفل ، تجعله يكره نموذج رجل الأعمال والمال الذى يشغل أبوه دائما ويعده عنه ، فلا يصبح هو النموذج المرغى ، بل ربما صار نموذجا مكروها قد ينفره من مجرد العمل .

وقد يرجع الأمر إلى عقدة نفسية ترسخت في نفس الطفل ، ولدت لديه كراهية للأب (نتيجة توريثه سحته القبيحة أو زواجه من أخرى بعد وفاة أمه « المرايا » ، أو نتيجة بخل الأب على أبنائه وإسرافه عشقًا للمظاهر « بين القصرين ») بحيث يصبح الأب هو النموذج المضاد ، المرفوض ، فيتولد لدى الأطفال كراهية لا واعية لكل ما يفضله الأب وبذا يرفضون كل ما يرشدهم أو ينصحهم به ، وقد يجارونه لفترة ، حتى تتاح لهم الفرصة لتحقيق حلمهم الغريب ، بحيث يغدو الأمر كما لو كان فعلهم - بشكل من الأشكال - انتقاما من الأب ! .

وأخيرا ، قد يكون للأم نفس التأثير خاصة إذا كانت . . « شديدة ومحبة أن تطاع . . » (انظر « قشتمر ») ، فإنها لمشغولية الأب ، تلعب دوره البديل ، وبذلك يصبح الأمر مركبا شديد التعقيد ، فالابن يرفض نموذج ذلك الأب المشغول دائما (الغائب) ، ويرفض أيضا دور الأم / الأب (الحاضرة) دائما وأبدا ، لذلك ما إن تتاح الفرصة لحمادة الحيوانى بموت الأب وبلوغه سن الرشد ، حتى يشعر أنه تحرر من القيد الأساسى ، فهجر كلية الحقوق . . « غير آسف وغير مكترث لرجاء والدته » . لقد أتبع له أن يتقم أخيرا !

ويبقى ملمح أخير في « قشتمر » ، حين تعرض قطاعا طويلا للتهادى في تحقيق حلم المتعة حتى النهاية ، لذا يتكشف أمام حمادة الحيوانى عدد من الحقائق :
« إن الحياة أخذ وعطاء أما أنا فأخذ فقط » .

« نحن نتقدم بسرعة في ذلك الطريق المجهول المسمى بالعمر ! » .
« رغم كل ما انتهى إلى من أسباب الراحة فإتنى أضيق بالحياة أحيانا لحد القرف ! » .
« ضايقنى يوما أن آخذ دون أن أعطى ، اليوم أندم على الندم ، خير ما يفعله الإنسان هذه الأيام أن بوطن نفسه على استقبال الموت ، فإذا وقعت شدة وجدنا فيها الفرج . . » .



هو أحد جيران نجيب محفوظ في فترة صباه بالعباسية ، وأحد جماعة الأصدقاء اعتبارا

من المرحلة الجامعية . كان أهم ملمح في حياة هذا الصديق هو بحثه الدؤوب النهم عن المتعة بمختلف أنواعها وأشكالها . استوحى نجيب محفوظ شخصيته ، فجعله أحد أصدقاء كمال عبد الجواد في المدرسة الثانوية في « بين القصرين » و « السكرية » (بداية الخمسينات) ، حيث (وُلد) حلمه ناضجا مكتملا ، خلال مرحلة تخطيطه للمستقبل قبل أن يلتحق بالجامعة ، فكان (عقلانيا) في تخطيطه وفي إقباله ، يمتلك درجة عالية من الوعي ، فيحسب كل خطوة قبل أن يقدم على تنفيذها . وهو في هذا يكاد يتعارض مع الصورة (الفعلية) لهذا الصديق ، كما رسمها في رواية « المرايا » (١٩٧٢) في إقباله على المتع بكل عنفوانه ، دون روية أو تأمل أو تفكير ، فكان حتما أن يعود إلى ذات الشخصية - مرة ثالثة - في آخر رواياته « قشتمر » (١٩٨٩) ، ليقدم قطاعا طويلا موسعا لحياة هذه الشخصية ، مستعرضا ظروف نشأته وتبلور حلمه وسط الأصدقاء والمجتمع ، بدءًا من طفولته وانتهاءً بشيخوخته ، وهو في الثمانين من عمره مستسلما ، في انتظار الموت ، وإن . . . « بقى له من لذائذ الحياة الطعام والحشيش ، وحتى الحشيش عجز عن تدخينه في الجوزة ، أما القراءة فلم يعد يستمتع بها أكثر من ساعتين في اليوم » .

ويبقى أن تكامل الرؤى بين الأعمال الثلاثة يضيء ويكشف العوامل المختلفة التي ساعدت على خلق مثل هذه النماذج المتكاملة على المتعة .



■ الفصل الخامس ■

رجل عمل

« وشق على الرجل الرفق وكان فقيراً كما كان مريضاً بالقلب فاصيب بالفالج وقضى نحبه . وشفى ناجى من مرضه ولكنه عجز عن مواصلة التعليم ، فانتهاز أهل الخير فرصة عودة الوفد إلى الحكم وسموا إلى تعيين الشاب الصغير في وزارة الحربية ، فتعين في وظيفة صغيرة خارج الهيئة ، كذلك قضت الظروف على أنبغ تلميذ في جيلنا » .

(ناجى مرقص - رواية « المرايا »)

« اجتهد إسماعيل قدرى مستهدفا التفوق ليلتحق بالحقوق بالمجان ، ولكن سوء الحظ اعترض سبيله المرسوم بتدبير مكرر - ففى ختام الثلث الأول من العام الدراسى لزم قدرى أفندى سليمان الفراش لمرض فى القلب . اختل نظام إسماعيل وشغل بآبيه ، « والحق أن قدرى أفندى لم يسترد صحته ، وأسلم الروح فى أواخر مارس قبل الامتحان بشهر تقريباً . وأساء مرضه وموته صديقنا إساءة لا تجبر . نجح فى البكالوريا وجاء ترتيبه دون المتوقع ودون ما يستحق ، وعجز معاش والده عن توفير المصروفات له » .

رواية « قشمر »



هو رفيق الدراسة الثانوية لتجيب محفوظ فى العباسية ، ما بين ١٩٢٥ حتى ١٩٢٨ . استعادته أولاً فى رواية « المرايا » (١٩٧٢) تحت اسم ناجى مرقص ، ثم

استوحى شخصيته مرة أخرى في رواية « قشتمر » (١٩٨٩) مكنيا إياه إسماعيل قدرى ،
بما يدل على أن الاسم في المرتين مستعار .

كيف استعاد نجيب محفوظ شخصية ذلك الصديق ؟ ..

وكيف استوحاه في أعماله الأخرى ؟ ..

* * *

انظر لمفتاح الفصل الخاص بهذا الصديق في رواية « المرايا » : « لا أنسى هذا الاسم أبدا . لم يمح من ذاكرتى كأنه اسم علم من الأعلام ، رغم أننى لم أزاله إلا ثلاثة أعوام من حياتى ، ما بين ١٩٢٥ حتى ١٩٢٨ فى المدرسة الثانوية » .

إن نجيب محفوظ يدل على تأثره بهذا (الزميل) وبقائه حيا فى ذاكرته رغم قصر فترة زمالتها (ثلاث سنوات) . فما هو تعليل ذلك ؟ ..

أوضح نجيب محفوظ فى « المرايا » أنه : « كان رشيقا طويلا وسيم الوجه لطيفا مهذبا ورزينا لدرجة لا تناسب سنه ، ولعله كان الوحيد فى سنة أولى الذى يلبس بنطلونا طويلا ، وربما كان أنبغ تلميذ صادفته فى حياتى » .

إذن (نبوغ) هذا الفتى هو الملمح الأساسى الذى أبقاه فى (ذاكرة) نجيب محفوظ ، رغم انقضاء الزمن ، لذا يستطرد نجيب محفوظ بعد ذلك موضحا : « كان لكل تلميذ مجال فى تفوقه إن وجد ، فتلميذ يتفوق فى اللغات وآخر يتفوق فى الرياضيات ، وهكذا .. أما ناجى مرقص فكان متفوقا ممتازا فى جميع المواد » ، « وكان الأول دون نزاع وكان المدرسون على اختلاف جنسياتهم من مصريين وإنجليز وفرنسيين يحترمونه ويعاملونه كأنه رجل لا تلميذ » ، « ونجح فى امتحان الكفاءة بتفوق فجاء ترتيبه بين العشرة الأوائل فى القطر كله » .

نفس ملمح (النبوغ) نجده فى شخصية إسماعيل قدرى فى رواية « قشتمر » : « فهو أبرزنا فى المدرسة دون منازع . يذاكر ويحفظ ويتفوق ولا يشيع من ثناء المدرسين ولا من إعجابنا به . تتفق الآراء على أنه الفارس فى هذا الميدان ، وهو زكى لمح » . « لإسماعيل قدرى علينا ما يشبه القيادة .. هذا حقه لتفوقه المدرسى ، وللتفوق المدرسى امتياز لا ينكر ، وله منزلة خاصة عند المدرسين » .

لكن ليس (نبوغ) الفتى فقط هو الذى أبقاه فى (ذاكرة) نجيب محفوظ حيًا لا ينسى ، بل إن هناك جانب آخر هام ، هو ما لازمه من (سوء حظ) رهيب ! .

فى رواية « المرايا » وبعد أن حقق ناجى مرقص تفوقا كاسحا فى الكفاءة على مستوى القطر ، وكان الكل ينتظر ما سيحققه من تفوق فى البكالوريا ، السنة التى تفضى إلى الجامعة ، انظر لنجيب محفوظ يحكى عما حدث فيها : « عندما عدنا إلى المدرسة فى بدء العام الدراسى الجديد لم نعثر لناجى مرقص على أثر لا فى القسم العلمى ولا القسم الأدبى . .

وتساءلنا عن سر اختفائه دون أن نظفر بجواب . وكان يسكن بعيدا عن حيّنا فى أطراف العباسية المشرقة على منشية البكرى فذهبنا إلى مسكنه نستطلع ، فعلمنا هناك بأنه أصيب فى صدره ، وأنه أرسل إلى جدته بصعيد مصر ليعالج ، وأن علاجه سيستغرق عاما كاملا فى أقل تقدير .

ولم يقف الأمر معه عند هذا الحد ، بل تجاوزه إلى أبهى ، حين ذهب ضمن وفود من الشعب إلى بيت الأمة ، لتهنئة مصطفى النحاس لبراءته فى قضية سيف الدين وكان الأب موظفا فى وزارة الحربية . . « وظهرت صورته لسوء الحظ ضمن صور المهثين فقررت الوزارة فصله ، فمرض الرجل ، وكان مريضا بالقلب فأصيب بالفالج وقضى نحبه . ورغم شفاء ناجى من مرضه ، إلا أنه لم يستطع أن يواصل تعليمه ، وانتهر أهل الخير فرصة عودة الوفد إلى الحكم ، واستطاعوا تعينه فى وظيفة صغيرة فى وزارة الحربية .

إذن ، لقد لازمه النحس وسوء الحظ مرتين ، الأولى حين مرض فى عام حاسم ، وقبل أن يستأنف دراسته إذا (بظلم) خارجى من المجتمع يحيق بأبيه ، حين يفصل بسبب انتهائه السياسى ، فيمرض ويموت ، ليضيع دخله (المتواضع) ، لأنه فقير ليس له سوى مرتبه ، ليواجه الشاب بظروف قاهرة تمنعه من مواصلة تعليمه (أو تفوقه) ، ليقع فى وظيفة (صغيرة) نالها بتدخل أهل (الخير) لدى الوفد .

والآن ، لتعرف على أبعاد معالجة ذات الموقف فى رواية « قشتمر » ، وبعد أن خطط إسماعيل قدرى لمستقبله ، مركزا على القانون باعتباره الباب المقضى إلى المجد والسياسة ،

بما يتناسب مع تفوقه الكاسح ونضجه السياسى المبكر ، الذى أسفرت عنه مناقشاته مع الأصدقاء ومشاركاته فى المظاهرات (بدا هذا الملمح باهتا فى « المرایا » ، حين كان يهتم بالسياسة ، لكنه لا يشارك فى المظاهرات لموت أخيه الأكبر فى إحدى المظاهرات) ، إذا بأبيه يمرض - فى ختام الثلث الأول من العام الدراسى الحاسم - بمرض القلب الذى أفضى به إلى الموت فى أواخر مارس قبل الامتحان بشهر تقريبا . وبطبيعة الحال كان نظام إسماعيل قد اختل لانشغاله بأبيه ويمتاعب الأسرة ويتكالف الطبيب والأدوية ، إضافة إلى فقدان الأسرة مورد الرزق الأساسى بموت الأب ، فلم يبق لها إلا معاش صغير وفى بالكاد باحتياجات الأسرة الضرورية . فكان منطقيا ألا يحقق إسماعيل فى البكالوريا النتيجة المرجوة ، ولم يبق أمامه من فرص للمجانية إلا فى كلية الآداب ، التى رقت منها إثر اشتراكه فى المظاهرات ، فيتوسط صديق له عند قريب له (من خصوم الوفد) فتم تعيينه بوظيفة كتابية بدار الكتب .

إن نجيب محفوظ كفنان كبير لم ينجح إلى تكرار ميلودراما الواقع (كما أوردها فى « المرایا ») ، بل ركز رسمه على سبب منطقى بسيط يحقق النتائج المرجوة . فكان مرض القلب (الذى التزم فيه بالحقيقة) مفضيا للكارثة ، فالأب فى الأسرة الفقيرة هو السند والعائل والمورد ، ولكن لنتبه أيضا إلى أن هذا المرض كان سببا فى تبديد معظم العام الدراسى من الفتى الذى اعتاد أن يذاكر بانتظام (ولعل هذا سبب آخر لإعجاب نجيب محفوظ بهذا النموذج ، فهو أيضا إنسان منظم ، أم أن نجيب اقتدى به فى تنظيم وقته حتى يحظى بالتفوق هو أيضا ؟) . فكان طبيعيا أن يحقق نتيجة دون مستواه ، لكنها أهله للحصول على المجانية فى كلية الآداب ، فالتحق بها . فى « المرایا » لم يكمل الفتى ، فرغم كل الظروف المحيطة ، لن يحقق الفتى النتيجة المرجوة ، بل سيحقق نتيجة قريبة منها ، لنصعد معه خطوة أخرى على سلم الدراما الإنسانية ، لهذا الفتى النابه ، الذى يتقدم الأصدقاء فى كل شىء ، والذى . . . لم يشغله شىء من إحساسه الوطنى وحماسه الفائق للوفد الذى بلغ درجة من الحرارة لا تكون إلا للعقيدة الدينية ، فكان منطقيا أن يشترك فى كل مظاهرة طلابية ، تكون إحداها داخل حرم الجامعة سببا فى (رفته) من كلية الآداب ، لينتهى به الأمر بمساعدة أحد (خصوم) الوفد إلى وظيفة صغيرة فى دار الكتب (انظر هنا لاستفادة نجيب محفوظ من رفته الأب ، ليقوم بإحلالها

لدى الابن ، ليدعم البناء الدرامى المتصاعد لتلك الشخصية ، ولتنظر وتتعجب ، فإذا كان موت الأب قد بدد أمله فإن نضاله إيماناً بالوفد يكون سبباً فى فصله ، ليجد العون فى النهاية من أحد خصومه (١) .



يبقى هنا ، أن نقارن بين ملامح تلك الشخصية كما رسمها نجيب محفوظ فى «المرايا» وبينها فى رواية «قشتمر» ، وما هى الثوابت والمتغيرات بين هاتين المعالجتين . . .

أول الثوابت أنه كان يعيش وحيداً فى كنف أبويه (فى «المرايا» كان وحيد أبويه بعد أن مات إخوته الثلاثة ، وفى «قشتمر» عاش وحيداً مع أبويه ، لأنه آخر العنقود ، بعد أن تزوجت أخواته الأربع قبل أن يبلغ السادسة عشرة من موظفين صفار) .

ثانى الثوابت أنه تزوج (فى «المرايا» وأنجب فتاة درست فى كلية العلوم ، فى «قشتمر» أنجب ابناً مهندساً ، سافر وعمل بالسعودية ، ثم قرر فى النهاية أن يعود ليستقر ويعمل فى مصر) آخر الثوابت أنه فى أواخر عمره عاد إلى دراسة الروحانيات بعد أن كان قد درسها فى عهد صباه (تأكد هذا الملمح فى «المرايا» وفى «قشتمر» بالتفصيل) .

أما متغيرات المعالجة فعديدة بدءاً من الاسم ناجى مرقص وإسماعيل قدرى (أما ناجى مرقص فهو الخالص من الأذى ، أو هو من أسر إليه الحديث الروحاني ، الذى يؤدى حركات معينة للتعبير عن شعور معين . أما إسماعيل قدرى فيحيل مباشرة إلى حكاية سيدنا إسماعيل الذى رضى بحكم ربه ، ونزل طائعا مختاراً على إرادة أبيه . وانظر تأثير (موت) الأب على حياته وفعل (القدر) .

امتدت متغيرات المعالجة إلى لون العينين (فى «المرايا» عيناه سوداوان ، وفى «قشتمر» عيناه عسلتان (١) .

وانتهت - المتغيرات - إلى الحياة والمصير ، ففي حين استسلم ناجى مرقص (المرايا) بحياته وما آلت إليه ، فأنهى موظفاً فى وزارة الحربية وصل إلى الدرجة الثالثة . نجده فى (قشتمر) قد استسلم وركن إلى حياته الجديدة المتواضعة حتى تزوج ، فإذا بروحه

القديم يعود إليه فيقرر أن يعاود دراسة الحقوق من المنزل ، باعنا الهدف القديم فهو لا يفرق بين الوطنية والاشتغال بالسياسة ، واستقال بعد أن حصل على الليسانس وعمل في مكتب محام وفدى .

ولتوقف هنا أمام نقطة التحول الفاصلة في حياة تلك الشخصية في « قشتمر » ، لقد تزوج فعلا ناجى مرقص في « المرايا » واستمر في استسلامه لواقعه الذي آل إليه بعد صدمة موت الأب في البكالوريا . نحن هنا أمام مفهوم نجيب محفوظ وقناعته بأهمية الزواج وارتباطه بالاستقرار . انظر إليه في « قشتمر » حين يعلق عليه بعد استسلامه للموظفة الصغيرة . . « ولكن إسماعيل قدرى هو من يستحق الرثاء حقا . ولو حسنت أحواله لتقدم الجميع في طريق الزواج لما عرف عنه من الانضباط وحب الاستقرار » . فيكون منطقيا - بعد ذلك - حين يتزوج ، أن تستقر حياته ليعود إلى هدفه القديم ، فيدرس الحقوق وينجح في الحياة العلمية ، والسياسية حتى « يُشر بلمعان قريب ولم نشك في أنه بالغ هدفه طال الزمان أو قصر . ولما جرت انتخابات ١٩٥٠ قال له أستاذه :

- أتبأ لك بأنك ستكون من المرشحين في الانتخابات القادمة ! لكن ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ قامت ، فوجد آماله الشخصية تداس تحت أقدام الحركة الفليضة العسكرية حتى . . « عجب لسمى الدهر بينه وبين آماله . فكما ابتسم له المستقبل وثبت الحوادث فطمت إبتسامته ، لقد ذهب المجد وولّى » . فكان منطقيا أن يتفرغ بعد ذلك لتربية ابنه الوحيد « هبة الله » ، وأن ينجح إلى الروحانيات والتصوف ، ناشدا فيها الملاذ والملجأ .



أثرت (مأساة) ناجى مرقص في نجيب محفوظ تأثيرا كبيرا ، حتى إنه كتب في رواية « المرايا » أنه : « كثيرا ما كنت أتذكره وأتحرر على نهايته ، وكلما صادفنى شيء من التوليق في حياتى الدراسية أو العملية تذكرته فداخلى الأسى » .

لكن الفنان الكبير لا يستسلم للأحزان والحسرة والأسى . إنه يقاوم ، يحاول أولا أن يفهم ، أن يحلل أبعاد المأساة ، ليلور - بعد ذلك - رؤيته الخاصة لما حدث . إنه لا

ينغلق على الماضي بل ينشد المستقبل . وهو ما بدأه فعلا نجيب محفوظ في رواية « قشتمر » ، حين رسم شخصية ذلك الزميل حين لطمه القدر بموت أبيه في العام الحاسم ، فبينما أدت اللطمة في « المرايا » إلى توقفه عن الدراسة لظروف (فقرهم) ، إذا به في « قشتمر » يوظف اجتهاده ليتزعج له المجانية في كلية الآداب التي لا يرغبها ، ليستمر بها فترة ، حتى يتسبب إيمانه بالجهاد السياسي في رفته منها . فإذا هو يستسلم فترة من الزمن ، حتى يتزوج ، ويستقر وتتظم أحواله ، وإذا (المارد) القديم ينهض من طول سباته ، ليقاوم ثانية ويذاكر الحقوق من المنزل ، ويمتهد في مكتب محاماة لأستاذ وفدى ويعاود نضاله ، وحين يصبح قاب قوسين أو أدنى من تحقيق (هدفه) القديم ، تقوم ثورة يوليو ، لتشد حلمه ، فيتفرغ لتربية ابنه الوحيد (هبة الله) في ظروف مالية مستقرة ، ومن خلال خبرات عمر كامل ، حتى تخرج مهندسا في الرابعة والعشرين من عمره . انظر لاختيار الابن ، نحن نفهم ضمنا أنه اختار كلية الهندسة التي تناسب تفوقه ، وتماشى مع ظروف المجتمع الجديد . لقد اختار الابن ما سبق أن رفضه الأب ، فلكل فرد اهتماماته ولكل عصر إيقاعه . وانظر بعد ذلك إلى تعبير نجيب محفوظ عن الفتى في أعقاب يونيو ٦٧ . . « وبقلب حطمته الهزيمة وانتكاسة البطل فحقق حلما راوده من قديم وهو الهجرة فهاجر إلى السعودية » .

إن نجيب محفوظ لم يتحدثنا عن اهتمامات الشاب السياسية ، لكنه كثف وأوجز ، إن للشباب اهتماماته السياسية وانتهاءه لوطنه ، امتداد للأب ، لكن في اتجاه مختلف . فانتفاء الأب كان للوفد ، أما الشاب فهو ابن للثورة ، فكان حتما أن ينصرف إيمانه وانتهاءه إليها . . حتى دهمته هزيمة ٦٧ ، فعاوده (حلمه) القديم في الهجرة (كان للأب حلم آخر وأدته الأيام) فهاجر إلى السعودية ، وتفهم الأب هجرته . . « لعله يجد في المال العزاء » ، لتنتهي الرواية بأن الابن قرر أن يعود وأن يستقر ويعمل في مصر .



إذن ، بدأ نجيب محفوظ - كفنان كبير - مقاومته الإيجابية لمأساة زميله في « قشتمر » ، ثم استمر معمقا ذات الاتجاه في قصة « رجل » - مجموعة « الفجر الكاذب » (١٩٨٩) وهي تحكى عن عجوز يستقبل يومه بالمشى في شارع الحرية (انظر للدلول اسم الشارع لعجوز وحيد اعتزل العمل بحكم شيخوخته ، لقد تحرر الرجل أخيرا من أعباء الحياة

بأشكالها المختلفة) ثم يرجع إلى شقته ليجد خادمتة العجوز قد أعدت له مجلسه في حجرة المعيشة ، ليخلو إلى الصحف والإذاعة والتأمل (بها يشى بشراء ويسر أحواله ، وعمق ثقافته) ، ليكشف أن جاره الصحفي قد كتب عنه عموده اليومية في الصحيفة ، لينتهي إلى رثاء وحدته وكآبته ، فانتظره في اليوم التالي وهو يتجه نحو سيارته ، ودعاه إلى لقاء إذا كان يهيمه أن يعرف الحقيقة .

لقد اختار نجيب محفوظ شكلا فنيا مشوقا ، حتى يدخلنا إلى عالم هذا العجوز الذى كان من رجال الجيل الماضى المعروفين . . « فقد شريكة عمره منذ أعوام ، وهاجر أبناؤه الثلاثة إلى الولايات المتحدة ، لم يبق من عمره الطويل إلا الذكريات بعد سطوع نجمه في الهندسة والسياسة » . هنا تقابل بين صورتين : الظاهر ، كما يراه الناس ، والحقيقة ، كما يعيشها صاحبها . ولعل عودة الابن (المهندس) من السعودية إلى مصر ليستقر ويعمل (في نهاية « قشمر ») هي الفكرة التى أوحى له بهذه القصة . ولعله من خلال هذا الابن (المتفوق) الذى تيسرت له ظروف معيشة مواتية ، فاختار (الهندسة) . من هذا المدخل (قرر الفنان الكبير أن يقدم الوجه (المقابل) لحياة ذلك الزميل القديم في قصة « رجل » هنا رجل عاش في كنف أب . . « كان مريبا عظيما يعشق القوة ويحبها ، شحذنى بالرعاية والعناية والشدة الحميدة العاقلة ، علمنى كيف أهتم باللعب كما أهتم بالعمل لانطلق إلى الكمال في جميع الأحوال » . أنظر هنا إلى أهمية الدور التربوى للأب وسط محيط عائلى مستقر ، والتوازن بين اللعب والعمل من خلال تحديد « الهدف » وهو الكمال في جميع الأحوال ، حتى يشتري التفوق من الدراسة إلى مختلف المجالات ، فإذا به يبرع في لعب الكرة - على عكس إسماعيل قدرى الذى فشل في تعلمها - حتى اتبعت له فرصة للالتحاق بأحد النوادي المعروفة ، فإذا بخصم يهجم عليه هجمة غير قانونية ، أحدثت به عاهة في مفصل ساقه اضطرت له لالتقاط عن رياضته المحبوبة .

هاهو (القدر) أو سوء الحظ يتدخل في اللحظة الحاسمة ، حتى خيمت عليه (الكآبة) لفترة طويلة ، ليرز دور (الأب) المرتبى ، الخبير الفاهم ، حين رمقه بازدراء ، وعاتبه بدلا من أن يعزبه ، فإذا به ينهض من عثرته . . « وسرعان ما كرست كل طاقتي للدراسة حتى تخرجت في الهندسة على رأس الناجحين » ، « وكنت من

الرعيل الأول الذى زهد فى الوظيفة الحكومية فقدمت فى امتحان عام لوظيفة خالية فى شركة الكهرباء ونجحت . . وأثبت وجودى بين الخواجات .

هنا يبلور الرجل خبرته فى هذا المجال قائلا : « الحياة لا تخلو أبدا من منغصات ، من حيث تتوقع أو لا تتوقع ، المهم كيف تواجهها ، كيف تستوعبها ، كيف تطويعها تحت جناحك ثم تمضى فى سبيلك » إنه لم يستسلم بعد أن تلقى (الضربة) ، بل بحث عن البديل موظفا قدراته ومستفيدا منها حتى المدى الأخير ! .

وحكى العجوز عن تجربة أخرى تعرض لها وهو شاب ، حين أحب جارة حبا امتد من المراهقة إلى الشباب ، واقتنص فرصة رحلة إلى القناطر الخيرية فوعدها بطلب يدها بعد أن ينهى دراسته ، وإذا بها تختفى من (النافذة) متجنية مجال الرؤية فكاد يفقد صوابه (انظر هنا إلى تركيب علاقة الحب ، وإلى دور النافذة الذى لعبته فى علاقات صبا ومراهقة نجيب محفوظ فى ميدان بيت القاضى أو العباسية ، فالمبدع - فى نهاية الأمر - محكوم بتجاربه وخبراته أساسا) .

لقد تلقى منها رسالة أخبرته فيها أن ابن عمها خطبها ، وسألته المезде ، فانغرز سن الألم المسموم فى أعماقه حتى نهايته ، حتى خيل إليه أنه انتهى تماما . ولكنه رغم اللكمة القاضية ، نهض مترنحا . . « وبإرادة من صلب استخلصت الرغبة فى النجاح والتفوق من حومة المساة . كان نضالا هائلا ، بين الأم والعمل ، وعلى ضوئه تكشف لى جوهر عزيزتى لا يهزم ولا يستسلم . . » .

هنا ، لم يبرز دور (الأب) ثانية . لقد ترسخت (التربية) فى أعماق الفتى فصقلت معدنه ، وأثمرت صلابة ، وقدرة على المقاومة ، ومواجهة التحديات بجسارة ، حتى صمد أمام (الموت) ذاته ، بعد أن تزوج وأنجب خمسة أولاد ، فقد منهم ابنين ، الأول فى وباء الكوليرا والثانى فى حمام السباحة (انظر أصدقاء حياة ناجى مرقص « فى المرايا » ، حين كانوا أربعة ، مات ثلاثة ، وبقي هو) ، فتهدم ببيان زوجته ، وحنقت على صموده ، وإتهمته بأنه غليظ القلب ، وأنه منهك فى عمله للدرجة التى تسببه ما عداه . أما هو فقد بلور خبرته فى هذا السياق : « إننى أعرف الحزن والألم ، ولكنى لا أعاند المقادير » .

لقد صقلت (الترية) معدن الرجل ، فاكسب قوة وصلابة ، لكنه - في ذات الوقت - استوعب ما قربه من تجارب ، بعد أن أصابته إصابة من « قوة خارجية » ، من خصم نتج عنها عاهة ضيعت فرصته في الالتحاق بنادى معروف . إنه القدر ، حيث لا نملك رادا لقضائه . وقد تكون الضربة من حيية ، إلى القلب ، ولا دفع لها أيضاً ، فلا نملك إلا التصرف بمرونة وقوة في مجال (الممكن) . إذن لابد أن نعى - في نهاية الأمر حدود قدراتنا ، حتى لا نعاند (القدر) ! .

وكان منطقياً إزاء شخصية لها هذا الانتباه السياسى المعروف والأمال الوطنية المترامية ، أن يظفر في انتخابات ١٩٥٠ بعضوية مجلس النواب ، وتبأ له كثيرون بالوزارة فإذا بثورة يوليو تقوم فتطيح بآماله .

هنا صفوت راجى يتقدم إسماعيل قدرى بخطوة كبيرة على طريق الإنجاز ، ففي عام ١٩٥٠ ، كان إسماعيل قدرى سيرشح في الدورة القادمة ، فوأة قيام ثورة يولية آماله ، أما صفوت راجى فلم يستسلم بسبب قيام الثورة كما أنه لم ينطح الصخر ، وتذكر انتصاراته السابقة ليستمد منها الشجاعة ، وقرر أن يكرّس حياته للعلم والعمل ؛ ففتح مكتباً هندسياً ونجح نجاحاً كبيراً ، حتى أعجب به بعض رجال الثورة .

ولكن في أعقاب هزيمة يونيه . . . اجتاح الزلزال أبنائى الثلاثة ففقدوا انتباههم وثقتهم في كل شيء ، وهاجروا واحداً في إثر واحد إلى الولايات المتحدة ، ووجدت نفسى غريباً كما كنت في البداية ! .

ولكن لتوقف قليلاً أمام تأثير هزيمة يونيه على جيل الثورة : في « قشمر » هاجر الابن إلى السعودية سعياً وراء المال ، وفي « رجل » هاجر أبناؤه الثلاثة إلى الولايات المتحدة . هنا تقابل بين حركة جيلين . جيل تربى بين أحضان الوفد والوطنية المصرية فاكسب انتباه وارتباطاً بالوطن . وجيل جديد رفعت الثورة إلى أعلى السماوات ولم تبصره بواقعه ، حتى بدت مصر كدولة كبرى ، وليست كدولة نامية ، فإذا ما حاقت بها الهزيمة كانت صفة الانتباه قاسية ، وإذا بالشباب يتجرع حقائق مرّة كثيرة ، فانهارت أحلامه ، فبدأ طريق (الهجرة) مهرباً مناسباً من هول الصدمة ومن حومة الضياع ! .

بطبيعة الحال ، لم يستسلم العجوز للوحدة ، فما زال قادراً على تذوق الأشياء الجميلة . . . كالشئ ، والموسيقى ، والكراسان بالحليب ، و التأمل تأهباً للمغامرة الأخيرة ! « (هنا تبدى أصداء شخصية ناجى مرقص « المريا » حيث كان يستمتع بالعزف على البيانو في أوقات فراغه !) .



هو رفيق المدرسة الثانوية نجيب محفوظ ، ورغم أن مدة الدراسة كانت ثلاث سنوات فقط ، لكنه لم يمح من (ذاكرة) نجيب محفوظ ، بل . . . « يهفو على قلبى أحيانا كذكريات الصبا ، فأدرك أنه يعيش في ركن من نفسى » .

ترجع مكانته المتميزة عند نجيب محفوظ إلى أنه كان أنبغ تلميذ صادفه في حياته ، فإذا ظروف (الفقر) خاصة و (القدر) عامة تترصد خطاه في عام فاصل من حياته فتد آماله ، ليتحول إلى مجرد (موظف) صغير . وهذا ما كتبه عنه في رواية « المريا » (١٩٧٢) لكن الفنان الحق ، لا يستسلم للأحزان والحسرة والأسى ، بل يقاوم ، محاولاً أن يحلل أبعاد تلك المأساة ، واستكشاف نواحي الخلل التي قادت إليها ، لذلك رسم نموذجاً (للمتفوق) ليس في الدراسة فقط بل في مجال السياسة أيضاً حتى بدا . . . « إنه رجل عمل لا قلم ، وأحلامه مقدمات لأفعال ، وهو يتقدم بخطوات حاسمة رغم فقره) وانعدام ذاته من ذوى الجاه والنفوذ » ، لكنه يصطدم بقوة القدر التي تطيح به بعيداً عن أهدافه لسنوات طويلة ، حتى إذا ما تزوج واستقرت حياته عاد إلى تحقيق أحلامه القديمة ، فإذا القدر يقف له بالمرصاد ثانية (رواية « قشمر » - ١٩٨٩) .

كان حتماً بعد أن حلل نجيب محفوظ أبعاد المأساة ، أن يعود إليها مرة أخرى ، ليرسم الوجه (المقابل) ، حين ينشأ شاب في أسرة غنية ، يرعاه أب خير محنك (بالتربية) ، يشحذه بالرعاية ، والعناية والشدة الحميدة العاقلة ، ويعلمه أن يهتم باللعب كما يهتم بالعمل ليتطلع إلى الكمال في جميع الأحوال ، حتى إذا ما صقلت التربية معدنه ، واكتسب خبرات جديدة من الواقع ، كان حتماً أن يعرف حدود قدراته (حتى لا يعاند المقادير) ، لذا كتب له النجاح ، ورغم أن الحياة لا تخلو من منغصات إلا أن المهم أن يعرف كيف يواجهها ، وكيف يستوعبها ، وكيف يطويها تحت جناحه

ثم يمضى فى سبيله (قصة « رجل » - مجموعة « الفجر الكاذب » - ١٩٨٨) .

* * *

ويبقى فى النهاية تفحص أسباب إعجاب نجيب محفوظ بهذا النموذج ، وبقائه حيا فى (ذاكرته) ، فإذا رجعنا إلى حوار نجيب محفوظ الموسع فى مجلة « المصور » (٢١ أكتوبر ١٩٨٨) ، ستطالعنا كلماته :

« عندما كنت صغيرا كنت أحب أن أتقن أى شىء أصنعه من أجل أن أسمع كلمة استحسان ، أذاكر حتى أجده تقديرا من المدرس ، « أشوط » الكرة جيدا لأسمع التصفيق . . إن الاستحسان شىء هام للنفس البشرية » .

وانظر أيضا إلى كلماته : « عندما كنت تلميذا كنت أحب الاجتهاد ، لأن الاجتهاد فى حياتى كطالب فى أسرة فقيرة يجب أن أنجح وبتفوق ، وأحب الرياضة والتفوق فيها . . » .

وانظر إلى كمال عبد الجواد ، الذى تخفى وراءه نجيب محفوظ وهو يصفه بقوله : « والحق إن ولعه بالتفوق الذى اعتاده منذ الصغر هو الذى دفعه إلى الاجتهاد والامتنياز دفعا لا هوادة فيه » .

إذن ، كان (الإتيقان) حلم طفولة نجيب محفوظ حتى يحظى بكلمات استحسان تؤنس (وحدته) وسط عالم الكبار ، فلما نضجت خبراته وعى أن الإتيقان يتحقق بالاجتهاد فاصبح الاجتهاد ضرورة له كفقير ، كى يحقق النجاح و (التفوق) .

وحين قابل زميل المرحلة الثانوية « أنبغ تلميذ » ، « المتفوق » فى جميع المواد فكأنه عثر على ضالته ، على حلم طفولته وصباه القديم ، فإذا به يسأله (فى « المرايا ») :

« - كيف تفوقت فى جميع المواد ؟ . . »

فأجابه بأدبه الجم :

- انتبه فى الفصل وأذاكر من أول يوم فى السنة الدراسية .

وسأله جعفر خليل :

- ألا تذهب إلى السينما كل خميس ؟ . .

- في الأعياد والمواسم .

فسأله عيد منصور :

- ألا تلعب الكرة ؟ ..

- كلا .

فسأله رضا حمادة :

- أليس لك هواية ؟ ..

فأجاب :

- أعزف على البيانو في أوقات الفراغ .

لعل جانباً آخر من إعجاب نجيب محفوظ بهذا الفتي نبع هذا الحوار ، لقد أعطاه الوصفة (السحرية) لتحقيق حلم طفولته وصباه بالتفوق ، لأن الحوار يوضح أهمية (تنظيم الوقت) لتحقيق التفوق .. فهل يرجع اهتمام نجيب محفوظ بهذه العلاقة ، إلى أنه اكتسب من صاحبها (خبرة أساسية) كانت محور بناء لحياته الأدبية فيما بعد ، وهي «تنظيم الوقت» ؟ ١ .

سيبقى السؤال معلقاً ، لأن نجيب محفوظ لم يجب عليه في أي من حواراته أو أعماله الإبداعية ١١ .



الباب الثالث

المرأة في حياته

الفصل الأول :عشق الطفولة

الفصل الثاني : علاقات الصبا

الفصل الثالث : الحب الخالد

الفصل الرابع : امرأة

■ الفصل الأول ■

عشق الطفولة

١. قمر

« يسيرة بشير . . »

« يرجعني الاسم إلى مهد الطفولة ، ميدان بيت القاضي وأشجار البلخ المثقلة بأعشاش العصافير ، ومن نافذة جانبية كنت أطل وأنا طفل على حارة قرمز ، وهي حارة مبلطة تنحدر في هبوط ، وعند منعطف منها يقوم بيت آل بشير . كنت في السابعة أو الثامنة » .

« لعلها كانت في السادسة عشرة أو نحو ذلك ، بتجلى منها وجه كالقمر ، أبيض بهيج مريح مضيء يتوجه شعر فاحم ، وتناديني بصوت ناعم وتمازحني وأنا أنطلع إليها سعدا راضيا وعاشقا إن جاز لا بن سبع أن يعشق » .

(رواية « المرايا »)

« لو رجعت إلى الذاكرة ما وجدت إلا صورة متناثرة لا تعنى شيئا . قمر يطل من نافذة عالية » . « من نافذة صغيرة عالية قبيل القبو يلوح وجه أبيض كالقمر . أراه من موقعي من نافذة بيتنا الصغير المطلّة على الحارة فأهيم رغم طفولتي في سحر جماله ، وقد أسمع صوته الرخيم وهو يبادل أمي التحية إذا خلت الحارة من المارة فلعلّه بث في روحي حبّ الفناء ، فاطمة العمرى ، حلم الطفولة المجهول ، وموعد اللقاء النافذة » .

(قصة « أم أحمد » - مجموعة « صباح الورد »)

إنها « يسرية بشير » كما أوردها نجيب محفوظ أولاً في رواية « المرايا » (١٩٧٢) كملمح من أيام طفولته في حي الجمالية القديم ، ثم وسّع حكايتها مكنياً إياها « فاطمة العمرى في قصة » أم أحمد - مجموعة قصص « صباح الورد » (١٩٨٧) ، تدليلاً على أن (اسمها) في كلتا الحالتين مستعار .

لقد حاول نجيب محفوظ - كما أوضح في العديد من حواراته المنشورة حول رواية « المرايا » - أن يرسم في روايته « سيرة ذاتية موضوعية » و« ترجمة موضوعية روائية » للعصر والزمن الذي عاشه ، من خلال الشخصيات التي عرفها أو التي مرت بحياته لذلك نراه حين استعاد شخصية تلك الفتاة ، لم يقدم سوى مشهد وحيد ، ارتبط في (ذاكراته) بإغرائها له بالذهاب إليها في حين كانت خادمة أسرته تقف له بالمرصاد ، ولا يجديه عندئذ الرفس والبكاء ، حتى استغل فرصة انهيار المطر فوق أديم الحارة وجريانه ليصب في القبو القديم ، حتى ارتفع مستوى الماء ، فغطى وجه الأرض ، وانقلبت الحارة جدولا راكداً يستحيل عبوره إلا بالحبالين أو بالكارو ، فخطرت له فكرة وضعها فوراً موضع التنفيذ ، بعد أن رأى فتاته في النافذة تناديه ، حين حمل طست غسيل نحاس ومفشة ذات يد خشبية طويلة ، ومضى فيه عابراً الماء إليها ، بعيداً عن متناول يد الخادمة فاستقبلته الحبيبة ، وأجلسته قبالتها على كنب تركية . . « وراحت تداهب شعري برقة وأنا غارس عيني في وجهها المضيء » ، ثم قرأت له الطالع . . « ولكنني استغرقت بكل وعي في وجهها الجميل » .

ولكن ، هل حدث هذا المشهد فعلاً في ماضى نجيب محفوظ البعيد ؟ . .
أم هو حلم يقظة تبذى له كذكرى مستعادة من أغوار الذاكرة ارتبط بتلك الفتاة ؟ . .
أم أن هذا المشهد - ذاته - هو مجرد (حلم فنى) ، نتج من احتضان (ذاكرة) نجيب محفوظ الإبداعية ، لوجهها المٌطل من النافذة خلال طفولته ، وحين استعاده بعد تلك السنوات الطويلة (أكثر من خمسين عاماً) كان وجهها قد تداخل وتفاعل ونضج في إطار المشهد / الحلم ؟! . .

ومواء أكان ذلك المشهد ، قد حدث فعلاً في الماضى أو لم يحدث ، فإنه يمكن

تأويله كحلم ، وهو الأقرب إلى منطق عالم نجيب محفوظ الفنى ، كما سنرى . . . ولتبع ترتيب أحداث المشهد / الحلم : فى البداية انهار المطر ليصب فى القبر القديم (إنه يلج عالم اللاشعور فى محاولة لاستكشاف خباياه) . ثم ارتفاع الماء فى الحارة كجدول راكد (رمزاً لكونه أصبح عائقاً يجب اجتيازه للوصول إلى خبايا اللاوعى ، لكن الماء أيضاً رمز للتطهر والأمان المفقود) . عندئذ بدا هو فى نافذته ، وهى فى نافذتها تناديه (إنها رغبته الدفينة فى اكتشاف مجاهل الذات ، والانتفاخ على العالم الخارجى ، عالم النور) . لذا أحضر طست غسيل دائرى ، استخدمه كقارب للعبور (رمزاً للمهد ، السكينة ، الرغبة فى العودة إلى رحم الأم ، إلى الطفولة ، إلى فردوسه المفقود) ، دافعاً إياه للأمام بعضاً مكنسة (رمز الذكورة ، تأكيداً لقوته وقدرته على الدفاع عن ذاته ، أو كأنها عصا سحرية يواجه بها مفاجآت العبور غير المتوقعة) . وحين وصل إلى بيتها حافى القدمين (رمزاً لتعرية الذات ، واستعداداً لدخول أعتاب حرم اللاوعى المقدسة) ، مبلل الثياب (تدليلاً على أن فعل الاغتسال والتطهر فى الماء قد تم) ، فإذا هى تنتظره عند رأس السلم (لقد أصبح الطريق أمامه ممهداً للصعود والارتقاء والتحقق والوصول إلى المرتجى) ، ثم راحت تقرأ له الطالع (تمنحه السر ، تكشف له خبايا نفسه ومكنون ذاته . توضح له تميزه بقدرات رؤيوية تخصه وحده) ، فإذا هو مستغرق بكل وعيه فى وجهها الجميل (إنها لحظة الوجد أو الوصول أو التفانى فى المحبوب ، بعد أن عثر على ضالته ، واستعاد طفولته أو فردوسه المفقود) .

وقد لا يكون نجيب محفوظ على وعى بمدلول هذا المشهد / الحلم . . أم هى حرفية الفنان الحاذق ، الذى يغلف ويبطن أكثر مما يعرى ويفسر ؟! - لأنه فى رواية « المربا » قبل الدخول إلى استعادة هذا المشهد ، حاول أن يتلمس أبعاد عشقه لتلك الفتاة وأن يجد له تفسيراً عقلياً : « والحق أنه لايمكن تفسير تعلقى بها إلا بالعشق فما كانت قريبة ولا من سنى ، ولا أهدتنى يوماً لعبة أو قطعة حلوى ولا تحدثت بجهاها فى وجهى » .

وسواء أكان نجيب محفوظ على بينة من تأويل المشهد / الحلم أو لم يكن ، فهنا تبدى قدرات الفنان الإبداعية فى التعامل مع مفردات طفولته ، التى تتحول عبر سنوات الاحتضان والنضج ، بواسطة عمليات مركبة شديدة التعقيد ، إلى لقطة أو

مشهد رؤى غنى ، شديد الثراء ، شديد التكثيف ، يكون - أو قد يصبح - فى ذات الوقت إرهابا وكشفا ، يفتح الطريق أمام الفنان على مصراعيه - بوعى أو بدون وعى - إلى مخزون عالم الطفولة ، المستكن فى أعماقه كالفردوس المفقود ، ليغترف منه عصيرا إبداعيا مصفى ..



هنا لابد أن يثور سؤال : لماذا ارتبطت هذه الفتاة فى (ذاكرته) بالقمر ١٩ ؟

أول التفسيرات يقدمها علم النفس ، فالطفل يمر بعدد من المراحل خلال رحلته للتعرف على ما حوله ، وإدراك ماهية ما يحيطه إدراكا حيا ، حين يعتمد على حواسه الخمس فى اكتساب خبرات يستند فى تفسيرها إلى (أحاسيسه) كنتيجة لخبرة ماضية مرتبطة بالخبرة الراهنة . ثم يتقدم الطفل خطوة أخرى للتعرف على العالم عبر نظام (الكلام) ، حيث يستطيع التعرف على الأشياء من خلال صفاتها ، وبذلك يسهل عليه مقارنتها ببعضها ووصفها وصفا تفصيليا ، لذلك يكون منطقيا أن يلجأ نجيب محفوظ (طفلا) إلى الطبيعة ليستمد منها تشبيه « وجه أبيض يتوجه شعر فاحم » ، بالقمر المضى ، فى ظلام الليل .

كما يُعتبر (القمر) إحدى صور العشق المتوارثة عبر الأجيال ، لأنه يرمز إلى الجمال ، الحب ، الضياء ، النور ، الفضاء ، الأمل ، الكمال .

لكن لابد أن نعى أيضاً أن تلك الصورة قد استكملت عُذتها وتشكلت من مشهد واقعى ، وانظر لتعبير نجيب محفوظ نفسه « قمرًا يطل » ، « من نافذة صغيرة هالية » ، « أراه من نافذة بيتنا الصغير المطلّة على الحارة » .

انظر إلى استخدام فعل (يطل) . إنه القمر يطلّ من عليائه على البشر . أمّا موقع نجيب محفوظ (طفلا) فى نافذة (مطلّة) على الحارة . أى لا بد أن (يرفع) بصره لأعلى ، إلى (بعيد) ، حتى يرى (قمره) ، ويهيم فى (سحر) جماله .

وهنا - أيضا - لا يجب أن ننسى أن استعادة المشهد من (الذاكرة) تتوارد فيه الصفات والجمال ، وتتدافع ، فى توال متدفق ، هادر ، دون أى علامات ترقيم ، كأنها

متزعة بحالتها الأولية (الخام) ، بنفس الشكل الذى تم تخزينها به فى أيام الطفولة البعيدة . .



ثم يعود نجيب محفوظ مرة أخرى إلى نفس الملمح بعد خمسة عشر عاما ، فى قصة «أم أحمد» - مجموعة «صباح الورد» ، ليعمق المشهد المستعاد فى إطار حركة الحياة ، واكتمال تطور المصائر ، بعد أن اختمر ونضج فى ذاكراته الإبداعية ، بادئا ثانية من أنها كانت «حلم الطفولة المجهول ، وموعد اللقاء النافذة ، وإذا توارت يوما فإنها لبتلقفنى الألم قبل أوانه . وكلما غابت حدجت أُمى بنظرة عتاب كأنها هى المسئولة عن غيابها فتضحك وتحكى لأم أحمد عن العاشق الصغير فتلقف الخبر لتزفه إلى فاطمة ثم ترجع إلينا برسالة سعيدة . . أن أشد حيلى وإنها ستنتظر عريس الهنا مهما يطل الانتظار» .

لكن أباهما (اشترط) لزواجهما : أن تبلغ أولاً الثامنة عشرة ، وكان المؤلف أن تتزوج الفتاة - فى تلك الفترة - إذا ما بلغت السادسة عشرة ، كما (قرر) أن يكون الزوج المنتظر إما وكيل نيابة أو طبيباً . كان أبوها رجلاً قادراً ، ثرياً ، فهو صاحب فابريكة نحاس ومحل لبيعه بالصالحية إضافة إلى سراياه بدرب قرمز . عندها أحسن نجيب محفوظ أن محبوبته : « ستمضى ذات يوم إلى بعيد مثل أخواتى وإخوتى ولن يبقى منها فى أحلامي إلا الشذا حتى الطفولة المبكرة لم تخل من حشرات على أشياء جميلة ومحبوبة يترصدها الضباع والفناء » .

هنا يضع الفنان نجيب محفوظ رؤيته للحياة ، التى تعتمد (الفقد) محوراً لدوراتها ، وهو - فى ذات الوقت - يمهد أيضاً لما سبلى من أحداث . .

وبعد ذلك بعدة سنوات انتقلت أسرة نجيب محفوظ إلى العباسية . وتُمر السنين ، ويكبر نجيب محفوظ ، فتوارى صور الطفولة فى أعماق (الذاكرة) . لكنه خلال نزهته المعتادة فى أوائل الصيف ، فى العباسية الشرقية ، وهو يقلب النظر فى القصور الشائخة والحدايق الغناء ، عندئذ تعاوده - أحياناً - ذكرى : « الجيرة القديمة الحميمة الصداقة التى تلاشت فى الفضاء » ، فيتذكر : « الوجوه المليحة التى علّمت القلب الحب قبل الأوان » .

وتردّه أخبار أن المحبوبة تزوجت من وكيل نيابة ، كما شاء لها أبوها . . « ووجدتني قد نسيت صورتها تماما فلم يبق في خيالي إلا تفحة من جمال مجرد وصدى صوت رخيم شديد التأبى والتمنع على الذاكرة » .

لقد كبر الطفل نجيب محفوظ وصار شابًا ناضجًا : « لأن القدرة على تجريد الصفات من موضوعاتها هي ما يميز إدراك الراشد عن إدراك الطفل » (بافلوف وفرويد ، ص ١٢١ - ح ٢ ترجمة شوقي جلال)

لكن القدر كان له كلمة أخرى في مواجهة الأب ، فإذا (اختياره) يكون سببا في مأساة الحبيبة ، فقد سافر زوجها بعد أن صار مستشارا . . « في رحلة قصيرة إلى سويسرا ، وهناك قابل أحد رفاق صباه وكان هاربا من عبد الناصر ولايكف عن مهاجمته ، ولما رجع المستشار إلى مصر دُهِى لسؤاله عن مقابلاته لصديقه القديم ، ثم لم يظهر له أثر بعد ذلك » .

وتكتمل الدورة بموتها ، حين قرأ نجيب محفوظ نعيها في الأهرام . . « ولم يمض الخبر بلا حزن ولكنه حزن من نوع خاص ، لا كالأحزان على الأقارب أو المعارف أو الأصدقاء . إنه حزن يتأدى كأنه شعيرة تُتلى في محراب الوجود على لا شيء أو على كل شيء . ثم قرأت عنها رثاء جيلا في إحدى المجلات النسائية بوصفها من رائدات رعاية الطفولة ، تلك الرعاية التي بدأتها بتلقائية معى فحفرت أثرها الطيب في أعماق قلبى » .



هنا كشف لجانب من حركة الخيال المبدع للفنان . .

في رواية « المرايا » (١٩٧٢) من نجيب محفوظ (عالم طفولته) في إطار إطلالة واسعة موضوعية على من عايشهم حتى بلوغه الستين . لكن هذه اللمسة السحرية كانت كافية لتصبح إرهابا أو إشارة تنبيه إلى مخزون طفولته الكامن في أعماقه يتظر لحظة التفتح والبوح .

وتمضى السنوات ، ويمرّ أكثر من خمسة عشر عامًا على نجيب محفوظ ، اكتسب خلالها مزيدًا من الخبرات الحياتية ، لكن عالم الطفولة القديم أو الكثر الدفين ، يكون

قد فعل فعله في مخيلة نجيب محفوظ الإبداعية خلال تلك الفترة ، بعد أن اكتمل
تشكل أركانه ونضجت ملامحه . فإذا به عام ١٩٨٧ ، بعد أن انتعشت ذاكرته بفيض
المخزون المتدفق ، يعود إلى نفس ملمح فتاته « القمر » القديم ، لكن الفنان العظيم لا
يكرر نفسه أبدا ، حين يستعيد هذا الملمح - الجزء ، بعد أن التحم في إطار حياة
كاملة ، يجوس بنا نجيب محفوظ خلالها ، كاشفاً الأستار عن جوانب جديدة مدهشة ،
و مثبتاً دعائم حقائق قديمة - نسيناها في زحمة الحياة - فإذا أشياء الطفولة الجميلة تتبدد
على مذبح الواقع ، وإذا السعادة مراوغة ، فقد يخطط لها الإنسان بأفقه (المحدود) ،
فيؤوب بخمران مبین ، وإذا دورة الحياة تنقضي لا نملك لها دفعا ، ويبقى شذا
الذكریات الحميمة يدقء القلوب الكليمة ولو إلى حين . .



٢. ثلاثة أقمار

«أنا ماضٍ نحو القبو يفتح باب بيت القيرواني تاجر الدقيق وتبرز منه بناته الثلاث
منبع نور يتدفق فيبهر القلب والبصر . بيضاوات ملونات الشعر والأعين سافرات
الوجوه ينفثن ملاحه نقية . الدوكار يتظرهن فأسمر أنا بين الدوكار وبينهن . ويرين
ذهولي»

(الحكاية رقم (٤) - رواية «حكايات حارتنا»)

« أقمارا ثلاثة يخرجن من تحت القبو صفًا واحدًا » ، « يومضن في غياهب الماضي
الجميل » . « ورؤيتي لآل سعادة تتم عادةً عندما يخرجن من جوف القبو في طريقهن إلى
ميدان بيت القاضي ، تنطق وجوههن المشقة بأصوهن الشركسية » .

« هؤلاء بنات سعادة الثلاث ، بين الطفولة والصبا ، جميلات فائنات ساحرات يسرن
صفًا إلى الميدان لشراء الشيكولاته والدندورمة » .

(قصة « أم أحمد » - مجموعة قصص « صباح الورد »)



إنهن بنات « آل القيرواني » كما أوردهن نجيب محفوظ أولاً في رواية « حكايات
حارتنا » (١٩٧٥) كملمح من أيام طفولته في حي الجمالية القديم ، ثم وسّع حكايتهن
مكثياً إياهن بنات « آل سعادة » في قصة « أم أحمد » - مجموعة « صباح الورد »
(١٩٨٧)، تدليلاً على أن (اسم العائلة) في المرتين مستعار .

كيف استعاد نجيب محفوظ هذا الأثر من طفولته ؟ .

كيف كانت معالجته الفنية في هذين العملين ؟ . .

وما تعليل هذا التمايز ؟ ! . .



انظر أولاً لمفتاح الحكاية رقم (٤) من « حكايات حارتنا » : « وأنا ماضٍ نحو القبو . . إنها بداية موحية ، فهي من زاوية تعكس توجهًا متعمدًا ، قد يكون واقعياً ، لكنه يحتمل أيضاً تفسيراً رمزياً ، غوصاً مؤكداً إلى الماضي ، إلى عالمه الأثير المستكن في أعماق الذاكرة ، يدفعه أو يشده حنين غامض لاستجلاب ومضة أو مشهد من أيام طفولته المولّية . .

وهذا المفتاح من ناحية أخرى ، يكشف وكأن الراوى (نجيب محفوظ) قد استكمل عُدته للقيام بهذه الرحلة ، تهيأ لها ، وقام بكل الاستعدادات اللازمة . . عندئذ ينفك السحر المرصود ، وتبدى السر ، ويتجلى مشهد مزدهر الألوان ، يحكمه البناء بالتقابل بين المقدرات : هو ماضٍ نحو القبو (المظلم ، الخالك السواد ، المليء بالأشباح) ، لينفتح باب بيت تاجر الدقيق (الأبيض ، النقى ، الذى يمنح القوة والاكتفاء لأجسام البشر) ، وتبرز منه بناته الثلاث بيضاوات ، ومنبع نور (يستحوذ على روح من يواجهه فوراً ، فيهر قلب الطفل الطرى أولاً ، ثم يغشى بصره) وهن ملونات الشعر والأعين ، سافرات الوجوه (الأبيض أمام الأسود ، لكن سرعان ما تتناثر ألوان أخرى ، لتكتمل أبعاد اللوحة / المشهد) إنهن ينفثن ملاحظة نقية (هنا يتفشى تأثير الإناث البيض والألوان إلى الجوار . . صفاء ، إشراقاً ، سطوعاً ، جمالاً أسراً) عندها يعترض الطفل طريقهن ، فيضحكن مندهشات من وجومه ، فلا تسعفه (ذاكرته) إلا بكلمات شيخ التكية عندما أوضح له حُبّه للتوت علّ ذلك يشفع له ، فيمنحه بعضاً من فتعقب البنات : « إنه دوريش » ، « إنه مجنون » فيلقى نفسه في ظلمة القبو (انظر لفعل « يلقى » كمن يتحرر أو يهرب من مواجهة النور بالتلفع بالظلام) ثم يمضى ثانية (إنه لا يحكث في ظلام القبو / الموت / العدم ، بل هو طريق إجبارى

لابد من اجتيازه) مشدوداً نحو نور الساحة (الضياء ، الاتساع ، الأمان) أمام التكية (رمز الإيمان ، الملاذ والملجأ) .

والآن ، لتتبع الرحلة موجزين رموزها : هو (طفل) ماضٍ نحو القبو (الظلام ، المجهول وربما الموت) يفتح باب (فعل مفاجيء ، غير متوقع) يقابل البنات (النور، الجمال ، الإغراء) يتسمر (يخضع للتأثير عاجزاً ، غير قادر على الحركة) ، تسعفه الذاكرة بكلمات الشيخ (يستعين بها على المواجهة) يضحكن ، فيهرول عبر ظلام القبو (الانزواء ، الندم ، الأسى ، الحزن على مافات) إلى نور الساحة أمام التكية (الإيمان والمستقر) .

أو ليس هذا هو الإنسان (المحدود القدرات) خلال رحلة الحياة القصيرة نحو الموت ، عندما يتوقف فجأة أمام مغريات تعترض طريقه . قد ينقذه تشبهه بالإيمان لحظة الخطر، لبيتس للحظة يعضه خلالها ندم على ما ضاع منه ، لكن سرعان ما تنقشع هذه الغيوم ، وصولاً إلى نور الإيمان ، حيث الخلاص الحقيقي ؟ !

في عام ١٩٨٧ ، أى بعد مرور أكثر من عشرة سنوات ، حين بلغ نجيب محفوظ الخامسة والسبعين (أمد الله في عمره) عاد إلى الكتابة عن نفس الملمح من طفولته مرة أخرى ، فكتب قصة « أم أحمد - مجموعة « صباح الورد » . .

هل كان يحفره خوفٌ طاغٍ من أن تنفلت فترة طفولته تلك بانقضاء العمر قبل أن يستطيع استردادها ، وأن يجيها ثانية ؟ ! . .

هل هو الحنين إلى أيام البكارة الأولى ، والخيال المتدفق بحرية ، والمشاعر المبهمة الوليدة لطفل وحيد ؟ ! . .

أم هي رغبة جياشة في البحث عن مأوى ، يرتاح بين ظلاله الوارفة ، بعد أن ناء كاهله بحمل أعباء عمر كامل ؟ ! . .

لقد وجد نجيب محفوظ في ذاكرته « اقهاراً ثلاثة يخرجن من تحت القبو صفّاً واحداً »

ولتذكر هنا كلمات باشلار : « في تأملات الطفل ، الصورة تسبق كل شيء والتجارب لا تأتي إلا بعدا . إنها تسير باتجاه معاكس لكل تأملات الانطلاق . الطفل يرى بعين كبيرة ، بعين جميلة . والتأملات نحو الطفولة تعيدنا إلى جمال الصور الأولى »
(شاعرية أحلام اليقظة : غاستون باشلار ، ترجمة جورج سعد - ص ٨٩)
إذن ينسلخ الفنان عن حاضره ، يسقط عمراً كاملاً من حسابه ، ينزلق إلى طفولته ، يغوص وراء تلك الصور منقياً ، ولكن أيضاً - في ذات الوقت - مؤمناً بأن :
« الزمن القديم في الحى العتيق ، لم يتيق من حياته الحافلة إلا ما تعيه الطفولة... »

لقد رجع الفنان إلى هناك ، وبدأت الأبواب الموصدة تفتح ، وإذا به أمام : « مناظر غائمة وأصوات غائبة وحنين دائم وقلب يخفق كلما حركته روائح الذكريات » .
لقد بدأ الفنان الرحلة / الحلم ، مسلحاً بقوة الخيال ، مدفوعاً بجبروت الحب ، متجولاً ثانية في عالم طفولته المستكن هناك في أعماق الذاكرة ، بعد أن دبّت فيه الحياة ، وإذا صورة (الأقمار الثلاثة) بكل ما هي مثقلة به من رموز متقابلة ، تنحل ، تتفكك داخل إطار أكثر اتساعاً ، لحياة كلية ، تتبع مصائر تشعب في اتجاهات متفرقة ، فلم بأطرافها المتباعدة وتستجمع الرؤى الكامنة وراءها في وحدة واحدة .



كانت أسرته تمثل البطالة المستغنية عن العمل ، المعتمدة في معيشتها على الأوقاف ، يقضى الأب وقته بين الكلوب المصرى والمقاهى الكبرى في وسط المدينة . ويقنع أخوه من فاضل بالحصول على الابتدائية . أما ربة الأسرة فلا ترى أبداً راكبة أو راجلة ، دائماً معتصمة بالقلعة وراء الجدران والستائر ، فالزوج « طول عمره عينه زائغة ! » ، لكنها انتفمت منه فخانة كما خانها .

وعندما مات أبوه من قىام ثورة ١٩١٩ « لم يُشيع جنازته سوى نفر من ذوى القربى وشيخ الحارة ، ولم يشترك رجل أو امرأة من حارتنا في المراء . ولمحت

البنات وهن يكنن فى نافذة قفاضت دموعى . وسرت وراء المشيعين القلائل حتى جامع الحسين .

هنا طفل (مبهور بجمال البنات) فى مواجهة موقف جماعى ، حين امتنع أهل الحارة عن المشاركة فى جنازة رجل زاغت عيناه طوال حياته على النساء ، رفضاً لتصرفه ، وإنزالاً لعقاب جماعى به لخروجه على تقاليد الحارة وسلوك الجيرة . وإذا البنات يكنن فى نافذة بيتهن ، والجمع معتصم بموقفه (العقلانى) ، لكن الطفل يتأثر (وجدانياً) فيمضى وراء المشيعين مشاركا .

بطبيعة الحال ، لم يفسر نجيب محفوظ فى قصته هذا الموقف ، بل اكتفى بأن يعرض المقدمات والنتائج بإيجاز بليغ ، تاركاً للقارىء حرية الربط والاستنتاج والتفسير .

ملمح آخر بدا ضمن سياق استعادة إطار حياة تلك الأسرة المتشابك ، فلم يكن أحد من أهل الحارة يشك فى ثرائهم ، ولكن ظهرت درجة هذا الثراء بعد موت الأب ، واحتلال فاضل مكانه ، حين اشترى بيتا فوق المتوسط بغمرة ، ولم يشيد قلعة بالعباسية الشرقية . ورغم هذا تزوج فاضل كريمة وكيل الداخلية ، الذى . . . « رضى به زوجاً لابته بعد أن رفض يد طبيب فلاح ! » ، كما تزوجت كبرى البنات من صائغ غنى بالصاغة ، والوسطى من وكيل نيابة ، أما الصغرى وهى أحبهن إلى قلبى فقد عشقت موظفاً بسيطاً ، وأصررت على الزواج منه رغم معارضة الأم والأخ وبقيبة الأسرة .

هنا تنويعات للتقاليد والمظاهر والأفكار التى كانت سائدة فى نهاية العشرينات من هذا القرن ، حين كان الثراء ينعكس فى بناء سرايات خاصة فى حى مختار هو العباسية الشرقية ، وبدأت أيضاً فى التمسك بالمظاهر حين فضل وكيل الداخلية أن يزوج ابته من رجل ذى أصل شركسى وثراء محدود ، على الوظيفة المتميزة لطبيب من صلب فلاحين . وانعكس الوضع بالنسبة للبنات ، فلعل عدم مبالتهن بالتقاليد فى ذهابهن ومجيئهن بلا مرافق كانت سبباً فى إبراز جمالهن الذى اشترى بالمركز والمال . ولكن قد تحبب هذه اللامبالاة أيضاً إرادة قوية واختياراً حاسماً ، حين تمسكت صفراهن بالزواج من موظف صغير عشقته ، وتحدثت من أجله إجماع أسرته حتى تحقق لها ما أرادت .

هنا موقف (إرادى) يحكمه القلب فى مواجهة إجماع يتأثر بالمظاهر يتوازى مع موقف الطفل السابق فى مواجهة إجماع أهل الحارة .

ومنذ هذه اللحظة ستركز أضواء السرد القصصى على صغراهن . . . وهى أحبهن إلى قلبى . . . فهل كان الراوى (نجيب محفوظ) يحبها فعلا ؟ أم أن الحب هنا مبرر فنى لتبع مصير هذه الأسرة ، لأنه سبق أن تناول البنات الثلاث فى مشهد إجمالى دون تخصيص فى الحكاية رقم (٤) من حكايات حارتنا ؟ . . .

المهم أن الصغرى بعد زواجها . . . أقامت معه فى بين الجنائين لا يفصلها عن بيتنا إلا خطوات ، وهى الوحيدة التى كنت أصادفها فى الطريق فتبادل نظرة عابرة ولكن مترعة بذكرىات الماضى .

انظر كيف يلعب القدر لعبته فإذا لم يكن ممكنا أن يرتبطا معا ، لصغرى منه ، فقد شاء أن يجمع بينهما فى حى سكنى واحد ، فإذا هو قد شبت عن الطوق ونضج متجاوزاً (انبهار) الطفولة ، التى لم يبق منها إلا نظرة عابرة تستدعى ذكرىات غالية . .

وانظر ثانية إلى بكرها الصبى الجميل الوديع ، الذى كان . . . يلعب فى الشارع أو فى الحدائق التى تكتنف الحى ، وتسكب عليه هيرها ، إذا به لما قامت ثورة يوليو . من الضباط الأحرار ؛ بل والمقرين . واختير لوظيفة فى المخابرات وسرعان ما جرى اسمه على كل لسان ، واكتسب سمعة مخيفة لا تكون إلا لشيطان ! .

ولتتعجب من تحولات الزمن ، لأن نفس أسرة (الأقمار الثلاثة) هى الأسرة الوحيدة فى الحارة التى شاهدت ثورة ١٩١٩ دون أن تشارك فيها ، ثم إذا بثورة ١٩٥٢ تحمل فى طياتها الثروة ، بعد أن حلّ الوقف وأصبحوا أحرارا فى التصرف فى أملاكهم ، وإذا بأحد فروعها عضواً مقرباً من الضباط الأحرار ، وبذلك اندمجت الأسرة . . . أخيراً فى الوطنية المصرية بل الوطنية الثورية . . . !



نحن هنا أمام عمليتين فئيتين ، استمدهما نجيب محفوظ من أصل واحد عايشه فى

طفولته . في الحكاية رقم (٤) من « حكايات حارتنا » (١٩٧٥) شيد نجيب محفوظ بناءً فنياً مركباً ، موحياً ، مستمداً من عبق طفولته ، في مشهد رمزي جامع شديد الإحكام ، يضيء رؤية باهرة عن الطفولة والحياة أمام القارئ ، وإن بدت كأنها . . « بدور حب لم يتع لها أن تنمو لأنها غرست قبل أوانها » .

أما في قصة « أم أحمد » - مجموعة « صباح الورد » (١٩٨٧) فقد حاول نجيب محفوظ أن يستعيد طفولته ثانية ، أن يعيشها ، يشده إليها حنين جارف ، كأنه يسعى إلى الفردوس المفقود فكان لابد من إعادة إحياء هذا الماضي ، بعد أن نضج في ذاكرته الإبداعية ، حتى يستطيع - بعد أن يفهمه - أن يتجاوزه ، وأن ينفلت من أساره بعد ذلك .

لكن نجيب محفوظ لم يكف باستعادة تلك المرحلة من طفولته ، بل استطرد معها مجتمعا أجزاءها ، منعكساً على مرآة ذاته ، كاشفاً السر - أخيراً - عن جزء عزيز من مكنون نفسه ، مضمخاً إياه ببعض من خلاصة تجاربه ورحيق حياته ورؤيته لحركة الحياة والكون من حوله .



■ الفصل الثاني ■

علاقات الصبا

١. جميلة

« القطة الأم مستلقية على جنبها مترعة الحلقات والصفار تتلاطم منمضات الأهين في حضنها . أنا وحيد في الحجرة أتابع المنظر باهتمام . وفجأ تتردد أنفاس على كتب منى فالتفت فأرى سنية . هي بكريه جارنا ساعى البريد ، دقيقة القسيات خفيفة الروح مليئة بالحوية والمرح ، تكبرنى ببضعة أعوام » . « وتقترب لترى بوضوح أكثر فأحس مس صدرها لكتفى . تواصل الحديث فلا اتابعها ، إني اضطرر فيلتهم اللهب حياتى . أستدير فأضمها إلى صدرى ، وبدأ علاقة وطيدة مفعمة من ناحيتى بالسرور والندم »

(الحكاية رقم (٢٤) «من رواية حكايات حارتنا »)

« لم ير ميدان بيت القاضى وأشجاره المثقلة بأزهار « ذقن الباشا » أجمل منها إلا تكن مطرية ابنة عمها عمرو » . « كانت تكبر قاسما بسنوات ولما ناهزت الحلم لم تجد سواه لعبة لقلبها المتحفز . وكلما خلت به لاحت له توقظه من براءته فتبعها في حيرة ثملة ممتعة » . « ولما قارب الثالثة عشرة سقط في الشهد قبل الأوان ، وتفتح على راحتها الناعمة المخضبة بالحناء كالوردة وأخلد بكل عذوبة إلى نفثات صدرها المضطرم » .

(جميلة سرور عزيز - رواية « حديث الصباح والمساء »)



هى سنية بكريه ساعى البريد ، كما أوردها نجيب محفوظ أولا فى روايه « حكايات حارتنا » (١٩٧٥) كملمح من أيام طفولته وهو يجتاز أعتاب الثانية عشرة من عمره فى حى الجمالية القديم ، ثم وسع حكايتها مكتبا إياها جميله سرور عزيز فى روايه « حديث الصباح والمساء » (١٩٨٧) ، تدليلا على أن الاسم فى المرتين مستعار .

ولكن هل سنيه هى جميله فعلا ؟ ! . . .

كيف كانت معالجه نجيب محفوظ لتلك الشخصيه فى العملين السابقين ؟ ! . . . وماهى أهم الملامح التى ظهرت أثناء المعالجه ؟ !



هناك العديد من الصفات المشتركة بين سنيه وجميله ، تواردت فى الروايتين ، تؤكد أنها مأخوذتان عن أصل واحد .

أولى هذه الصفات هى جمالها وجارتها : فى « حكايات حارتنا » و نجدها . . . « جميله وجسوره بقدر ما هى حريصه » . وفى « حديث الصباح والمساء » : « لم ير ميدان بيت القاضى وأشجاره الثقله بأزهار ذقن الباشا أجمل منها ، و الحق أن جميله أخافت الأسر المحافظه من الجيران فأحجمت عنها رغم جمالها » .

ثانى هذه الصفات أنها كانت تكبره بيضعة أعوام كما ورد فى كلا النصين .

وهناك عدد آخر من الصفات ، ظهر بعد زواجها وانتهاء علاقتها منها : هى سيدة شديده الوقار : « رزينة ، جليله ، راسخه الاستقرار والوقار » (حكايات حارتنا) .

« حل بها وقار ، لا يحل إلا مع الزمان الطويل » (حديث الصباح والمساء)

- مفرطه البدانة : « أجدها مفرطه البدانة » . (حكايات حارتنا) .

« كأنها قد تمادت فى بدانتها إلى درجة يضرب بها المثل » (حديث الصباح والمساء)

- رمز للامومه : « لا بسمة ذات معنى ولا إشارة إلى عهد انقضى . سيدة مصونة

ورمز حى للامومه ، ومثال للتدين والورع » (حكايات حارتنا) .

« كان الزواج قد حولها من الرعونة إلى رزانة عجيبة وجدلية فائقة وأمومة سخية » .
(« حديث الصباح والمساء »)



والآن لننظر إلى مفتاح الحكاية رقم (٢٤) من « حكايات حارتنا » : « القطة الأم مستلقية على جنبها مترعة الحلقات والصغار تتلاطم مغمضات الأعين في حضنها . أنا وحيد في الحجرة اتابع المنظر باهتمام » .

هنا ولوج مباشر إلى (جوهر) الموضوع من خلال مشهد موج ، مؤثر ، مركز ، شديد التكثيف ، كل كلمة فيه بقدر . الطبيعة في لحظة فعل (التأسل) . صبي يافع يتابع وحيدا ، حتى ينسال فكره بحرية متمعنا حركة الطبيعة ، لتداعى المعانى في تفكيره . وإذا الفتاة تقترب مبدية إعجابها بالقطة / المدخل إلى عالمها المشترك (لاحظ أن المؤثر جاء من عالم الحيوان ، حيث تتحرك الغرائز بحرية لا ضابط لها) ، حتى إذا ما وافقها على إعجابها ، كان ذلك إيذانا بتوحيدهما ، تبدأ علاقة وطيدة تستمر لمدة ستين عندما تتزوج سنية ، فلا يقابلها إلا بعد مضي سنوات وسنوات ، فإذا هي قد تحولت تحولا كاملا ، فإذا هي . . « سيدة مصونة ورمز حى للامومة ، ومثال للتدين والورع » .

وكما افتتح نجيب محفوظ حكايته بلقطة موجية مؤثرة ، اختتمها بصورة باقية حفظها الخيال في أعماق الذاكرة ضمن أيامه السعيدة المولّية ، فإذا هي . . « فراشة متعددة الألوان ، تفاحة طازجة ، وردة فواحة ، ينبوع مندفق » .

إذن ، تعتبر هذه الحكاية من « حكايات حارتنا » ومضة سريعة ، مركزة ، مغلفة لشخصية جميلة مؤثرة عاشت في ذاكرة نجيب محفوظ . لكن أبعادها لا تتفسر أو تفتح إلا على ضوء فصلين كتبهما نجيب محفوظ في رواية « حديث الصباح والمساء » عام ١٩٨٧ .



في رواية « حديث الصباح والمساء » التى شاد فيها نجيب محفوظ بناءً موازيا لحياة

أفراد شجرة عائلته ، متواريا وراء اسم « قاسم » ، استعداد شخصية ذات الفتاة باسم آخر هو « جميلة سرور عزيز » . لكنه لم يكرر نفسه ، بل وسّع من زاوية الرؤية منطلقا من جمالها الأسر ، مؤصّلا جذور بعض ملامحها وصفاتها : « وهبتها أمها بشرتها العاجية وعينها الخضراوين النجلاوين ، وفاقت أمها بفمها الأنيق كالقرنفلة وجسمها المدمج . وبخلاف أمها كانت تموج بالحياة والخفة واستمدت من غرائز أبيها لفحات حارة خضبت وجنتها بهاء الورد الأحمر . وسبقت زمنها لا بالتعليم فلم يجاوز نصيها منه نحو الأمية كأختها وبنات صمها ، ولكنه بالتححرر التلقائي المنطلق بقوة نضج مبكر ونداء الأشواق المبهمة » .

هنا أضاء نجيب محفوظ تأثير الوراثة في تكوين الشخصية ، لكن هناك أيضا صفات خاصة يولد بها الفرد ، وقد سبق بها عصره لجسارتها وتحررها التلقائي الذي يرجع إلى نضج مبكر ، وتفتح غرائزها الحار، كما الطبيعة في اندفاعها أوالحيوان في سيطرة الغرائز عليه واستحوادها على إرادته لإشباعها ، حتى أن أخاها الأصغر قد يضطر أن يتصدى لها ليكبح جماح اندفاعاتها ، بل إن الأسر المحافظة من الجيران خافتها فأحجمت عنها ، حتى تقدم لها ضابط شرطة جديد بقسم الجمالية خطبها دون تردد بعد أن وجد سمعتها طيبة .



والآن ، فلنحاول استقراء أهم ملامح هذه العلاقة على ضوء عملين أدبيين ، أحدهما يوجز ويكثف ، والآخر يفسر ويوضح .

نحن نعرف أنه لا بد لأي علاقة من وجود طرفين على الأقل . هنا الفتاة هي الطرف الأقوى / الفاعل ، والشواهد في العملين كثيرة أورد نجيب محفوظ بعضها على استحياء في « حكايات حارتنا » مثل : « التي إشارتها ، أهرع إلى ظلها ، أما هي فلا تعرف النجوى ولا الحلم ولا البراءة » ، « تجلبني إلى حديقة الورد ثم تضرم فيها نيران الجحيم . لا نعرف السكينة ولا الأمان » .

لكنه في « حديث الصباح والمساء » أشار إلى دورها بشكل مباشر . « كانت تكبر

قاسما بسنوات ولما ناهزت الحلم لم تجد سواه لعبة لقلبها المتحضر . وكلما خَلَّت به لاعبه لتوقظه من براءته فتبعها في حيرة ثملة .

ولتوقف عند كلمتي « لعبة » ، « ولاعبته » . لقد جعلت منه (لعبة) لإشباع طموها هاتكة أستار (براءته) ، ويبدو أنها مارست دورها معه قبل سن البلوغ ، أى وهو في الثانية عشرة من عمره ، وإن وصل إليه أثناء علاقتها معا . وانظر لتعبيره الموحى . .

« ولما قارب الثالثة عشر سقط في الشهد قبل الأوان » .

ملمح آخر لهذه العلاقة هو استمرارها رغم أعين الرقباء ، كشيء محرم ترفضه تقاليد المجتمعات الشرقية ويمنعه الدين . بدا ذلك في « حكايات حارتنا » ، في إشارة سريعة . . « نقطف الثمار في رعدة من الرقباء » ، لكن هؤلاء الرقباء وضحت صورتهم في « حديث الصباح والمساء » : تارة مثل أخوها في الفصل الخاص بها . . « وبسبب من تلك الرهونة تصدى لها أخوها أمير » ، وتارة أخرى في الفصل الخاص بقاسم . . « وأعين الرقباء أيضا مثل بهيجة - أختها - وأمه » .

ملمح ثالث ظلل هذه العلاقة لقاسم ، فجعلها تتأرجح بين العذوبة والسرور والعذاب والندم ، بدا ذلك موجزا في « حكايات حارتنا » : « وتبدأ علاقة وطيدة مفعمة من ناحيتي بالسرور والندم » ، « وتقلب الحياة أغنية مجنونة تتفجر بالعذوبة والعذاب » .

أما العذاب فقد فتره قاسم بشكل مباشر في الفصل الخاص به من « حديث الصباح والمساء » حين أوضح : « يريد الآن أن ينعم بحضن جميلة كالحمامة والدم ينبثق من وجنتيها من شدة الحياء ، وقطبت راضية - أمه - ثم أشارت بيدها المعروقة إلى السماء الحانية فوق السطح وقالت : من هناك يرى الله كل شيء » .



أمام النقطة الفاصلة لهذه العلاقة ، وهى زواج الفتاة ، لابد أن يتبادر إلى الذهن سؤال : كيف رأى نجيب محفوظ فاتته عندئذ ؟ أو ماهو التحول الذى طرأ عليها؟ . .

لقد تحولت الفتاة الجميلة التي رآها الراوى (نجيب محفوظ) « تفاحة طازجة » - في « حكايات حارتنا » - إلى . . « وما يدري قاسم إلا وفاته ومعلمته تتغير بين يوم وليلة كتفاحة أصابها العطب » (في « حديث الصباح والمساء »)

إنه تغير منطقى من تفاحة (رمز الإغراء القديم المتوارث) طازجة (تتدفق بكل بكارة وتألق الطبيعة وجوحها) إلى إشباع رغباتها - التي يحرمها المجتمع - سرًا وفي الخفاء ، فتشعر بقوتها ، وتفرداها وتزداد ألقا وتفتحها ، حتى إذا ما جاءها الزوج المنتظر الذى سيتولى إشباع نهمها فى العلن وفق الشروط والمواصفات التى ارتضاها المجتمع . عندئذ تقبل بالوضع الجديد راضيةً مختارة . لىتهى تميزها وتتحول إلى واحدة من عشرات الفتيات، اللاتى يجدن فى الزواج غاية مرادهن ومآلهن ، فتضطر إلى كبح اندفاعاتها ، فيصيحها (العطب) .

وكان على نجيب محفوظ أن يتوقف عند النقطة الفاصلة لانتهاى العلاقة بزواج الفتاة، لكنه لم يتوقف بل استطرد متبعا حياتها بعده ، فإذا هى لا تنجب سنوات طويلة حتى أن أباه مات دون أن يرى أحفاده منها . كما أن زوجها ، وكان وفديا وافتضحت عواطفه فى قيامه بواجبه فى عهد الديكتاتوريات ، حتى انتهى الأمر بفصله ، فرحل بأسرته إلى أسوان حيث ورث عشرين فدانا ، وانضم إلى الوفد جهرا ، وانتُخب عضواً بمجلس النواب ، وتبّت عضواً بالهيئة الوفدية ، وأنجبت جميلة بعد العلاج من عقمها خمسة ذكور عاش منهم سرور ومحمد وتفرغ الأب للزراعة بعد قيام ثورة يوليو ، أما الابنان فقد صارا ضابطين طيارين .

لكن خاتمة تلك الأسرة كانت رهية ، حين قُتل الزوج فى حادث تصادم عام ١٩٥٥ ، وأصيبت طائرة سرور عام ١٩٥٦ ولقى مصرعه ، ولحق به أخوه محمد فى حرب ١٩٦٧ ، وأنقذت جميلة من الوحدة والأحزان عام ١٩٧٠ فهانت بسرطان المعدة ، وهى فى الثالثة والستين من عمرها .

هنا خطأ فى الحساب ورد خلال عدة أسطر بالنسبة لعمر جميلة فحين قُتل الزوج فى عام ١٩٥٥ ، « كان فى الخامسة والخمسين وجميلة فى الخمسين » ، وهذا يعنى أنها من

مواليد ١٩٠٥ . وحين ماتت عام ١٩٧٠ « وهى فى الثالثة والستين من عمرها » ، أى أنها من مواليد ١٩٠٧ وأحد هذين التاريخين صحيح والأرجح أنه ١٩٠٧ ، لأن جميلة كانت تكبر قاسما بسنوات ، ولها أخت ثانية من عمره .

أمام هذه الخاتمة الرهيبة لأسرة جميلة حيث . . « انقضت هذه الأسرة لا رادّ له » ، « وكانت حين وفاتها وكأنها مقطوعة من شجرة لا أهل لها » . لابد أن نتوقف مرة أخرى ، لنكشف أنها لا تكتمل إلّا إذا عدنا إلى بداية الحكاية رقم (٢٤) من « حكايات حارتنا » : « والقطعة الأم مستلقية على جنبها مترعة الحلقات والصغار تتلاطم مغمضات الأعين فى حضنها » .

مشهد البداية محدد المعنى . إنه لم يبرز الصراع العنيف الضارى السابق بشهور على هذا المشهد بين عدد من الذكور يتصارعون للاستئثار بممارسة الجنس مع تلك القطعة ، لأن (الجوهر) الذى ينشده ويدعو إليه هو أن التناسل فى عالم الحيوان هو من أجل الحفاظ على النوع ، لذلك اهتم بإبراز مشهد القطعة الأم وسط صغارها فى مفتتح الحكاية (٢٤) من « حكايات حارتنا » لأن ما يهمنى كبشر ، ليس الاندفاع فى حومة غرائز الجنس بجنون ، بل يجب أن (نضبط) عواطفنا فى إطار (أخلاقيات) المجتمع الذى نعيش فيه ؛ ونحترم الضوابط التى وضعها لممارسة الجنس (المشروع) من خلال الزواج ، من أجل الحفاظ على النوع .

لقد نجح الفنان الكبير نجيب محفوظ فى تجسيد عنف وضرارة فترة المراهقة . لكنه - فى ذات الوقت - كان حريصا على أن يطلّ بعمق على المجتمع أيضًا . ومن أجل ذلك فإن مشهد بداية الحكاية رقم (٢٤) من « حكايات حارتنا » لا يتفسر إلّا على ضوء خاتمة حياة أسرة جميلة من « حديث الصباح والمساء » .

هنا لا بد أن يبرز سؤال أخير :

أهو صوت الواقع والحياة الذى سرد مأسى حياة تلك المرأة الجميلة بعد الزواج ؟ . .

أى كما حدثت فى الواقع فعلا ؟ . .

أم هو صوت (أخلاقى) صادم ، يتشدد في عقاب فتاة خرجت في فترة مراهقتها
عن المألوف ، لتشجيع غرائزها دون ضابط ، فكان عقابها بعد الزواج رهيبا ، قاسيا ،
رادعا ١٩

٢- قطرة ندى

« فتحة ، الأخت الصغرى لنية ، تماثلني في العمر ، مثال للهدوء العذب والرصانة والعمق .. »

نظراتنا تتسلل على استحياء فيستحوذ على أمل خلّاب . أمد يدي فأقبض على راحتها فتسحبها بلطف ، وبرقة تقول لي
- لا أحب العبث «

(الحكاية رقم (٢٥) من رواية « حكايات حارتنا »)

« ماثلت في العمر ابن عمها قاسم . تبدى وجهها في هالة بيضاء كأنها ست زينب مشربة بحمرة . صافية العينين الخضراوين . في صوتها دسامة تُذكر بصوت والدها سرور أفندي . وفي سجيبتها رزانة فطرية جرت عليها تهمة ظالمة بثقل الدم ومحافضة على التقاليد وتدين حصنها ضد عبث الصبا . »

(بهيجة سرور عزيز - رواية « حديث الصباح والمساء »)



هي « فتحة » التي أوردها نجيب محفوظ أولاً في رواية « حكايات حارتنا » (١٩٧٥) كفتاة أثرت في مرحلة صباه في ميدان بيت القاضي ، ثم وُضع حكايتها مكنياً إياها « بهيجة » في رواية « حديث الصباح والمساء » (١٩٨٧) ، تدليلاً على أن الاسم في المرتين مستعار .

ماهو الملمح الرئيسى المشترك بين هذين العاملين ؟ . . .

ماهى مبررات وأسباب نشوء هذا الملمح ؟ . . .

للى ماذا آلت هذه العلاقة ؟ ! . . .

وهل تقبل نجيب محفوظ هذه النهاية ؟ ! . . .

وماهو دور (الخيال) فى هذه العملية ؟ ! .

ملمح رئيسى لا ينسى ، خلفته هذه العلاقة فى (ذاكرة) نجيب محفوظ ، وهو صبى فى الرابعة عشرة من عمره ، حتى كاد يتكرر بنفس مفرداته ، فى ثلاثة مواضع ، إحداها فى « حكايات حارتنا » والأخران فى « حديث الصباح والمساء » .

تبدأ الحكاية رقم (٢٥) من رواية « حكايات حارتنا » بمفتح دال :

« فتحة ، الأخت الصغرى لنية ، تماثلنى فى العمر مثال للهدوء العذب والرصانة والعمق » .

انظر لبناء الجملة : فتحة هى الأصل وجوهر هذه الحكاية والمبتدا . يحاول الراوى (نجيب محفوظ) أن يخبرنا أنها تماثله فى العمر ، فى سياق ارتباطها بأختها الكبرى (كان له معها تجربة غامرة استمرت ستين) التى بدا ظلها معترضا يكاد يمهد الطريق أو ينسحب على الأحداث القادمة ، لكن صفات الصغرى من هدوء ورصانة وعمق سرعان ما تواجه وتسيطر ، ولتتبع المشهد الذى جاء مباشرة فى أعقاب المفتح السابق :
« نظراتنا تتسلل فى استحياء فيستحوذ على أمل خلّاب . أمّدى يدي فأقبض على راحتها فتسحبها بلطف . وبرقة تقول لى :

- لا أحب العبث .

واضيق بحديثها فأقول :

- إنك لا تعرفين الحب .

فتقول بأسى :

- أنت الذى لا تعرفه .

وتقول معاتبه :

- إثبت لى أنك تعرفه مثلما أعرفه .

هنا فتاة صغيرة السن ، راجحة العقل ، هادئة الطباع . ترى الحب أعمق غورا من مجرد (عبث) صبيانى ، لذلك ترفض محاولته برقة الحب الذى يحرص على معشوقه عندئذ ينقلنا الراوى (نجيب محفوظ) مباشرة إلى مقارنة بين الأختين . . . « ليست قطرات الندى مثل ذوب الشمع المحترق » . انظر لاتساع الهوة بينهما : الصغرى قطرة ندى ، تفتح الفجر ، بكارة الوجود ، عذوية البداية ، لها معنى روحانى أسر . الكبرى ضراوة الانفعال ، توهج الشاعر ، الاحتراق الكامل ، تكتسب معنى ماديا عنيفا .

« ويصرفنى اليأس فأنعزى بالزهد ، أمضى مصمماً على النسيان . . ولكن ترجعنى الأشواق أو رسالة عتاب أو لقاء غير متوقع ، فأجد نفسى مرة أخرى حيال قلب محب وعاطفة طاهرة وإرادة لا تلبين » .

ألا ما أصعب موقفه !

من الاحتراق الكامل إلى النقاء التام . هل يملك الصبى أمام ذلك الإصرار إلا اليأس ، فيقرر نسيانها متعزياً بالزهد . ولكن هل يملك المحب فعلاً حرية اتخاذ القرار بالابتعاد عن المحبوب ؟ . . . إنه قرار القلب وحده ، لذلك سرعان ما يتلمس الأعداء للقاء الحبيبة ، بالشوق يعود أو برسالة عتاب أو لقاء غير متظر ليكتشف عندئذ حقيقة حبها الطاهر ، حيث إنها لا تفرط أو تتزلق أبدا .

نفس هذا الموقف يتكرر مرتين فى رواية « حديث الصباح والمساء » : الأولى فى فصل « بهيجة سرور عزيز » ، ولكن من منظور مختلف ، بواسطة راوٍ محايد . إنه يبدأ من اللحظة الفصل لانتهاه علاقة قاسم (الذى تخفى وراءه نجيب محفوظ) بالأخت

الكبرى ، لأنها أيضًا منشأة العلاقة الوليدة . . « ولما خُطبت جميلة وعقلت وجدت نفسها تفكر فى قاسم بدورها » . هنا تبدأ مقارنتها بأختها مع محاولة تلمس أسباب موقفها . . « لم تكن كأختها النزقة المجنونة ، وخفق قلبها بعاطفة رقيقة ، ولكن داخل قفص ذى قضبان صلبة من الحياء والتقاليد » .

إنها تحب ، لكن حبها نبع حنان ، نبت اليثة ، يحاصره حياء ذاتى مطبوع ، وتقاليد خارجية قوية . . « وقد انتبه الفتى لها وقرأ فى عينيها الصافيتين النداء الصامت ، وسرعان ما لتي مفعماً بالشهوة والأمل فى أن يواصل معها العبث الذى انقطع بضياح جميلة » .

هكذا إذن ، تواصل القلوب اليافعة سريعاً . لكن الفتى استقبل نداء عينيها حالماً بتكرار (العبث) الذى انتهى بزواج جميلة ، ولتوقف هنا عند مفردتين : الأولى هى (العبث) ، ولتذكر قولها فى مشهد « المحاولة » فى « حكايات حارتنا » : « لا أحب العبث » . إن ورود الكلمة هنا ، تعبير عن لسان حاله عما ينوى فعله معها ، وهو أيضاً إيمان بمنطقها وتبن لمفهومها ، بأن تلك الممارسات الجنسية مجرد عمل لا حكمة فيه ولا فائدة ، وأن الحب أمرٌ مختلف . المفردة الأخرى هى (الضياح) . لقد حلّ الضياح محلّ الزواج . وهو هنا تعبير موفق لصبى عايش الاحتراق فى لمب الجسد مستين ثم اختفت شريكته فجأة بفعل الزواج ، الذى (ضاعت) أو فقدت فيه .

عندئذ ، وإزاء موقفها ، يكاد نفس اليقين الذى ترسخ فى وجدانه يتكرر . . « ولكنه وجد قلباً محباً وإرادة من فولاذ » . إنه الإقرار الكامل بحبها المخلف بإرادة قوية .

أما المرة الثانية ، التى تكرر فيها نفس الموقف فى رواية « حديث الصباح والمساء » فكانت فى فصل « قاسم عمرو عزيز » ، وهو يحكى بواسطة راوٍ محايد يسلط الأضواء على حياة قاسم : « ونوارت جميلة عندما جاء ابن الحلال ، والحق قاسم جرح الحب بجرح الموت » .

إنها ذات نقطة البداية عندما اختفت فاتته بالزواج ، لقد آله الفراق المفاجئ ، وسبب له جرحاً دامياً ، يضاف إلى الجرح السابق الذى خلفه موت رفيق طفولته وابن

أخته (أحمد) المفاجيء أيضاً وهو في الرابعة من عمره . خبرات الأسى تتراكم ، وهو على السطح وحيد ، فمضى يعزى نفسه . . « وراح يراقب رؤوس الأرناب المظلة من فوهة البلاص المقلوب . وسرعان ما وجد نفسه حيال أوهامه وجهاً لوجه ودروس المدرسة الثقيلة » .

لكنه وسط عالم من العذاب إذا به يجد . . « ابتسامة لا تُرى بالعين المجردة آتية من عيني بهيجة الجميلتين . وظنّ أن الأخت مثل أختها ، ولكنه وجد قلباً هلباً وإرادة صلبة » .

هنا تأكيد يقينى ثالث بتجاور الحب والنقاء .



والآن ، فلنحاول تفهم موقف هذه الأخت الصغرى ، والتعرف على مبرراته . . في رواية « حديث الصباح والمساء » في الفصل الخاص بها نجد أول المبررات في تكوينها الطبيعي . . « في سجيته رزانة فطرية جرت عليها مهمة ظالمة بثقل الدم ومحافضة على التقاليد وتدين حصنها ضد عبث الصبا » .

أما المبرر الثانى فهو مكتسب من التعليم والبيئة التى تُعد البنات منذ نعومة أظفارهن للزواج . . « واكفى في تعليمها بالكتاب كبنات عمها وأختها جميلة . وتفرغت مثلهن لفن البيت من طهى وحياسة ومايجرى مجراها ، وأخذت موضعها منذ وقت مبكر في محطة الانتظار التقليدية ، انتظار ابن الحلال » .

المبرر الثالث مستمد من حسن أخلاقى يظلمه الدين ويحكمه العقل . ولننظر كيف رأت هذه الفتاة علاقة أختها مع قاسم . . « في الوقت نفسه راقبت بازدياء شليد العبث الفاضح الذى تمارسه أختها جميلة مع ابن عمها قاسم . كانت أختها ابنة ست عشرة وابن عمها في الثانية عشرة أو يزيد قليلا ، فما هذا الذى تضبطه أحياناً فوق السطح أو تحت بثر السلم ؟ ! الأخلاق تأباه والدين يتوعده وهى تكتمه خوف العواقب » .

ولنلاحظ هنا تكرار كلمة (عبث) مرة مُعرّفة على لسانها ، وهى امتداد لتكرارها في

«حكايات حارتنا» ، لارتباطها بقناعاتها الخاصة . ومرة غير مُعرّقة ، بواسطة الراوية المحايد مضافة أو منسوبة إلى مرحلة الصبا وما يعتيرها من طيش لا طائل وراءه .



إذن ، ماذا كان الحل المتاح أمام نجيب محفظ صبيًا في الرابعة عشرة من عمره ؟ . . .
الزواج هو الحل الوحيد المتاح أمام مثل هذه العلاقة ، ولكن أى عقبات تعترض طريقهما ؟ . . .

في رواية «حكايات حارتنا» أوضح نجيب محفوظ بعض هذه العقبات من ناحيته :
«وطريقى شاقة وطويلة» ، وهى تحمل تأويلين : فهو من ناحية مازال صبيًا وأمامه طريق طويل حتى يبلغ مبلغ الرجال ويستقل بنفسه ، فيصبح مهبطًا لفتح بيت الزوجية وتحمل مسئولياته . وهو من ناحية أخرى يوحى بأن طريق تحقيق الذات شاق وطويل .

كما عثرت أمها عن عقبة أخرى ، بعد أن حام حولها قاسم (نجيب) كالمجنون ، حين قالت : «إنه من سنك فلا يصلح لك» ، وتكررت ذات الكلمات في فصل قاسم من رواية «حديث الصباح والمساء» حين قالت الأم : «إنكما متماثلان في السن فهو غير مناسب» ، فالعرف جرى في تلك الفترة على أن يكون الزوج أكبر من زوجته ، حتى يكون قد أعد عدته ونهياً للزواج . . . لم تعترض - بهيجة - ولكنها لم توافق . فقالت الأم :
«أمامه مرحلة طويلة . ولا تنس أمه» (رواية «حديث الصباح والمساء») .

نفس هذا المعنى ، أورده الراوى (نجيب محفوظ) في «حكايات حارتنا» في سياق حديثه عن العقبات «فتأتى محبوبة كثيرة الخطاب . يقول لها أبوها :

- معنى الرفض أن تنتظري عشرة أعوام .

ثم يقول بحزم :

- القلوب تتغير بعد عشرة أعوام .

إذن لقد عرفت أسرته بأمر علاقتها ، لكن الطريق أمامه بدا مسدودا . . ومن شدة
الحصار بكى قاسم . . كان بمجلس والده الليل فسأله أبوه هـا يـكـه فقال : تذكرت
أحمد ! . .

فقطب عمرو وهتف :

.. ذاك تاريخ قديم ، حتى أمه نسيت . .

ومضى ينظر إلى الأشياء بحزن ويكى .

لاحظ ارتباط فقد المحبوبة في المرتين بموت رفيق الطفولة : مع الأخت الكبرى كان
الأمر جرحا آخر رغم استحالة استعادة فتاته لزواجها المفاجيء من آخر . مع الصغرى
تصاعد الأمر ، حتى صار الفقد موازيا للموت البطيء ، لأنها تضع وهي أمامه كائنة
حية ، كان يمكن لعلاقتها أن تدوم لو تزوجا ، فبكى قهرا .

في « حكايات حارتنا » يحسم أبوها الأمر . . « ويضر على تزويجها من رجل
مناسب ، فتزف إليه كسيرة القلب ، وتنجب أطفالا ، وترهى بينا يُعد مثالا للحياة
الزوجية الموفقة .

وتغيب عن عيني وخيالي دهرًا طويلا .

٢. حنان

« كانت بيضاء زرقاء العينين ناعمة الصوت ، وكانت ليالى رمضان فرصة هنية للصغار من الجنين ، يجتمعون في الشارع بلا اختلاط ، ويتراءون على ضوء الفوانيس وهم يلوحون بها في أيديهم ، وكنا نترنم بأناشيد رمضان ، وتبادل الحب وهو كامن في براعمه المفلقة » .

ولما بلغت الثانية عشرة من عمرها مُنعت من الطريق والمدرسة معا . وباختفاء حبيتي من الطريق إشتد ولعي بها وصارت شغلى الشاغل وكانت تربني نفسها خطفا من النافذة ، أو تبادل المشاهر بإشعال أعواد الثقاب في الظلام فوق الاسطح . وخطونا خطوة جديدة بفضل خادمتها التي ترددت بيتنا خفية حاملة التحيات والورود ، وسعدت بذلك سعادة لا توصف فطمعت في المزيد منها ، ولكنني لم أدرك كيف ، وتسلى إلى روعي قلق نشيط غامض تتجاذبه قوى خفية من البهجة والكآبة » .

(رواية « المرايا »)



تلك هي « حنان مصطفى » كما أوردها نجيب محفوظ في رواية « المرايا » (١٩٧١) حين روى أنه قابل حنان في الأسكندرية بالصدقة ، بعد مضي أربعة وأربعين عاما على آخر لقاء بينهما ، ومن خلاله رجع إلى عباسية الحقول والحدائق والهدوء الشامل ، واستعاد بيت آل مصطفى بطبيعة الأب المثيرة الذي كان ما أن يسكر حتى يتحدث مع

الباعة ، بل أشيع بعد ذلك أنه هجر البيت وتزوج من غجرية ترعى الأغنام . أمّا الأم فقيل إنها كانت تكبر زوجها بعشرة أعوام وإنها غنية تملك أرضاً ومالاً ، وإنها تزوجته وهو بلا علم ولا عمل لعراقه أصله . وكانت الأم غريبة الأطوار حقاً ، منعت الأخ الأكبر لحنان من مغادرة البيت إلاّ معها في حين سمحت لحنان باللعب مع أترابها ، وتعلق قلب الصبي (نجيب) بحنان واشتدّ ولعه بها ، وإذا بأُمها تزور أسرته مقترحة أن يتزوجا ، وبطبيعة الحال رفض اقتراحها .

وذاث يوم علم الصبي بمغادرة آل مصطفى للبيت والحقى إلى مكان مجهول ، فعانى لأول مرة في حياته عذاب الحرمان والهجر .

تلك هي أبعاد العلاقة (الحقيقية) كما حدثت لنجيب محفوظ وهو صبي في الثلاثة عشرة في (العباسية) . فإذا علمنا أنه من مواليد ديسمبر ١٩١١ ، وأنه من الثابت تاريخياً (طبقاً لتأكيد نجيب محفوظ المتكرر في كثير من حواراته) أن أسرته انتقلت للسكن في العباسية عام ١٩٢٤ ، فإن ذلك يلقي ظلالاً من الشك حول مصداقية علاقته التي أقامها وهو صبي في الرابعة عشرة من عمره في بيتهم القديم بالجمايلة (انظر الحلقة الماضية « قطرة ندى ») . ولعلها كانت أصداء فنية للعلاقة (الأصل) ، لأننا سرعان ما نجد عددًا من الأدلة ترجع وحدة هذه الشخصيات ، وأن (حنان) « المريا » هي (فتحة) « حكايات حارتنا » . . هي (بهيجة) « حديث الصباح والمساء » .

أول هذه الأسانيد هو ربط هذه العلاقة الوليدة بالزواج . لاحظ أن نجيب محفوظ في روايته « حكايات حارتنا » و« حديث الصباح والمساء » لم يطرق منطقة من كان صاحب اقتراح تزويجهما ، وإن كشف عن اعتراضات الأسرتين عليه ، وبذلك ظلّ أميناً للواقعة (الأصلية) كما أوردها في « المريا » ، حين كانت أمها هي صاحبة الاقتراح العجيب ، وهو هنا يمارس دوره كفنان ينيطن حيناً ويعلن حيناً آخر ، لكن أعماله معاً تتكامل في رؤيتها .

ويظهر عدد من الأسانيد الأخرى من التشابه بين الاعتراضات التي أثرت حول الزواج ، حتى تكاد تتطابق . ولنتظر إلى الأصل في « المريا » ، لتتبع بروز أصداءه في

«حكايات حارتنا» أو في «حديث الصباح والمساء» : كان أول اعتراض للأبوين في «المرايا» ، حول تماثلها في العمر ، حين ردّ الوالدين : «إنه شرفٌ كبير ولكنهما لم يبلغا الثالثة عشرة من عمرهما» . كما نجد أصداءه في فصل «بهيجة» ، «حديث الصباح والمساء» : «قالت لها أمها : إنه من سنّك فلا يصلح لك» . وفي فصل قاسم . . «قالت أمها : إنكما متماثلان في السن فهو غير مناسب . .»

وكان ثانی الاعتراضات في «المرايا» : «ولكنه لم يتم دراسته الابتدائية بعد وما زال أمامه مشوار طويل . .» فإذا بذات المعنى يكاد يتكرر بحذافيره في فصل «بهيجة» من «حديث الصباح والمساء» : «أمامه مرحلة طويلة» .

ثالث الاعتراضات في «المرايا» بعد أن رفض الأبوين فكرة أن يكون الصبي مجرد زوج لزوج غنية فساءلت أمها بحدة :

«- والعمل ؟»

- لا سبيل إلّا الانتظار حتى يتم تعليمه ، ثم له أن يتزوج بعد ذلك . .

- وما مدى هذا الانتظار ؟

- عشرة أعوام على الأقل . .»

وهذا ما يفسر قول والد الفتاة لها في «حكايات حارتنا» : «معنى الرفض أن تتظري عشرة أعوام» .

لكنه يستطرد . . «القلوب تتغير بعد عشرة أعوام» ، ليبرر بذلك إصراره على تزويجها من آخر .

هكذا تستقيم المعاني ، وتفسر الأصداء المتتارة في «حكايات حارتنا» ، وفي «حديث الصباح والمساء» ، على ضوء (إخلاص) نجيب محفوظ (للأصل) كما ورد في «المرايا» .

ملمح آخر أورده نجيب محفوظ في «المرايا» - يؤيد ما سبق - «ولم تقع على حنان

عيناى منذ غادرت حينا حتى التقيت بها فى جليم فى مايو ١٩٦٩ ، وهى تقرب من الستين من عمرها .

« ومشينا على مهل على الكورنيش حتى سألتنى :

.. متى رأيتنى آخر مرة ؟ ..

فتفكرت مليا ثم قلت :

.. منذ أربعة وأربعين عاما .

فإذا كان لقاؤهما فى الإسكندرية عام ١٩٦٩ ، وكان لقاؤهما الأخير منذ أربعة وأربعين عاما ، فهذا يعنى أنه جرى عام ١٩٢٥ ، بما يقطع بحدوثه فى العباسية ، ويؤيد أنها كانا فى الثالثة عشرة من عمرهما .

ولعل ذلك اللقاء قد تم فعلا فى الواقع . لاحظ امتداد أصداء ذلك اللقاء إلى «حكايات حارتنا» حين التقيا صدقة .. فى مائتم وهى فى الستين من عمرها ، أرملة منذ عشرة أعوام ، فكان - هذا اللقاء - حافزا لنجيب محفوظ لاستعادة .. «عباسية الحقول والحدائق والهدوء الشامل» ، وبالتالي استعادة تلك العلاقة الأثيرة المستكنة هناك . فإذا كان اللقاء قد تم فى مايو ١٩٦٩ ، فلعله كان إيذانا ببعث تلك العلاقة فى رواية «المرايا» التى نشرت بعد ذلك فى كتاب عام ١٩٧١ .



إذن ، إذا كانت (حنان مصطفى) رواية «المرايا» (التى لم يكن لها سوى أخ أكبر فقط) ، هى الأخت الصغرى : « فتحة » فى الحكاية رقم (٢٥) من « حكايات حارتنا » ، وهى أيضا « بهيجة سرور » فى رواية « حديث الصباح والمساء » . فيهاذا نعلل ظهور أخت كبرى لها فى نفس الروايتين السابقتين ، وأخ أصغر ١٩ ..

إن نجيب محفوظ فنان كبير ، متفهم مستوعب لدقائق صناعته ، لذلك - لعله - حين فكر فى إبراز تجربة صباه التى جرت وقائعها فى (العباسية) لم يشأ أن يكرر نفسه ، وحتى يبرز تلك العلاقة فى أقوى صورها ، كان لابد من إبراز الجانب (المقابل) لها ،

في بيئة أخرى ، فعلى صفحة الأضداد ، يسهل الفحص ، فتبدى الفروق ، وتتفجر الرؤى - كما أن هذه المعالجات الجديدة تضيء على الصبي جانباً واقعياً ، مغامراً . لعلّه لم يمتلكه في صباه وإن مارسه في شبابه (كما أسفر عنه في « المرایا ») . وتعكس - في ذات الوقت - شوقاً طفولياً غامراً في أن يكون محبوباً ومرغوباً من فتاة تكبره بأربع سنوات . وللفنان - في نهاية الأمر - حرية مطلقة في التعامل مع الوقائع بما يتناسب وقوانين الفن ، ولعلّه - أيضاً شاء أن يثير شكوكنا في أن ما يقدمه في « حديث الصباح والمساء » ليس حتماً بناءً موازياً لشجرة عائلته .

وأخيراً ، فإن الأسماء التي أطلقها نجيب محفوظ في أعماله الثلاثة على محبوبته وهي : حنان ، فتحية ، وبهيجة تعكس ملمحاً هاماً لتلك العلاقة في نفسه ، فهي رقة القلب تارةً ، والإقبال والخصب والنماء تارةً أخرى ، وهي فيض السرور والفرح أيضاً .



يبقى أن نتوقف أمام اختلاف جوهرى في معالجة نجيب محفوظ لنهاية تلك العلاقة في رواياته الثلاث ، أى منذ لحظة الحسم ، بانتهاء العلاقة بموقف عائلته الراض (المرایا) ، أو موقف عائلتيها الراض (حكايات حارتنا) وزواجها من آخر في الروايتين . ثم موقف العائلتين الراض في (حديث الصباح والمساء) ، ليرز - هنا - اختلاف جوهرى . ففي فصل « قاسم » وفي أعقاب انتهاء العلاقة جبرياً ، وبعد أن راح ينظر إلى الأشياء بحزن وبكى ، بخثرته امه . . . « وجعل يتشمم الشذا الغامض ثم سقط مغشياً عليه ومضى به أبوه إلى الطبيب فقرر أنها حالة صرع خفيف لاخوف منه ، ولكن يلزمه راحة وتغيير هواء » .

والآن ، لتذكر حواراً سبق أن أجراه نجيب محفوظ مع صبرى حافظ (نشر بمجلة الآداب في مارس ١٩٧١) قال فيه : « لقد أصبت في طفولتى بالصرع . . وكان الصرع في هذا الوقت من الأمراض القاضية ، وكانت وسائل العلاج بدائية إلى حد ما . . وكان هذا المرض دائماً ينتهى في أيامنا بالموت أو الجنون . . ولكتى شفيت منه والحمد لله » .

إذن ، لقد عانى نجيب محفوظ من الصرع (ربّما في أعقاب انتهاء تلك العلاقة فعلاً) ، وشفى منه والحمد لله ، فكان مسار التطور في « المرایا » وفي الحكاية رقم (٢٥)

من « حكايات حارتنا » هو المسار الفعلي للأحداث . . أى أن الفتاة تزوجت فعلا . أما في رواية « حديث الصباح والمساء » فقد اختار الفنان الكبير للأحداث مسارا آخر ، وهو أن يصير قاسم في أعقاب إصابته بالصرع درويشاً (نوع من المشيخة المباركة الزاهدة في الحياة ، صاحبة النبوءات) .

أما لماذا اختار الكاتب الكبير هذا المسار ، فالأسباب عديدة : أول هذه الأسباب وأهمها هو أن يمّوه - متعمداً - لتفنيد أى افتراض بأن رواية « حديث الصباح والمساء » هى عن شجرة عائلته الخاصة ، صيانةً لشخصياتها وحفاظاً على أسرارها ، وتملصاً من اعترافات السير الذاتية الصريحة التى ترفضها مجتمعاتنا الشرقية .

ثانى هذه الأسباب هو أن يواجه الفنان الكبير مرض طفولته ، حين يضعه على الورق ، حتى يستطيع أن يتجاوزه بالاعتراف به . وقد فضل اختيار شخصية درويش له كرامات وقدرات تنبؤية تقترب من طبيعة الفنان في أحد جوانبه .

ثالث هذه الأسباب هو أن يحقق لهذه العلاقة في الخيال ما لم يستطع أن يحققه في الواقع ، هكذا أكمل نجيب محفوظ فصل « جملة سرور عزيز » في رواية « حديث الصباح والمساء » أولاً بإرساء المرض كحقيقة . . « ولما ألمّ بالفتى ما ألمّ فاعتبر مفقوداً غرقت في التعاسة حتى قمة رأسها . ولم تبرد من العودة إلى . . محطة الانتظار » . ثم كان منطقياً - من منظور المعالجة الفنية الجديد - أن ينصرف عنها الخطاب تمهيداً لمجيئه المنتظر . . « ولكن انتظارها طال دون سبب حتى وضعتها ألسنة الأسرة في سلة واحدة مع دنائير بنت عمته رشوانة . البنت جميلة ومثال كريم للأخلاق الفاضلة ، فلم صد عنها الخطاب ؟ » ... وطال الانتظار وإنكسار القلب حتى توفي عمها عمرو وأبوها سرور وأمها زينب حتى جاء عام ١٩٤١ ، وهى وحيدة بينهم ، في الثلاثين من عمرها ، وفجأة - وكأنها بوحى - انتبه لها الشيخ قاسم من جديد . . « وقال لأمه : أريد أن أتزوج من بهيجة ا .

واعترت راضية - أمه - الطلب كرامة من كراماته ، وقبلت بهيجة . . أهو اليأس ؟ . . أهو الحب القديم ؟ أهو الخوف من الوحدة ؟ » .

هكذا تدفق خيال الكاتب الكبير ناسجاً حكاية أخرى ، فأنجب قاسم ولدا ، ثمل

طوال عهد دراسته بالعظمة والمجد ، وتخرج مهندسا عام ١٩٦٧ ، وتقرر إرساله في بعثته إلى ألمانيا الغربية ، حيث حصل على الدكتوراه وعمل هناك وتزوج من ألمانية ثم تجنس بالجنسية الألمانية (لاحظ هنا أن نجيب محفوظ وضع في هذا الابن كل ما كان ينفر منه من ناحية السفر والارتباط والانتفاء لغير مصر ، ريباً ليوحى أن هذا محض خيال) .

« وبعد رحيل راضية بقي قاسم وبهيجة في البيت القديم وراء شجرة البلح التي شهدت حبهما القديم ، وما زال قلباهما ينبضان بالحب والعزلة » .

هكذا خلّد الكاتب الكبير تجربة حب حزينة ، عاشها وهو صبي يافع .



■ الفصل الثالث ■

الحب الخالد

« في العباسية عانيت أول حب حقيقي من نوعه ، من قبل كنت أحس بالجمال في الجمالية ، بقدر الأحاسيس التي تراود صبيا في الثامنة أو العاشرة ، لكن في العباسية عرفت أول حب لي من نوعه . . . كانت تجربة مجردة من العلاقات نظرا لفوارق السن والطبقة ، من هنا لم تعرف هذه العلاقة أى شكل من أشكال التواصل » .

(من كتاب « نجيب محفوظ يتذكر »)

« والعجيب أنه كان حبا بلا مواقع ولا مواقف ولا تاريخ يذكر . رأيتها في الخطوط ثوانٍ ليس إلا ففقدت إرادتى وألقى بي في طور جديد من أطوار الخلق . وكنت قريب عهد بحب حنان مصطفى فأدركت خطئى وأمنت بأنى أحب لأول مرة » .

(صفاء الكاتب - رواية « المرايا »)



هى علاقة (أول) حب حقيقى خاضها نجيب محفوظ فى مطلع شبابه بالعباسية ، مع فتاة سماها « صفاء الكاتب » فى رواية « المرايا » (١٩٧٢) ، ثم تحدث عنها ثانية دون أن يذكر اسمها فى كتاب « نجيب محفوظ يتذكر » (١٩٨٠) . تأكيداً (لحقيقة) هذه العلاقة ، وأن الاسم المذكور فى « المرايا » كان مجرد غطاء فنى .

ماهو موقع هذه العلاقة وسط مدارج نمو نجيب محفوظ ؟ .

ماهى أهم العناصر الجوهرية لهذه العلاقة ؟ .

كيف (خلّد) نجيب محفوظ هذا الحب الكبير ١٢ .



يتكشف من تحليل المقطعين السابقين ، موقع علاقة الحب الأول وسط مدارج نمو نجيب محفوظ . إنه يعترف بأن علاقات طفولته القديمة فى حى الجمالية ليست علاقات حب ، بل هى إحساس بالجمال . « بقدر الأحاسيس التى تراود صبيا فى الثامنة أو العاشرة » . ونحن نذكر/أنه فى « قمر » عَشِق وهو ابن (السابعة أو الثامنة) فتاة فى السادسة عشرة ، وفى « ثلاثة أقمار » عشق وهو ابن الثامنة صغرى ثلاث أخوات (انظر فصل : عَشِق الطفولة) . وبعد أن انتقل مع أسرته إلى العباسية وهو فى الثالثة عشرة من عمره عَشِق حنان مصطفى ، التى كانت من عمره (انظر فصل علاقات الصبا : حنان) . لكنه فى ضوء هذه العلاقة وما أحاط بها من مشاعر وإحباط ، وبعد أن رأى صفاء الكاتب ، أدرك خطأه ، وأيقن أنه انجرف - للمرة الأولى - فى حياته إلى الحب الحقيقى ، الذى لم يعيشه من قبل أبداً .

والآن ، لنحاول أن نتعرف على منشأ أو بداية هذه العلاقة ، التى لم يُشر إليها نجيب محفوظ وهو يسترجع ذكرياته عنها - فى كتاب « نجيب محفوظ يتذكر » - وإن استعاد موقع سراياهم : « كانت سراياهم فى شارع بالعباسية اسمه حسن عيد يصل بين شارع العباسية وشارع الملكة نازلى » . وانظر إلى مفتاح فصل « صفاء الكاتب » من رواية « المرايا » ، وهو يركز أيضاً على موقع سراياهم ، بتفصيل موح : « كان بيت الكاتب من أعرق البيوت فى العباسية القديمة وكان يقع فى الحى الشرقى بمبناه الشامخ وحديقته المترامية ما بين محطتى ترام . وكثيراً ما سِرنا بحذاء سورهِ ونحن فى طريقنا إلى الصحراء للعب الكرة فلم أر منه إلا رءوس الأشجار وخنائل الياسمين والستائر المسدلة » .

لقد بقى من العلاقة فى (ذاكرة) نجيب محفوظ (موقع) سراياهم ، وهو ما عمّقه فى « المرايا » ولم يتم هذا الأمر عفواً أو عبثاً . إن (موقع) أسرته الاجتماعى باقى فى تفكيره - ربّما بشكل لا واعٍ - كدليل دامغ لحاجز يصعب اجتيازه . لذلك كان منطقياً ،

وهو يفتح الفصل الخاص بالحياة - كفنان كبير أن يمهد الطريق ، وأن يضع أمامنا حقيقة موقع أسرتها الاجتماعى ، وانظر إلى اتساع حديقتهم التى تمتد بين محطتى ترام (بها يعكس ثراء الامتلاك) ، وانظر أيضا إلى السور الذى يحيط بهذه الحديقة (لِيُشَكِّلَ ساترا يحجب ما بالداخل عن أنظار المتطفلين السائرين فى الخارج ، ويشكِّل فى ذات الوقت عازلا « طبقيا » بينهم وبين ساكنى السرايا) . ولتذكر أن أسرة نجيب محفوظ كانت من ساكنى الحى الغربى ، أصحاب البيوت المستقلة ذوات الحدائق الخلفية الصغيرة . لعل ذلك يهىء ذهن القارئ للتقابل المحتمل بين (فتى) من مستورى الطبقة المتوسطة و(فتاة) من أعيان الأثرياء .

هنا ينتقل نجيب محفوظ مباشرة إلى اللقاء وكيف تم : « ذات يوم وكنت ماضيا نحو الصحراء رأيت حنطورا ينحدر من الطريق الشرقى نحو الشارع العمومى ، فى صدره جلست عجوز تلوح فى وجهها عيان ناعستان فوق حافة الشمك ، وإلى جانبها فتاة تتألق بنور الشباب ، وبمجرد أن وقعت عيناى على وجه الفتاة عانقت سرا من أسرار الحياة المتفجرة ، تفتحت بها أبواب السماء فأغدقت حلى فيضا من بركات الحب » .

إذن ، هو (حب) من النظرة الأولى . أحد أسرار الخلق التى لا يمكن تعليلها أو تفسيرها ، ونجيب محفوظ يعنى أيضا ، أنه فضل جادت به السماء عليه ، أدخله طورا جديدا من حياته لكنه لا يستطرد فى التعبير عن مشاعره ، بل سرعان ما يضعنا أمام العقبة (الثانية) التى تعترض طريق هذا الحب ، حين يخبره أحد أصدقاء العباسية باسمها ثم يقول له : « وهى فى العشرين من عمرها وعند ذلك همس جعفر خليل فى أذنى وقد لحظ تغيرى :

- أما أنت ففى الخامسة عشرة ا » .

هنا فارقان جوهريان يعترضان هذه العلاقة الوليدة : الوضع الطبقي وفارق السن . . لكن هذين الفارقين لم يمنعا نجيب محفوظ من السقوط فى حومة الحب :

« وعرفت كيف يغيب الإنسان وهو حاضر ويصحو وهو نائم ، كيف يفنى فى الوحدة وسط الزحام ويصادق الألم ، وينقل إلى جذور النباتات وموجات الضوء » .

إن نجيب محفوظ في سياق حديثه عن هذه العلاقة في كتاب « نجيب محفوظ يتذكر »
يبنى على هذين الفارقين نتيجة هامة تُجرد هذه التجربة من العلاقات ، بحيث لم تعرف
أى شكل من أشكال التواصل . .

لكن هذا الاستدلال يبدو غير مقنع . إن وجود هذين الفارقين لم يمنع سقوطه في
(الحب) . وما ترتب عليه من آثار ألح نجيب على إبرازها ، حين هام حول سراى
الكاتب وهو قصر مغلق النوافذ مسدل الستائر لا يرى به إنسى (كأنه حصنٌ منيع)
سوى البواب والبستاني وبعض الخدم . ثم رآها مرة ثانية في مناسبة حزينة هي جنازة
سعد زغلول . . « خفق قلبي خفقة مباحة ولكنى لم أنعم بالرؤية وفقدت النشوة في
قلب كبير محزون » . ولم يرها بعد ذلك . . « إلا ساعة هبطت أدراج السلامك في ثوب
العرس لتستقل سيارة إلى بيت العريس » . ثم انظر إلى تأثير هذا الحب الجارف عليه . .
« وتمثل ذلك في صورة قوة طاغية متسلطة لاتقنع بأقل من التهام الروح والجسد ، قُذِف
بى في جحيم الألم ، وصهرنى وخلق منى معدنا نواقاً إلى الوجود ، ينجذب إلى كل
شئ جميل وحقيقى فيه » .

فإذا كان نجيب محفوظ قد سقط في هذا الحب رغم وجود الفارقين ، وعانى لوعة
العاشق الوهان في بحثه عن معشوقه والطواف حول محل إقامته ، لعلّه يحظى بلحظة
لقاء عاب يسمع حتى مجرد صوته ، أو يتلمس آثاره . . فلماذا لم يعلن مرة واحدة أنه
حُبٌّ من طرف واحد ، أى من ناحيته فقط ؟ . . بمعنى آخر : لماذا لم (يواجه) تلك
الحقيقة ؟ . .

إن التعليل يكمن في شروط ذلك العصر وما ساد فيها من قيود بين الذكر والأنثى ،
ويكمن (أيضاً) في الصورة العامة للحب (الرومانسى) الذى تفتش فيه وتوارثته الأجيال
جيلاً بعد جيل ، من أن الحب الصحيح هو الحب العذرى العفيف ، الذى يعانى
العاشق من ويلاته وتحولاته الروحية ، وآلامه وأحزانه العنيفة ، وهوما انتشر في كتابات
مصطفى لطفى المنفلوطى وغيره من الكتاب ، بحيث صارت تلك هي صورة الحب
(النموذجى) المبتغى . يقابل كل ذلك لدى نجيب محفوظ خيال قوى جامع تفتح على
فيض هذا العالم ، ورغبة جياشة في ولوج عتباته والاندفاع إلى أتونه المشتعل ، بحيث لا

يهتم ولا يعنيه في شيء (قبول) الطرف الآخر لهذا الحب . إنه حب الحواجز والأسوار،
ينأى عن (الواقع) ويخلق في الخيال ! .

هنا لا نقتنع أيضاً بكلمات نجيب محفوظ - في سياق حديثه حول انكشاف أمره
لأصدقائه ، وتفاوت ردود أفعالهم بين السخرية والتحذير من التهادى في عاطفة لا
جدوى منها - حين قال : « وكنا صغاراً وكانت أفكارنا ساذجة مستعارة من الروايات
وما عرفناه من تاريخ الأدب العربى » ، لأنه كان يحاول التخفيف من تأثير أحد
الدعامات الأساسية التى قامت عليها الصورة العامة للعشق الرومانسى الطاهر الذى
ساد فى ذلك العصر ! .

لذلك يكون منطقياً حين يتذكر نجيب محفوظ هذا (الحب) بعد مضى ما يقرب من
نصف قرن ، وما يعنيه ذلك من تراكم خبرات جعلته (واقعى) التفكير ، أن يكتب فى
« المراهبة » : « وكلما تذكرت تلك الأيام أذهلنى العجب ، وتساءلت بدهشة عن سر الحياة
التي عشتها ، وهل كان ما أصابنى من الجنون ، وأسفت غاية الأسف أنه لم يُقدَّر
لحى أن يخوض تجربته الواقعية ، وأن تتلاقى فى دوامته العنيفة السماء والأرض ، وأن
أمتحن قدراتى الحقيقية فى معاناته ومواجهة أسرارهِ على ضوء الواقع بكل خشونته
وقسوته » .



وفى الوقت الذى اجتاح فيه التغير (المكان) بمروء الأعوام ، فاندثرت سراى الحبيبة
واختفت أسرتها : « لا أستطيع تتبع أخبارها الآن ، لأنها ابنة عائلة اندثرت منذ مدة .
أصبح مكان السراى الآن عمارتين حديثتين ، لا أعرف مصيرها ؟ أو أين هى الآن . . فى
مصر ، خارج مصر ، حتى أخوتها انقطعت أخبارهم عنى » (« نجيب محفوظ يتذكر ») .
« ومررت بقصر آل الكاتب فى الستينات فوجدته قد هُدم ورُمعت أنقاضه مخلفاً أرضاً
فضاء تُحفر تمهيداً لإقامة أربع عمارات سكنية » (« المراهبة ») .

ولكن ، فلتمهّل قليلاً ، فإن هذا التغير (الخارجى) الذى اجتاح المكان ، وأخفى
أسرتها وأبعد أخبارها ، كان يقابله ثبات (داخلى) فى أعماق نجيب محفوظ : « وبقي

الحب - بعد اختفاء خالقه - مالا يقل عن عشرة أعوام مشتعلًا كجنون لا علاج له . ثم استكنّ على مدى العمر في أعماقي - كقوة خامدة - ريباً حركتها نغمة أو منظر أو ذكرى فتدبّ فيها حياة هادئة تقطع بأنه لم يدركه الفناء بعد .

هنا تقابل بين تأثير حركة الزمان على المكان والبشر ومشاعر الحب . ففي الوقت الذي بدت فيه السراى كمظهر غنى (خارجي) قوى لا يقتحم ولا يقهر ، وبدت مشاعر العشق متوقعة في أعماق الروح منظوية (داخلياً) على ذاتها ، إذا بيد الزمان تزلزل المكان وتغير ملامحه ، بينما ظل الحب مشتعلًا لمدة عشرة أعوام ، ثم استقر في الأعماق كقوة خامدة لم يدركها الفناء بعد . بل إن نجيب محفوظ أثبت أن حبّه - دائماً - أقوى من أى زمن ، ولا يتهدده الفناء ، حين خلّده أولاً بشكل (مختصر) في «المرايا» ، وحين سَمّى المحبوبة «صفاء الكاتب» بكل ما يعنيه الصفاء من نقاء وخلو من الكدر، تمجيداً وتقديراً لهذه العلاقة التي أضيفت إلى (الكاتب) نجيب محفوظ ، ونُسبت إليه . ثم خلّدها ثانية بشكل موسوعي شامل - وربما غير مسبوق في تاريخ الرواية العربية - في «الثلاثية» ، وهو ما أكّده حين قال : « وسوف تبدو آثار هذه العلاقة في تجربة كمال عبد الجواد في الثلاثية وحبّه لعابدة شداد » (نجيب محفوظ يتذكر) .



والآن ، فلنقارن بين هذا الحب كما أرسى نجيب محفوظ أبعاده في «المرايا» ، وبين ما طرأ على تلك الأبعاد في «الثلاثية» .

في الثلاثية حافظ نجيب محفوظ على (الأماكن) الطبيعية لأحداث حبّه ، حيث بقيت العباسية هي الحى ، والقصر هو الموطن ، وإن امتدت يده بلمسة هنا (إضافة ملمح لموقع القصر) ، أو تغير هناك (حين أطلق على الشارع الذى يوجد به القصر شارع السرايات) . وظل كمال يعيش في حى الحسين القديم ، بينما كان يذهب إلى قصر آل شداد ، لمقابلة أصدقاء مدرسته الثانوية ومنهم ابن صاحب القصر حسين شداد ، حيث شاهد أخته عابدة (هنا بدا أول اختلاف ، لأن نجيب كان قد انتقل فعلاً إلى العباسية اعتباراً من عام ١٩٢٤ . ولكن لابد أن نعى أن للفن قانونه ، وليس

حتماً أن ما يحدث في الواقع يمكن تصويره فنياً ، لأن الفن - خاصة المذهب الواقعي - يلتزم بالارتباط بين الأسباب والنتائج .

وانظر لرحلة كمال عبد الجواد في «قصر الشوق» إلى قصر المحبوبة ، بعد أن استلم رسالة تخبره بعودتهم من المصيف : « طوت سوارس شارع الحسينية ، ثم أخذ جوادها المهدولان يخبّان فوق إسفلت العباسية والسائق يلهبهما بسوطه الطويل . كان كمال جالساً في مقدمة العربة على طرف المقعد الطويل فيما يلي السائق ، فأمكنه أن يرى بلفتة من رأسه - من غير جهد - شارع العباسية ممتداً أمام عينيه في اتساع لا عهد للحى القديم به وطول لا يبلوح له منتهى ، أرضه مستوية ملساء وبيوته على الجانبين ضخمة ذوات أفنية رحيبة بعضها يزدان بحدائق خناء . . . كان يضيّر للعباسية إعجاباً كبيراً ويكن لها حباً وإجلالاً يبلغان حد التقديس ، أما الإعجاب فمرده إلى نظافتها وهندستها والهدوء المخيم على ربوعها ، وكل أولئك سمات لا يعرفها حبه العتيق الزيات . وأما الحب والإجلال فمرجمهما إلى أنها وطن قلبه ومنزل وحى حبه ومثوى قصر معبودته » .

وحين وصل إلى القصر . . . « وقفت العربة عند الوايلية ، فأعاد الخطاب إلى جيبه ، وغادرها متجهاً إلى شارع السرايات وعيناه تتطلعان إلى أول قصر على اليمين فيما يلي صحراء العباسية . بدا القصر بدورية من الخارج بناءً ضخماً عالياً ، يتصل مقدمه بشارع السرايات وينتهي مؤخره بحديقة رحيبة تراءت رعوس أشجارها العالية من وراء سور رمادي متوسط الارتفاع يحيط بالقصر والحديقة معاً ويرسم مستطيلاً هائلاً ممتداً في الصحراء التي تكتفه من الجنوب والشرق ، وكان منظره مطبوعاً في صفحة نفسه ، يستأسره جلاله وتفنته آى فخامته ، ويرى في عظمته تحية مزجاة عن جدارة بصاحبه ، وتلوح لعينه نوافذ مغلقة ، وأخرى مرخاة الستائر ، فيلمح في تحفظها وانطوائها ما يرمز إلى عزة محبوبة وعصمته وامتاعه وضموضه ، وهى معانٍ تؤكد لها الحديقة المترامية والصحراء الفارقة في الأفق » .

لقد استفاد نجيب محفوظ من الوجود الملموس لقصر أو سراى المحبوبة ، فسعى إلى

إبرازه ، ليعكس من خلاله الفارق (الطبقى) ، وليضفى عليها ما يليق بها من رفعة وفخامة ، مستفيدًا من اتساع رقعة البناء الروائى للثلاثية الذى يسمح بالإفاضة على عكس البناء المركز الشديد التكثيف فى «المرايا» .

كما أتاح البناء الروائى الضخم للثلاثية أن يغوص إلى جذور بطلته عابدة (على عكس «المرايا») ، فكان أبوها . . « شداد بك مليونيرا أو من رجال المال ذوى المكانة والجاه فضلاً عن صلته التاريخية بالخدوي عباس » ، وأنه كان مبعداً فى الخارج - بسبب هذه الصلة - فى مدينة باريس لسنوات طويلة مع أسرته ، حيث ترعرعت المعبودة فى مدينة النور ، لذا كان تعليمها فى مدرسة فرنسية ، فكانت . . « الرطانة عادةً مألوفةً لديها ، فخففت من غلوائه فى التعصب للغة القومية من ناحية ، وفرضت نفسها على ذوقه كأمانة من أمارات الحُسن النسائى من ناحية أخرى » .

وإزاء التقابل بين طبقتها وطبقته ، كان حتماً أن ينصرف ذهنه إلى عقد مقارنة بين أبويها وأبويه : « وردّت مخيلته على غير ميعاد صورة عبد الحميد بك شداد وحرمة سنية هانم ، وهما يسيران جنباً إلى جنب ، من الفراندة إلى البيرة المنيرفا المنتظرة أمام باب القصر ، لا سيد ولا مسود ولكن صديقين متساويين ، يتحادثان فى غير كلفة وهى تتأبط ذراعه ، حتى إذا بلغا السبابة تنحى البك جانبا حتى تركب أولاً » .

هل يتأتى لك أن ترى والديك فى مثل هذه الصورة ؟ يا لها من خاطرة مضحكة !

أما بداية الحب ، أو أول لقاء . . ففى حين كان فى «المرايا» ، مختصراً ، مبتسراً ، أوجز فيه نجيب محفوظ الواقعة المنشئة وما ترتب عليها من آثار ، حين قال : « رأيتها فى الخطور ثوانٍ ليس إلا ففقدت إرادتى وألقى بى فى طور جديد من أطوار الخلق » . . إذا بكهال عبد الجواد (الذى توارى وراءه نجيب محفوظ) فى « بين القصرين » يستعيد أول لقاء معها حين دُعى (يوماً) مع صديقين من المدرسة إلى قصر صديقهم حسين (آل شداد) . . يا للذكرى ! يكاد القلب من وقعها يقطع ، كنت وحسين واسماعيل وحسن منهمكين فى شتى الأحاديث حين ورد مسامعنا صوت رخيم محيّا ، التفت وأنا من الدهول فى غاية . . من تكون القادمة ؟ . . كيف لفتاة أن تقتحم على غرباء

مجلسهم ؟ .. ثم سرعان ما انقطعت عن التساؤل .. وتناسيت التقاليد جميعاً ..
وجدتني حيال مخلوق لايمكن أن يكون من هذه الأرض جاء .. بدت وكأنها صديقة
الجميع إلآى ، فقال حسين يعارف بيتنا : صديقى كمال .. أختى عايدة .

حين رسم نجيب محفوظ أبعاد أول لقاء ، برّر أسباب وقوعه ، فالיום كان يوم أحد
.. عطلة مدرستها الفرنسية الذى صادف عطلة رسمية لعلها مولد النبى ، وذلك فى
بداية مطلع السنة الثانية من المدرسة الثانوية .

ثم ها هو يشرح ويحلل تأثير (النظرة الأولى) التى لم يخض فى تفسيرها فى «المرايا» :
« من أول نظرة يا قلبى . ما ارتدت عنها عيناى حتى آمنت بأنها زيارة مقيم لا زيارة
عابر ، لحظة خاطفة حاسمة ، ولكن فى مثلها تخلق الأرواح فى الأرحام وتزلزل الأرض
.. ربّاه لم أعد أنا .. قلبى تلاطمه جدران الأضلع ، أسرار السحر تنفث معانيها ،
العقل يتهادى حتى يمس الجنون ، اللذة تسطع حتى تعانق الألم ، أوتار الوجود والنفس
لجود بالنغم المكنون ، دمى بصرخ مستغيثاً لايدرى مم يستغيث ، الأعمى يبصر
والكسبح يسير والميت يحيا ، حلفتك بكل عزيز ألا تذهبى أبداً ، أنت يا إلهى فى
السماء وهى فى الأرض ، آمنت بأن ما مضى من حياتى كان تمهيداً لبشارة الحب .. » .

وإذا كان نجيب محفوظ قد أبرز الفارق (الطبقي) منذ بدء تصوير العلاقة فى « قصر
الشوق » (كما سبق أن فعل فى « المرايا ») ، فكان منطقياً أن يعرض الفارق (العمرى)
بينهما ، فإذا هو فى السابعة عشرة من عمره وهى فى التاسعة عشرة ، أى تكبره بستين
فقط (بينما كانت هى فى العشرين من عمرها فى «المرايا» ، أى تكبره بخمس سنوات) .



والآن ، لتوقف قليلاً أمام عناصر التكوين الفكرى لكمال عبد الجواد (أو نجيب
محفوظ) فى تلك الفترة ، التى أججت نيران هذا الحب العذرى (والتى لم يفصح عنها
فى «المرايا» ، فلجأنا إلى التخمين) . أول هذه العناصر بدت فى سياق تفكيره فيما يرغب
أن يكون فى المستقبل وهو على أبواب حسم اختيار الكلية التى يتوجه إليها : « إن فى
نفسه أشواقاً تحتاج إلى عناية وتأمل حتى تتضح أهدافها » ، « أشواق تهزها مطالعات

شئى لاتكاد تجمعها صفة واحدة : مقالات أدبية ، واجتماعية ، ودينية ، وملحمة
عنتر، وألف ليلة ، والحماسة ، والمنفلوطى ، ومبادئ الفلسفة ، « كان يحلو له أن
يطلق على هذا العالم الغامض اسم «الفكر» وعلى نفسه اسم «المفكر» فيؤمن بأن حياة
الفكر أسمى غاية للإنسان تتعالى بطبيعتها النوراني على المادة والجاه والألقاب وسائر ألوان
العظمة » .

انظر إلى تعظيمه اللانهاى لحياة (الفكر) ، وحين سأل الأب عن مثاله الذى يتطلع
إليه ، فأجابه : « هل من العيب ياأبا أن أتطلع إلى أن أكون كالمنفلوطى يوماً ما؟ »
وحين حدثه أبوه عن مستقبله ثانية ، دافع عن قناعته فى استهانة : «لست أتطلع إلى
شخص المنفلوطى فحسب ، ولكن ثقافته أيضاً » .

انظر هنا إلى قناعته بأن الفكر أسمى غاية للإنسان تتعالى بطبيعتها (النوراني) على
المادة والجاه ، وإلى أن مثله الأعلى هو (المنفلوطى) ، الذى يتطلع أن يكون (مثله) ،
وأن يكتسب ثقافته أيضاً .

إنه منظور (رومانسى) ينجح إلى الخيال ، ويخلق بعيداً عن الأرض ، لأنه : « عرف
الدنيا خيراً وشراً من الكتب وأثر الخير عن إيمان وتفكير » . ويكون منطقياً - بعد
ذلك - أن يكون نموذج المنفلوطى للعاشق الرومانسى ، هو النموذج الذى يتطلع إلى أن
يتلبسه ، وربما دون أن يدري ، ويكون منطقياً بعد ذلك حين رآها (تاكل) أى تمارس
إحدى وظائف البشر الدنيوية - خلال رحلة رافقها فيها إلى الحرم ، مع أخيها وأختها -
أن : « تناوبه شعوران متناقضان ، قلق بادية الأمر وهو يراها تقوم بهذه الوظيفة التى
يشارك فيها الإنسان والحيوان ، ثم داخله شئ من الارتياح لما قربت هذه الوظيفة بينه
وبينها ولو درجة واحدة ا . . . على أن نفسه لم تعفه من علامات الاستفهام عند هذا
الحد ، فوجدتها تدفعه إلى التساؤل عما إذا كانت تؤدي سائر الوظائف الطبيعية
الأخرى؟ . ولم يسهه أن يقول لا ، ولم يهن عليه أن يقول نعم ، فأضرب عن الإجابة وهو
يعانى إحساساً لم يعرفه من قبل تضمن - فيما تضمن - احتجاجاً صامتاً على نوايس
الطبيعة ا » .

ثم يكون منطقيًا (أيضاً) أن يترفع عن ممارسة الجنس حين يدعو صديقه لذلك ، مبرراً رأيه : « إنى أرى الشهوة غريزة حقيرة ، وأمقت فكرة الاستسلام لها . لعلها لم تخلق فينا إلا كي تلهمنا الشعور بالمقاومة والتسامى حتى نعلو عن جدارة إلى مرتبة الإنسانية الحقة ، إما أن أكون إنساناً وإما أن أكون حيواناً . . . » .

وحين أوضح صديقه أن الغريزة ليست شراً خالصاً ، لأنها الدافع إلى الزواج والذرية . . . « خفق قلب كمال خفقة عنيفة لم تجر لفؤاد في خاطر ، أهذا هو الزواج في النهاية ؟ لكنه لم يكن يجهل هذه الحقيقة في جملتها ، وإن كان في حيرة لا يدرى كيف يوفق الناس بين الحب والزواج ، إنها مشكلة لم يرتطم بها في حبه ، لأن الزواج بدا دائماً - ولاكثر من سبب - فوق مرتقى أمانيه ، ولكن ذلك لم يمنع من قيام مشكلة تتطلب الحل . ما كان يتصور أن يكون إتصال سعيد بينه وبين معبودته إلا عن طريق العطف الروحي من ناحيتها والتطلع والهيان من ناحيته ، طريق بالعبادة أشبه ، بل هو العبادة نفسها ، فأى شأن للزواج في هذا ؟ . . .

- الذين يحبون حقاً لا يتزوجون . .

لقد سبق له أن واجه ذلك حين تساءل : « ماذا تروم من حبها ؟ أحب بكل بساطة : أن احبها ، أيجوز أن تنبثق في النفس هذه الحياة كلها ، ثم يتساءل عن غاية وراءها . العادة هي التي ربطت بين لفظي الحب والزواج ، ليست فوارق السن والطبقة هي وحدها التي تجعل من الزواج غاية مستحيلة في مثل حالي . ولكنه الزواج نفسه ، بما يستنزل الحب من سمائه إلى أرض العقود والعرق . . ويسألك الذي يأبى إلا أن يحاسبك ، بم جادت عليك لقاء التهالك في حبها ؟ أجبه بلا تردد : إيتسامة فاتنة ، و«يا كمال» الغالية ، وزيارتها للحديقة في الأوقات السعيدة النادرة ، وثرائها مع الصباح الندى وسيارة المدرسة تمضي بها ، ومعايشتها الخيال في سباحات اليقظة وتهويم الأحلام .

نحن هنا أمام (آلية) تفكير مثالي مغرق في (النورانية) . . يتخذ من المنفلوطي نموذجاً للمفكر الذي يتمنى أن يكونه ، وتصبح أيضاً الصورة التي رسمها المنفلوطي

للعاشق الرومانسى هى الصورة التى يتطلع إلى تحقيقها فى ذاته ، لذا ينأى بنفسه عن العبث المشوب بالسذاجة الدنسة ، ويرى الشهوة غريزة حقيرة ، يجب أن يتسامى الفرد عنها ، فيصبح الحب علاقة عبادة ، حيث يتطلع العاشق ويهيم بمعبودته التى قد تمنحه بعضاً من العطف الروحى ، لذا فإن الذين يحبون حقاً لا يتزوجون ! .

ورغم أن ظروف علاقته الخاصة من ناحية الطبقة والسن ، جعلت فكرة الزواج فوق مرتقى أمانيه ، إلا أن كمال عبد الجواد ، حين أتاحت له فرصة الانفراد بمعبودته ، أفضى لها بحبه (بينما لم تحدث تلك المواجهة فى الواقع أبداً) ، إذا بها تسأله :

« الآن دعنى أتساءل عما وراء ذلك ؟ .. »

تُرى أسمع صوت معبودته أم صدى صوته هو ؟ هذه الجملة بنصها محلقة فى مكان ما من سماء بين القصرين مخنوقة بتهدياته . هل آن له أن يجد لها جواباً ؟ ..

تساءل فى حيرة :

« هل وراء الحب شيء ؟ .. »

ها هى تبسم ، ترى ما معنى ابتسامتها ؟ لكنك غير الابتسام تروم ، عادت تقول :

« إن الاعتراف بداية وليس نهاية . إنى أتساءل عما تريد ؟ .. »

فأجاب بحيرة أيضاً :

« أريد .. أريد أن تأذننى لى بأن أحبك . »

فما ملكت أن ضحكت ، ثم تساءلت :

« أهذا ما تريد حقاً ؟ ولكنك ماذا أنت فاعل إذا لم آذن لك ؟ .. »

فقال وهو يتنهد :

« فى هذه الحال أحبك أيضاً . »

فتساءلت فيما يشبه الدعابة ، الأمر الذى أرجه :

« فيم إذن كان الاستئذان ؟ .. »

حقاً ما أسخف هفوات اللسان ، إن أخوف ما يخاف أن ينحط على الأرض فجأة كما
سما عنها فجأة ، وسمعها تقول :

- أنت تخبرنى ، ويدولى أنك تخبر نفسك أيضاً ؟ ..

فقال بجزع :

- إنى .. حائر ؟ ربما ، ولكنى أحبك ، ماذا وراء ذلك ؟ . بخيل إلى أحياناً أنى
أتطلع إلى أمور تعجز الأرض من حلها ، ولكنى إذا تأملت قليلاً عجزت عن تحديد
هدف لى ، خبرينى أنت عن معنى هذا كله ، أريد أن تتحدثنى وأن أسمع ، هل عندك
ما يتشلى من خبرتى ؟ ..

قالت باسمة :

- ليس عندى مما تسأل شىء ، كان ينبغي أن تكون أنت المتحدث وأنا المستمعة ،
ألسن فيلسوفاً ؟ ..

ثم افترقت عنه فى نهاية الشارع ، شاكرة ممتنة ، مؤكدة أنها لن تنسى عواطفه الرقيقة
المهذبة . وفى الزيارة التالية (مباشرة) لقصرهم أخبره أخوها بخطبتها إلى أحد
الأصدقاء ، وإنهما سيتزوجان ويسافران معاً إلى الخارج ! .

نحن هنا أمام مواجهة بين تفكير (رومانسى) خيالى - يمنح للمثالية المطلقة ، يسمو
فوق غرائز البشر ، التى يشترك فيها الإنسان مع الحيوان ، كغريزة الجوع أو الجنس -
وبين منطق بشرى دنيوى ، يعيش (الواقع) ، ويشبع غرائزه بشكل طبيعى ، وينشد
آمالاً بسيطة سعى إليها آلاف البشر من قبل ، كأن يتوج الحب بالزواج .

إنهما عالمان مختلفان . أحدهما يخلق فى عالم الفكر مشدوداً لأعلى ، والآخر يعيش
على الأرض ، منجذباً إلى أسفل . يمتلك الأول (خيلاً) خصباً جباراً ، يتوهج ويخلق
الأحلام ، والآخر (طبيعى) ، اكتسب من الحضارة الغربية تلقائية التعامل وبساطة
المواجهة . الأول بحكم رومانسيته ، حالم ، حائر ، متردد ، لا يمتلك القدرة على
الحسم ، والآخر بحكم واقعيته ، جرىء ، جسور ، مواجه ، يمتلك القدرة على
الحسم واتخاذ القرار .

لذا كان حتماً أن تفشل هذه العلاقة ، وأن تتزوج معبودة كمال عبد الجواد من آخر ، فتخضع بذلك لكل معطيات الحياة (الدنيوية) من خيانة هذا الزوج لها واضطرارها إلى الطلاق منه غضباً لكرامتها ، لتتزوج بعد ذلك من المراقب الأعلى للهيئة التعليمية ، كزوجة ثانية للمفتش ، ولم تعاشره إلا شهرين ، لأنها ماتت إثر مرضها بالتهاب رئوي ، لتبلغ مأساة الحياة الدنيوية ذروتها ، حين ودّع نعشها ، وسار في جنازتها ، وهو لا يدري أنه يودع ماضيه .



إذا كانت علاقة الحب الأول لنجيب محفوظ . . . لم تعرف أى شكل من أشكال التواصل ، كما قال عنها ، أو أنه كان : « حباً بلا مواقع ولا مواقف ولا تاريخ يذكر » ، كما أوضح في « المرايا » . وإذا كان قد استمر (فعلاً) عاماً إلا قليلاً (جعله نجيب يستمر في الثلاثية ثلاث سنوات) ، وإذا كانت آثاره امتدت في « المرايا » إلى عشرة سنوات ، وارتفعت في الثلاثية إلى سبعة عشر عاماً . فإن جذوة - هذا الحب - استكنت في أعماقه كقوة خامدة ، (أثارت) مخيلته الإبداعية ، فواجه بقوة الخيال الفنى في « الثلاثية » ما لم يستطع - أو لم يتح له - أن يواجهه في الواقع . وربما قدّمت له معالجته الفنية بعض العزاء ، حين أثبت أن هذه العلاقة محكوم عليها بالفشل بحكم تكوينه وتربيته وثقافته الخاصة وثقافة عصره وقيمه العامة . وكما أعلن : « أن التعبير عن تجربة حب بعد الانتهاء منها يظهر كل أبعادها ويبرئها من التحيز ، ويساعد على خلق عمل جديد » (« نجيب محفوظ يتذكر ») ، إلا أن ما لم يذكره ، أنه بإنجاز عمله الكبير في الثلاثية قد خلّد محبته ، وربما حقق حلماً راوده فعلاً في الواقع ، فكتب فعلاً عملاً فذاً هو « الثلاثية » ، مُظهرًا كل أبعاد تجربة حبه ، ومستفيدًا من تجربة طفولته وصباه ، ومحلياً أحد أصدقائه في العباسية كأخ لها ، فتدفق الإبداع الروائي غنيًا هادراً في الجزء الأول « بين القصرين » ، وهو يعنى المسرح ويُعد الأجواء ، لظهور (المعبودة) في الجزء الثانى « قصر الشوق » ، فإذا بتيار القص يرتفع إلى قمم سامقة وهو (يعيش) تجربة حبه ، في وجود المعبودة ، بكل ما اكتشفها من أفراح وأتراح ، من أشواق وإحباط ، من سعادة وآلام . حتى إذا ما اختفت المعشوقة - في نهاية الجزء الثانى - بالزواج والسفر إلى

الخارج في صحبة زوجها ، كان ذلك إيذاناً بفقدان (محفز) الحركة والدافع إلى الإبداع ،
فهذا الجيَّشان وخمد التوهج - ولعلَّ نجيب محفوظ توقف فعلاً بعد إنجاز هذا الجزء -
ولكن كان لابد للفنان أن ينجز ما بدأه ، وريباً بدت له أهمية الانتهاء من (الكتاب)
الذى يحمل بين دفتيه صورة (معبودته) ومعاناة عشقه ، فأكمل الجزء الثالث من
الثلاثية « السكرية » مضطراً ، لاجئاً إلى (الصدقة) كثيراً ، للتغلب على فقدان محفز
الإبداع !! .



■ الفصل الرابع ■

امراة

« كنت فى التاسعة أو العاشرة وكان يكبرنى بخمس سنوات ، وكان وحيد أبويه .
« مضى بى من حارة إلى حارة فى عالم جديد وغريب ومثير . وجرئى من بدى إلى مدخل
بيت آية فى الفراية كان يجلس فى دهليزه ثلاث نساء يبهرن النظر بألوان وجوههن
وملابسهن ولا يبالين أن ينكشف من أجسادهن ما ينكشف فوق السيقان وتحت الأحناق
.. نهضت إليه إحداهن فأجلسنى مكانها » ، « وأوصى بى المرأتين ومضى بصاحبه إلى
الداخل » وإذا بإحداهما تعرض نفسها - متنازلة - مقابل شلن يملكه ، فلما أعطاها
إياه ، أخذته من يده إلى الحجرة ، وأغلقت الباب ، وأمرته أن يخلع بدلكه ، فرفض فزعاً
.. « وإذا بها تنزع ثوبها فتبدو أمامى عارية . رأيت امرأة عارية لأول مرة . ملأتنى
الحركة المفتحة المستهترة فزعاً . وملأنى المنظر الذى رأيت خطفاً فزعاً أشد . تراجعت
نحو الباب وأنا انتفض .. فتحت الباب وهولت إلى الخارج » .

(رواية « المرايا »)

« ثم نزع ثوبها بحركة بهلوانية ووثبت إلى الفراش ففرقع تحت ثقلها ، واستلقت
على ظهرها وراحت تربت بطنها بأناملها المخضبة بالحناء ، إتسعت عيناه إنكاراً ، لم
يكن يتوقع هذه المفاجأة البهلوانية » .

(الثلاثية « قصر الشوق »)

هى (واقعة لا تنس) واجهها نجيب محفوظ (طفلاً) فى التاسعة أو العاشرة من
عمره مع قريب له يكبره بخمس سنوات أسماه « أحمد قدرى » وانظر لمفتاح فصل هذا

الشخص في رواية «المرايا» . . « يقترن أحد قدرى في ذاكرتى بالشهد والفظائر المشلثة والسينما ، كما يقترن بواقعة لا تنسى . أما الشهد والفظائر المشلثة فلأن هذا القريب من أسرة ريفية . والسينما ، تأكيد ، على كثرة ذهابها معاً إليها ، وهو ما استغله - هذا الفتى - كستار لإخفاء حقيقة (الرحلة) التى اقترح القيام بها ، واستأذن أباه في اصطحاب نجيب معه ، واعدًا إتياء إذا ما حافظ على كتمان الأمر بشراء بسكوت له ، على أن يكون الرد البديل أنها ذهبا معاً إلى سينما أوليمبيا وشاهداً فيلماً لشارلى شابلن .

هنا (طفل) في صحبة (مراهق) . المراهق محدد الهدف ، لكنه يلجأ إلى التمويه لإخفاء فعله عن والد نجيب . . هكذا ذهبا معاً إلى بيت فقير من بيوت الدعارة التى كان مصرّحاً لها بالعمل في ذلك الماضى البعيد ، لكن الطفل يلج هذا العالم مندهشاً ، لا يعرف كنهه ، لذابقى منه في وجدانه . . « عالم جديد وغريب ومثير » ، وبيت آية في الغرابة .

هنا مشهد مخزن في (الذاكرة) بكل دقائقه ، فإذا ما (استعاده) ، فإنه يتجسد متدفقاً ، هادراً ، دون علامات ترقيم : « وجرتى من يدى إلى مدخل بيت آية في الغرابة كان يجلس في دهليزه ثلاث نساء يهرن النظر بألوان وجوههن وملابسهن ولا يبالين أن ينكشف من أجسادهن ما ينكشف فوق السيقان وتحت الأحناق » .

ذهب المراهق مع إحداهن ، بعد أن أجلس الطفل مكانها ، أمراً إتياء ألا يتحرك من مكانه حتى يعود ، كما أوصى به المرأتين الأخريين .

هنا (طفل) في حضور امرأتين ، داخل نطاق منطقة عملها الذى يرتزقان منه ، إحداهما تغنى . . « يوم ما حضنتى العضة » . بها لها من إيجاء جنسى قد لا يفطن له الطفل ، الذى يراوده شعور بأنه تورط دون إرادة منه ، وأن مخالفة خطيرة ترتكب على كعب منه . لذا ركز نظره في بلاط الدهليز متجنباً النظر إلى المرأتين . لكن العمل عمل ، حتى لو كان من يجاورهما مجرد طفل ، فهو في نهاية الأمر (ذكر) . لعل ذلك ما دار بخلد المرأة الأخرى ، التى لا تغنى ، لأنها سرعان ما سألته :

« هل معك نصف ريال ؟ . . »

فأجبت بالنفى فسألت :

- كم معك ؟ ..

فأجبت بخوف وأدب :

- شلن .

- حال ، نحب أفرجك على شيء لطيف لم تره ؟ ..

- ولكنه قال لي ألا أتحرك ..

- دقيقة واحدة في هذه الحجرة أمامك ..

- كلا ! ..

- لا تخف ، مم تخاف ! .

هذا الحوار (التمهيدى) يكشف عن (خوف) الطفل مما هو مقبل عليه ، أو هو خوف من ذلك المجهول الذى لم يره ، وستفرّجه عليه المرأة . وهو أيضاً (خوف) من المكان (الغريب) ومما يحدث فيه فى (الخفاء) . لقد أدركت المرأة بخبرتها خوفه فكشفت له أمام نفسه من ناحية ، مطمئنة إتياء من ناحية أخرى ، فحضرته إلى رد فعل تلقائى بالدخول فى التجربة . وحتى تقضى على آخر معاقل مقاومته (أخذته) من يده ، وأغلقت الباب ، طالبة منه الشلن (فهى تلتزم بتعاليم المهنة بالدفع مقدماً !) . فأعطاه إتياء بلا تردد (هل ليتخلص من إلحاحها ؟ ، أم ليشرح فضوله بمعرفة ما وعدته به ١٩) فلما طلبت منه أن يخلع بدلته ، رفض فزعاً (ربّما لأنه شعر أن هناك شيئاً رهيباً محظوراً مريباً سيفزع ، ومطلوب منه أن يشارك فيه) . « فإذا بها تنزع ثوبها فتبدو أمامى عارية . رأيت امرأة عارية لأول مرة . ملأتنى الحركة المقتحمة المستهترة فزعاً . وملأنى المنظر الذى رأيته خطفاً فزعاً أشد . تراجعت نحو الباب وأنا انتفض » .

لتوقف قليلاً فى هذا المشهد الخاطف أمام تكرار مفردتين : فزعاً (ثلاث مرات) . عارية (مرتان) . هنا طفل تفتح أنظاره على ما حوله ، ذو خبرة محدودة عن عالم البنات - وليس المرأة - استمدّها أساساً من مجلة « الأولاد » وما يسمعه من حكايات

يطعمها أو يغذيها بخيال خصب . إنه يحاول أن يفهم هذا (الجنس) الآخر ، المغلق ، المجهول حتى أنه يتخيل أن جسد «دورا» - بطلة قصص المغامرات في مجلة الأطفال التي طالما شغف بها - من الماس النقي ، فإذا بهذا (الآخر) الخيالي يتجسد (وجوداً) ، (عرباً) كاملاً ، مقتحماً مستهتراً .

إنها صدمة المواجهة القاسية بين خيال بكر وواقع فظ ، لذا كان (منطقيًا) أن يتصاعد ذعر الطفل ، حتى ينفلت هارباً وهو يتفض ، تتبعه ضحكاتها المائعة المتموجة كثعبان (انظر لضراوة التشبيه : إنه مازال مطارداً بالشر الخبيث ، القاتل ، كما يتخيله ابن المدينة) ، حتى إذا ما دعتة الأخرى للجلوس ، استمر واقفاً وسط الدهليز . . « لا أريد أن ألمس شيئاً ولا أريد لشيء أن يلمسني » ، تأكيداً لانغلاقه على ذاته ، رافضاً التعامل بشكل كامل ونهائي مع هذا الوسط الذي يحاصره بكل ما فيه .

هكذا استقرت تلك (التجربة) المريرة في أعماق (ذاكرته) ، وإن حاول أن يتناساها أو أن يغتفرها لقريبه . وانظر لتعقيبه الاستدراكي لسرده للواقعة . . « ولكن بصفة هامة كانت أيامه في القاهرة من أسعد أيامي » .



في فصل « سيد شعير » من رواية «المرايا» (١٩٧٢) أزاح الفنان نجيب محفوظ الستار عن مصدر هام لخبراته عن عالم البغاء ، وهو صديق العباسية وزعيم جماعة الأصدقاء الذي كناه « سيد شعير » ، بعد أن عرف - ذلك الصديق - السبيل إلى عالم البغاء كمحترف : « ودعانا إلى الطواف بمملكته الجديدة . . تخلف عن الدعوة سرور عبد الباقي ، وذهبنا مدفوعين بحب الاستطلاع والرغبات المكبوتة وسحر المغامرة . وتذكرت في الحال تجربتي مع قريبي أحمد قدرى ، وعثرت على البيت ، ودهشت للوجوه الجديدة التي طالعتني » .

لقد غور نصل تجربة طفولة نجيب محفوظ عميقاً في وجدانه ، حتى إذا ما اتبحت له الفرصة لزيارة ذلك الحى ، استعاد فوراً تجربته السابقة ، وبحث عن البيت حتى وجدته (كان يبحث عن جزء هام من طفولته يجعل له تجربة مريرة ، إثر صدام مزروع بين خيال

بكر وواقع قاس ، وربما كان بحثه يعكس رغبة دفينه في مواجهة ذلك العالم وهو كبير بالغ ، بعد أن هرب منه صغيراً مذعوراً !) . واندھش للوجوه الجديدة التى طالعتہ (لأن التجربة القديمة ظلت حية محفورة في أعماقه بشخصياتها ، لا يستطيع أن ينساها ، لذلك حين وصل إلى البيت القديم ، كان يتظر أن يرى ذات الوجوه التى هرب منها طفلاً ، ولم يفطن - لحظتها - إلى مرور الزمن ، وإلى طبيعة المهنة ، وأن لا شيء يبقى على حاله القديم !) .

إذن ، كان حتماً - بعد أن تعرّف نجيب محفوظ على تقاليد وأسرار عالم البغاء من خلال ذلك الصديق - أن يضع (تجربته) السابقة في محك (معرفته) التى اكتسبها ، حتى إذا ما واجه بطل الثلاثية كمال عبد الجواد (الشاب البالغ الناضج) موقفاً مشابهاً في الجزء الثانى من الثلاثية (قصر الشوق) ، فإذا بتجربة نجيب محفوظ السابقة ، المستكنة في أعماق (ذاكرته) تستعاد هنا ، بعد أن يتعهدا بها اكتسبه من (معرفة) ، ليعيد فحصها (فنياً) .

في البداية يوضح نفس (الثمن) : « حسناً ، هنا في متناول اليد ، تجود بحسنها وأسرارها نظير عشرة قروش لا غير ، فمن كان يصدق هذا قبل أن يراه » . وإذا بمشهد المكان يكاد يتشابه مع (نفس) المكان القديم ، وإن أضافت له يد النضج والخبرة لمسات هنا وهناك . . « على الجانبين بدت مضيفات الطريق قائلات وقاعدات يقلبن في وجوههن المقتنعات بالزواقي الفاقع أعين الترحيب والإغراء ، ولا تمض آونة حتى يمرق أحدهم من التيار إلى إخداهن فتبعه إلى الداخل وقد مسحت من عينيها نظرة الإغراء لتحل محلها نظرة الجلد والعمل » .

ولأن نجيب محفوظ سبق أن (خبر) هذا الواقع من قبل ، فإنه يضع بطله الشاب في حالة (سكر) حتى يستطيع أن يتقبل هذا الواقع . . ولتتبع الموقف بعد أن أغلقت الباب . . « واجهته وراحت تقيسه بعينيها طولاً وعرضاً » . . (انظر للموقف المثل في تجربة طفولته . . « قالت وهى تمسحني بعينيها ») . وإذا هو مصمم على تذليل العراقيل ، فبدأ حواراً (موازياً للحوار السابق التمهيدى) :

« قال باسمًا فيما يشبه السذاجة : أنا اسمي كمال . .

فحدجته بنظرة داهشة وهي تقول :

- تشرفنا ! .

- ناديني ا قولى « يا كمال » ! .

(أراد من الداعرة أن تناديه باسمه آملاً أن تصبح هي البديل لحبه المفقود ، أو لعله يستعيد معها نداء محبته : « يوم نادت « يا كمال » أسكرتك وأنت لا تدري ما السكر » .

« فقالت وما تزداد إلا دهشة :

- لماذا أناديك وأنت أمامي كالرزنة ؟ . .

أهوذ بالله ! ترى أنمازحه ؟ . . وازداد تصميًا على إنقاذ الموقف ، فقال :

- قلت لي انتظر ، ماذا انتظر ؟ . .

- في هذا لك حق . . . » .

هنا شاب ناضج يخوض غمار عالم البغاء للمرة الأولى ، مسلحًا بقليل من الخمر . هو يريد علاقة إنسانية (يتخيلها) ، وهي تمارس عملاً (واقعياً) . طريقان مختلفان . .

« قالت ذلك ، ثم نزهت ثوبها بحركة بهلوانية ووثبت نحو الفراش ففرقع تحت ثقلها ، واستلقت على ظهرها وراحت تربت بطنها بأناملها المخضبة بالحناء . اتسعت عيناه إنكاراً ، لم يكن يتوقع هذه المفاجأة البهلوانية ، وشعر أن كل منهما في واد ، وما أبعد المدى بين وادي اللذة ووادي العمل . انهدم في لحظة ما أقامه الخيال في أيام ، وجرت مرارة الامتعاض في ريقه ، غير أن الرغبة في الاكتشاف لم تفر فغالب انزعاجه ثم حرك ناظره صوب الجسد العارى حتى استقر على هدف وبدأ حيناً كأنه لا يصدق عينه ، وأحد بصره في انزعاج وتقرز حتى شعر في النهاية بما يشبه الرعب » .



هنا تواز في (جوهر) كلتا الواقعتين ، طفل وشاب في مواجهة امرأة محترقة عارية للمرة الأولى ، تتكشف أبعاد الأولى بمقارنتها بمعالم الثانية : فالطفل ببراءة تبع قربه واثقاً منه سعيداً بصحبته ، ليفاجأ بتجربة لم يكن مهتماً لها . أما الشاب كمال عبد الجواد فقد ذهب إلى هناك طائعا مختاراً واعياً بما هو مُقدم عليه .

الطفل خام ، بكر ، يفتح وعيه على ما حوله ببطء ، (معرفته) عن عالم البنات محض خيال كامل ، مستمد من قراءة مجلة مغامرات للأطفال : حتى أنه (تخيل) بطلة المغامرات المصورة التي طالما شغف بها من الماس النقي . أما كمال فقد باشر بعض تجارب المراهقة مع بنات الجيران ، ثم خاض تجربة حب عذرى مرير ، انتهت بفشل كامل حين تزوجت محبوبته فكانت تجربة قاسية في خضم فترة تحول من خيال ومثالية كاملة إلى واقع وحقائق علمية .

الطفل دخل حجرة المرأة مدفوعاً حين عثرته المرأة بخوفه وأخذته من يده ، وإن ظل الفضول حافزاً حتى يتفرج على شيء لطيف لم يره من قبل . أما الشاب فقد دخل إلى الحجرة بعد أن تهاى نفسياً ، متعباً على الإقدام ببعض الخمر ، بعد أن رسم صورة كاملة لما سيجري في خياله ، محاولاً إحلال المرأة المجهولة محل الحبيبة المفقودة .

أمام عرى المرأة ، كانت صدمة الطفل كاملة ، رهية ، مروعة . صدمة ارتطام بين خيال كامل من البللور النقي ، الطاهر أمام واقع فج مستهتر ، ولأنه كان طفلاً ، كان منطقياً أن يسيطر عليه فزع غامر يتصاعد حتى انفلت هارباً ، رافضاً ما يراه رفضاً كاملاً ، امتد ليشمل كل ما في ذلك البيت ، ولتبق في (ذاكرته) واقعة لا تنسى . أما الشاب فإن صدمته بدأت منذ أن تبادل الحوار معاً ، حين كان يأمل أن يسمع اسمه وهي تناديه كما فعلت محبوبته من قبل ، فإذا بها تصفحه رافضة وهي تُشبهه بالرزبة ، لذلك كان منطقياً حين واجه عريها أن ييوخ حلمه ويتخبر على مذبح بهلوانيتها ، فيشعر بمرارة الامتناع ، ربما بسبب من بقايا مثالية أو رومانسية سابقة ، لكنه استمر يحفز الفضول محملاً في جسدها العاري ، ليتزعج ويتقزز حتى انتابه رعب (كأنه فزع الطفل القديم) ويفكر في الهرب ، إلا أنه كشاب له بعض التجربة أقنع نفسه بالاستمرار متأثراً بالآخرين .

بعد أن واجه الفنان نجيب محفوظ مخاوف طفولته ، وخاصةً بطله كمال عبد الجواد مع عالم البغاء كاملة ، كان لابد أن يقدم تنويعاً أخرى ، أو الوجه المقابل لها ، وهو ما فعله في قصة « العالم الآخر » - مجموعة « شهر العسل » (١٩٧١) ، وهي تحكى قصة طالب برىء قليل الخبرة ، وقع شارع كلوت بك (موطن البغاء) في قرعته ضمن منطقة من الحى ، لحض الأهالى على الأضراب في اليوم التالى ، لأنه ذكرى مرور عام على إلغاء الدستور ، فلا تفهمه المعلمة ولكن تابعها يتعرف فيه على زميل الدراسة القديم ، ثم يدعوه أن يقضى وقتاً ممتعا مع الراقصة ، لكن الطالب يمد يده إلى حلية في عنقها فيها صورة طفل ، وحين يسألها عنه تبكى المرأة ، فإذا ما شاهد التابع بكاءها سارع إلى زجرها وصفعها بقوة . ثم يقدم لها كأساً ويدفع الطالب إلى اصطحابها ، لكنه يرفض ، فيحاوره :

« - لقد سجل في حسابها أول زبون فلا تسبب لها في ضرر .

- سادع ما تطلبه ، ولكنى لن أذهب .

- عشرة قروش ، هذا حسن ، ولكنك لن تستطيع مواجهة الحياة بقلب كالملمن ! »

إن نجيب محفوظ يعاود العزف على ذات التيمة مرة أخرى . وانظر إلى التقابل الكامل بين براءة طالب خام ، ساذج ، وخبرة التابع الضليع المحنك . هذا التقابل فى أقصى درجاته يتجأ أبعد الأثر ، بل نكاد نتلمس فىها نفس براءة الطفل الغرير ، وخبرة قريه الشاب ، ولكن بشكل أكثر تركيياً ونضجاً . وإذا كان الطفل لم يفهم عالم المرأة حينذاك ، فإن الطالب هنا - قدم لمسة إنسانية ، موحية ، حين سألها عن صورة طفل تحملها فى حلية حول رقبتها ، فأثار بكاءها . إننا لم نعرف مأساة المرأة - ولن نعرفها أبداً - لكننا شعرنا بوجود مأساة كامنة دفعتها إلى تلك الهاوية ، حين أوحى بلبقطة ولم يفصح عن أبعادها . ومن ناحية أخرى قدم فسوة هذا الواقع فى ملمحين وامضين : حين صفعها التابع ثم قدم لها كأساً لتستأنف عملها ، فتاست المرأة مشاعرها وراحت تداعب الشاب بإغراء ، أما الملمح الثانى فلا نستطيع أن نستوعبه إلا فى ضوء تراكم خبرة نجيب محفوظ - فى ذلك المجال - طفلاً ثم شاباً ناضجاً - لقد دخل الطفل

(التجربة) لكنه هرب من مواجهتها ، كما دخل كمال (فى الثلاثية) التجربة وباخ حلمه وتبخر على مذبح بهلوانية المرأة . لذلك كان منطقياً أن يرفض الطالب الساذج (امتداد الطفل ثم الشاب كمال) أن يخوض غمار تجربة سبق أن عركها ، وقيل - طائفاً - أن يسدد الحساب فى عمل لا مجال فيه للعواطف البشرية . عندئذ عقب التابع ساخرًا أنه لن يستطيع مواجهة الحياة بقلب كالملمن ا .

أما فى رواية « قشمر » (١٩٨٩) ، التى قدّم فيها أربعة من أصدقاء العباسية (إسماعيل قدرى ، طاهر عبيد ، حمادة الحلوانى ، صادق صفوان) وهم فى طور المراهقة ، وفيها يتزّيا صديق نجيب محفوظ السابق ومصدر خبراته عن عالم البغاء - الذى كنّاه «سيد شعير» فى « المرايا » - باسم جديد هو « الصبّاغ » (الذى يبرز فى الرواية فجأة!) : « وذات يوم جاءنا الصبّاغ بكتاب منسائلاً :

- هل سمعتم عن هذا الكتاب ؟ ..

غلافه من الخارج يدل على أنه كتاب تاريخ ، وقد غُطّي به لإخفاء عنوانه الحقيقى وهو رجوع الشيخ . ونصحنا بقراءته سرًا . تبادلناه واحدًا بعد الآخر . مررنا بسرعة على أبوابه لنقع فى قبضة حكاياته . أجبجت نيراننا وأمدّتها بوقود من المفاريت . لما تأكّد الصبّاغ من ضياع العقول شرع يحدث عن حى البغاء ، وسأله صادق ذاهلاً :

- والحكومة تعلم ؟ .

فأجاب بنبرة خبير :

- الحكومة تعطى الرخص ولتحفظ الامن بالمكان ..

.. ويوم الخميس عدلنا عن سينما المنظر الجميل إلى كلوت بك .

انظر لهذه النقلة الغريبة .. إننا لن نستطيع أن نفهمها إلّا على ضوء مشهد آخر مستعاد فى قصة « رحلة - مجموعة خمارة القط الاسود » (١٩٦٩) ، وفيها عجوز يعود إلى بيت طفولته الذى اندثر فى الحى القديم ، وهناك يستعيد صديق طفولته أو زعيم جماعة

الأصدقاء « الشريينى » (وهو نفسه « سيد شعير » . انظر فصل « زعيم جماعة أصدقاء العباسية ») : « وما زال يقودنا من فتح إلى فتح حتى قال لنا ذات يوم :

- إنكم لا ترون المرأة إلا وراء الشيش أو فى ملاءة مثل زكية الفحم ا .

تطلعنا إليه باهتمام ... أجل تطلعنا إليه باهتمام فقال :

- سنرونها بلا حجاب ولا حاجز ولا تمنع ا .

تجلى الشك فى الأعين فقال بمباهاة :

- موعدا يوم السينما ، وليرتد كل منكم جاكته فوق جلبابه . . . » .

هكذا تتسق الأمور وتستقيم المعانى (لعل هذا يؤكد إمكانية قراءة أعمال الفنان كعمل واحد ، تتناثر خبراته بين وحداته المختلفة) . .

« تقدم وسرنا خلفه ونحن من الدهشة فى غاية ومن الخوف فى نهاية . هذه البيوت القديمة مرصعة مداخلها بالنساء من كل شكل ولون » . . (هنا استمرار لذات مشهد العرض « الانثوى » السابق ، ولكن الجديد هو استخدام مفردة « مرصعة » ، حيث أضحت مداخل تلك البيوت كأجساد النساء حين تزينها الحلى ، وهو تشبيه يعكس تحول الجسد البشرى إلى « أشياء » لتجميل مظهر المكان ، وإن كانت غالية القيمة ا) .

وبدا تردد الأصدقاء لوجودهم فى هذا الموضع المشبوه حتى . . « وجدنا أن الاختفاء فى بيت أخف من البقاء وسط الجمهور » . هنا (يقطع) نجيب المشهد ، لتمضى فترة زمنية ، فإذا هو يتقل مباشرة إلى (الخارج) ، لتبرز النتيجة بعد أن أسقط التجربة ولم يعرضها مباشرة من الداخل ، وهو ما سبق أن فعله مرتين من قبل ، فالفنان الحق لا يكرر نفسه أبدا : « والتقينا عند رأس الطريق ونحن نتبادل نظرات باهته ولزمت الصمت حتى جمعنا مائدتنا فى قشعر . واعتبر صادق وطاهر أنها التجربة الأولى والأخيرة ، وكان اعتراف صادق : من ناحية الجمال لا بأس بها ، الحجرة على البلاط ، فراش ومرتبة وكنبة قديمة ، أشارت إلى طبق صاج فوق الكنبه ، وطلبت بقلة ذوق أن أضع النقود ، ووضعت النقود ، وبسرعة نزهت الفستان الأحمر عن جسد عار ، استلقت

مشيرة يدها إشارة تدل على السرعة ، أنا بردت وكأني ما عرفت الشهوة ، قلت بأدب :
أشكرك أنا ذاهب » . .

أما طاهر فقال : « وجدت فلاحه على ذقنها وشم باسمة الثغر ، اتجهت نحوها
فسبقتني إلى السلم ، لم أهتم بالحجرة ، قالت لي : أنت مثل بغل رغم صغر سنك ،
وضحكك فضحكك ولكنتي تضايقت ، وبردت كما برد صادق ، وشعرت بغربة
شديدة . وسرعان ما تغير رأيي فقلت لها : لا مؤاخذه أنا غير مستعد هذه المرة .
فقلت : أنت حر ولكن لابد من الدفع ، فدفعت القروش وأسرعت نحو الباب وهي
تقول لي : لك قفا يُغرى بالصفع فزدت سرعني كالهارب » .

ورغم أن الصديقين الآخرين أتمّا العملية ، إلا أن اعتراف صادق وطاهر يتضمن
أهم جوانب تجربة نجيب محفوظ (طفلاً) أو (كمال / شاباً) بعد ذلك ، وهي : فقر
الحجرة الشديد ، العرى الفج لجسد المرأة ، الاهتمام بتحصيل (الثمن) ، اللسان
اللاذع ، الإحساس الحاد بالاغتراب والرغبة في الهرب ، حتى إن صادق صفوان هو :
« الوحيد الذي لم يكرر التجربة بعد أن أثار الحى كله اشمئزازه ولم يتفق مع تدينه
وذوقه » . أما طاهر فكان رأيه : « هذا معرض للنساء والرجال في غاية الشذوذ والسوء ،
فعلى مريده أن يفقد وعيه أولاً قبل أن يقدم عليه » ، وهو ما فعله فعلاً كمال (في رواية
« قصر الشوق ») عند إقدامه على دخول ذلك المكان .



تأثر نجيب محفوظ بتجربة زيارة بيت البغاء برفقة قريبه تأثيراً شديداً ، لقسوة الصدام
بين بكاية الخيال وفجاجة الواقع ، فعاشت في (ذاكرته) واقعة لا تنسى ، تؤرقه ،
تنغص عليه (أوضحها في سياق حديثه عن قريبه الذي كناه أحمد قدرى في « المرايا » -
١٩٧٢) . وبعد أن انتقل إلى العباسية مع أسرته (١٩٢٤) ، أتيح له خلال فترة
مراهقته أن يعود إلى ذات البيت ، الذي سبق أن زاره طفلاً ، وذلك في رفقة زعيم جماعة
أصدقاء العباسية (الذي كناه « سيد شعير » في « المرايا » - ١٩٧٢) ، وزار حتى
البغاء ، وانعكس تأثير تلك الزيارة مرتين : الأولى حين أتيحت له الفرصة وهو يكتب

الثلاثية (جزء « بين القصرين ») في بداية الخمسينات فطرحها في سياق تجارب كمال عبد الجواد منقبا ، مشرّحا ، محاولا أن يُلم بها وراءها ، وأن يتفهم أبعادها ، وأن يستوعب أشجانها على مرآة شخص ناضج ، بعد أن استعان بقليل من الخمر للإقدام على الفعل ، إثر تجربة حب فاشلة ، آملا أن يجد بين يدي المرأة تعويضا وعزاء ، لكن تجربته سرعان ما باخت . والمرّة الثانية ، حين قدّم الوجه الآخر ، المقابل (قصة « العالم الآخر » - مجموعة « شهر العسل » - ١٩٧١) حين رفض الطالب (البريء) الدخول في التجربة ، كامتداد إضافي واع لتجربة طفولته . ثم عاد ليقدّم تنويعا جديدة (في آخر أعماله - رواية « قشمر » - ١٩٨٩) يدعم بها رؤيته ، بنتيجة تجربة أصدقائه (الآخرين) ، فالفنان يطرح على بساط فنه ما يؤرقه أساسا ، محاولا أن يفحص جوانبه وأن يستقصى أسبابه ، في تنويعات فنية متباينة ، ليستمتع القارئ بشذاها الباقي . . .
الآن .



الباب الرابعة

الحياة والإبداع

الفصل الأول : رحلة القراءة والبدايات

الفصل الثاني : اكتمال النضج

الفصل الثالث : أساليب الكتابة

■ الفصل الأول ■

رحلة القراءة والبدايات

١ - بدأت قراءتي بالروايات البوليسية . . (سنكلير) ، (جونسون) ، (ميلتون ثوب) وغيرها من الروايات التي كان يترجمها حافظ نجيب بنصرف ، وكانت متشرة هي وأمثالها في أيام طفولتنا ، ولم تكن هناك بالطبع كتب خاصة بالأطفال على أيامنا . لذلك كانت هذه الروايات هي كل قراءتي الأولى في أواخر المرحلة الابتدائية وأوائل الثانوي .

● وهل تذكر كيف اهتديت إلى هذه الروايات ؟ .

- لا أذكر عل وجه التحديد ، ربما استعرت أول رواية من زميل لي في المدرسة الابتدائية ، فاهجبتني وعرفت أماكن شرائها . . .

(من حوار لنجيب محفوظ مع فؤاد دواره - مجلة الكاتب بنابر ١٩٦٣)

« يحيى مذكور أمهر لاعب كرة في مدرستنا ، وصديقي المفضل في المدرسة الابتدائية . أجده يوماً يقرأ كتاباً في الفسحة فأسأله :

- ما هذا ؟ . .

- ابن جونسون . . الحلقة الأولى من سلسلة بوليسية جديدة . .

ويعبرني الكتاب بعد فراغه ، فأقرأه بسعادة لم أجده مثلها من قبل »

(الحكاية رقم (٢٠) من رواية « حكايات حارتنا »)

هى واقعة بدء حب القراءة عند نجيب محفوظ ، صاحبها رفيق طفولته فى المدرسة الابتدائية ، كما أوردها أولا نجيب محفوظ فى حوار مع فؤاد دواره بمناسبة بلوغه الخمسين (١٩٦٣)، ثم وسّع الواقعة مكنيا إياه (يحى مذكور) فى رواية « حكايات حارتنا » (١٩٧٥).

من هو رفيق الطفولة هذا ؟ وهل له وجود واقعى فعلا ؟ .

كيف كانت أهم ملامح معالجة نجيب محفوظ لتلك الواقعة وهذه الشخصية ؟ . .

كيف تطورت قراءاته بعد ذلك ؟ . .

وكيف صارت مدخلا لعالم الكتابة ؟ .



لعل سؤال فؤاد دواره كان حافزا لنجيب محفوظ لانتشال تلك الواقعة من مخزون طفولته المنسى ، وبعثها حية فى الحكاية رقم (٢٠) من « حكايات حارتنا » ، حتى إذا ما طرح عليه جمال الغيطانى ذات السؤال ، فى كتاب « نجيب محفوظ يتذكر » (١٩٨٠) فإن إجابته سرعان ما ترسم نفس الواقعة بعد أن تضيف عليها أبعادا واقعية : « فى أحد الأيام رأيت أحد أصدقائى واسمه يحى صقر يقرأ كتابا ، رواية بوليسية عنوانها « ابن جونسون » ، ويحى هذا قريب لعبد الكريم صقر لاهب الكرة المشهور . سأله :
- ما هذا ؟؟ . .

قال إنه كتاب ممتع جدا . .

استمرته منه ، قرأته واستمتعت به للغاية ، كان ذلك ونحن طلبة فى السنة الثالثة الابتدائية . بحثت عن روايات أخرى من نفس السلسلة ، ثم تساءلت ، إذا كان هذا ابن جونسون فأين جونسون نفسه . بحثت ووجدت سلسلة أخرى من الروايات بطلها الأب . كانت هذه أول روايات قرأتها فى حياتى ، كان عمري حوالى عشر سنوات .

والآن ، لنمعن النظر ، ولنقارن بين مقاله نجيب محفوظ عام ١٩٦٣ ، وما كتبه عام ١٩٧٥ ثم ما قاله - بعد ذلك - ونشر عام ١٩٨٠ . حين تحدث نجيب محفوظ عن

بداية علاقته بالقراءة وتطورها : كانت رؤية البداية عامة ، غائمة ، غير محددة بدقة . ولكن لعل هذا السؤال كان حافزا ، محركا له للنش في أعماق ذاكرته ، والإلمام بأبعاد تلك التجربة ، حتى إذا ما فكر في الكتابة عنها ، كان قد استعادها كاملة ، فسلط أضواء ساطعة ، مركزا على واقعة دخوله عالم القراءة في الحكاية رقم (٢٠) من «حكايات حارتنا» فإذا ما سُئل عن نفس الواقعة ثانية بعد ذلك ، كان منطقيا أن يعلن اسم بطلها الحقيقي محتفظا بنفس اسمه الأول ويردها بنفس التفاصيل التي سبق أن أوردها بها في رواية «حكايات حارتنا» ، لأن الواقعة ما زالت حية ، حاضرة ، مهيمنة على خياله .

أما مكان تلك الواقعة فكان المدرسة الابتدائية ، حين كان نجيب محفوظ تلميذا - وليس (طالبا) - في السنة الثالثة الابتدائية ، في العاشرة من عمره (تقريبا) .

لكن لابد أن نتوقف قليلا أمام منشاء تلك الواقعة ، ففي حوار (١٩٦٣) يذكر نجيب محفوظ أنه رثيا استعار أول رواية من (زميل) له في المدرسة ، أما في الحكاية رقم (٢٠) من «حكايات حارتنا» (١٩٧٥) فإنه يكتب (صديقي المفضل) ، وكذلك في حوارهِ بعد ذلك « رأيت (أحد أصدقائي) .. »

قد يبدو الأمر للوهلة الأولى ، وكأن هناك تناقض ما بين (زميل) ، و(صديقي المفضل) و (أحد أصدقائي) ، ولكن التعليل يكمن في أنه خلال إجابته الأولى كانت شخصية ذلك الرفيق ماتزال غائمة ، غير محددة لذا بدا (زميلا) ، ولكن بعد التدقيق الخاص بالكتابة اكتشف نجيب محفوظ أنه (صديق) ، ولعله فضله اعترافا بفضله لإدخاله إلى عالم القراءة الرحب . فكان منطقيا في الحوار التالي أن يرتد إلى مكانه الطبيعي كواحد من زمرة أصدقاء نجيب محفوظ . أما لماذا تم إحلال (صديق) محل (زميل) ، فالتعليل يكمن في نشأة نجيب محفوظ ذاتها والدور الخطير الذي لعبته (الصداقة) فيها ، والذي يتضح من حوارهِ مع صبرى حافظ (مجلة الآداب البيروتية / يولييه ١٩٧٣) حين قال : « حين بلغت مرحلة الصبا كان إخوتي البنات قد تزوجن جميعا ، وكان أخى الأكبر قد وظف وتزوج واستقل بأسرته وبيته ، وكان أخى الآخر قد

تخرج ضابطا وذهب إلى السودان . وكانت علاقتى بإخوتى من نوع خاص . . . كان
تصورى لهم مثل تصور الابن للأب والأم ، لا تصور الأخ للإخوة . . . فليس لى أخ أو
أخت لعبت معهم أو خرجت بصحبتهم فى نزهة أو أفضيت لهم بأسرارى . وكان هذا
الحاجز بينى وبينهم كالحاجزين الطفل وأبويه .

لذلك لعبت الصداقة فى حياتى دورا كبيرا منذ من مبكرة للغاية . فقد قامت بدور
البديل الضرورى لهذه الأخوة المفقدة . . .

هنا لابد أن يبرز سؤال جوهري : لماذا تُشكّل واقعة ولوج عالم القراءة كل هذا
الاهتمام ؟ . . .

تكمن الأجابة فى شروط عملية القراءة نفسها فإذا كان الكاتب (المبدع) يبدأ من
الواقع من خلال تجربة معينة أو واقعة محددة أو صورة أو فكرة ، وبواسطة مخيلته
الأبداعية وبعد فترة اختار مناسبة ينضج العمل الأدبى على شكل بناء من الكلمات ،
يقوم القارئ باستقباله بالقراءة ؛ ليعيد بناء الأحداث والشخصيات التى تؤلف
القصة ، وفق إمكانيات القارئ الثقافية وخبراته الخاصة ومحيط المجتمع الذى يعيش
فيه .

هنا يلعب (خيال) القارئ دورا رئيسيا ، ولتبع نجيب محفوظ ، وهو يوضح هذا
الجانب : « كنت أقرأ روايات جونسون على أنها حقائق ، ولهذا كنت أكاد أبكى
وأضحك طبقا لتغير الموقف من رواية إلى رواية » (« نجيب محفوظ يتذكر » ص ٦١ :
جمال الغيطانى) .

إن (خيال) نجيب محفوظ طفلا ، كان متجاوبا مع هذا العالم (الجديد) بشكل
كامل ، حتى أنه كان يكاد يبكى أو يضحك طبقا لتغير الموقف . وهل نتجاوز
(الحقيقة) إذا قلنا إنها (موهبة) نجيب محفوظ (الكامنة) وجدت متفصّلا لها من خلال
القراءة ، فتدفقت بعنف هادر ، حتى أنه انتقل بتجاوبه إلى الأفلام السينمائية : « كنا
نذهب كل يوم جمعة إلى سينما « أوليميا » فنشهد أفلام المغامرات العنيفة ، ونخرج لنجد
هذه الروايات معلقة تحت بواكى شارع محمد على فنشتريها لنعيش مرة أخرى فى هذا

الجو الصاحب العيف الذى يصنعه فى أخيلتنا أبطال القصص والأفلام

(من حوار مع فؤاد دواره - مجلة « الكاتب » يناير ١٩٦٣)

لذلك كان منطقياً حين (أبدع) نجيب محفوظ الحكاية رقم (٢٠) من رواية « حكايات حارتنا » عن واقعة دخوله إلى دنيا القراءة أن يكون بناء الحكاية متوازناً ، كاشفاً للمهارة أو الموهبة التى تميز بطل القصة - وانظر لفتح القصة وختامها - فى المفتح : « بحى مذكور أمهر لاعب كرة فى مدرستا ، وصديقى المفضل ... » .

هنا لاعب كرة موهوب ، ماهر ، وقارئ روايات . بينما نجيب لاعب كرة ، يبدأ التعرف على عالم الروايات . فإذا بنجيب ينتقل من كتاب إلى كتاب ، ويصبح (مدمناً) للقراءة ، ليختم الحكاية : « وأصير مع الزمن بطلاً من أبطال القراءة ، أما صديقى فيهجرها سريعاً ثم يتربع على عرش الكرة » .

هنا تطور منطقى ، الصديق موهوب فى الكرة ، يهجر القراءة ، ليتربع على عرش الكرة . أما نجيب الذى اكتشف إمكاناته فقد صار بطلاً من أبطال القراءة ، وتربع على عرش الأدب ! .

يبقى ملمح آخر حول بداية رحلة نجيب محفوظ مع القراءة ، تحدث عنه فى عدد من حواراته ، منها حوار مع سامح كريم حين قال له : « ويكفى أن أقول لك أن حى سعد زغلول علمنى القراءة مبكراً . . ولا تعجب من هذا القول . . فقد كنت أبحث فى جريدة الأهرام عن صفحة البرلمان . . وفيها كانت تدور عيناى للبحث عن تعليقات وردود سعد زغلول . . حتى تقع عيناى عليها فأتوقف عندها . . بعد ذلك رأيت نفسى مجبراً على أن أتابع بقية المناقشات حتى أعرف ماذا كان تعليق سعد وماذا كانت ردوده . ولعل هذه التجربة الصغيرة كانت بداية رحلتى مع القراءة . . وكنت وقتها فى السنة الأولى الثانوية » (« الرجل والقمة » ص ٣٥ - الهيئة المصرية العامة للكتاب) .

بطبيعة الحال ، لا يجب أن نفهم كلمات نجيب (هنا) بمعناها الحرفى ، فبداية رحلته مع القراءة بدأت مع القصة البوليسية فى المدرسة الابتدائية ، وهذا هو الأرجح ،

أما قراءة مناقشات البرلمان وتعليق سعد زغلول عليها ، فلعلها كانت بداية رحلته مع تفتح وعيه السياسى ، وذلك فى السنة الأولى الثانوية ، وهو ما أوضحه فى سياق إجابته لسؤال حول الظروف التاريخية لتفتح وعيه بالعالم ، حين قال : « الحقيقة أننا نشأنا فى ظروف ثورة ١٩١٩ ، إذ شبت الثورة وعمرى سبع سنوات ، ففرض علينا هذا الحدث الضخم نوعاً من الوعى السياسى فى هذه السن المبكرة ، بدأت فى شكل أخبار أسطورية .

وقد أخذت أتابع الأخبار السياسية باهتمام خاص عن طريق الصحف ، بدءاً من عام ١٩٢٦ ، وأنا فى السنة الأولى الثانوية وكان الباحث أن أتابع الحوار الذى يجرى فى مجلس النواب بين رئيسه فى ذلك الوقت سعد زغلول وبين الأعضاء .

وقد اقتصرت الرؤية الخارجية فى ذلك الوقت على صلة إنجلترا بنا ، لأنها كانت تلخص كل علاقاتنا المستقبلية ، فما دما قد إطلعنا على سياسة لندن فقد إطلعنا على السياسة كلها .

واعتقد أنه بدءاً من الحرب العظمى أستطيع أن أؤرخ بهذه الفترة ببدء اهتمامى بالعالم ككل ، وإدراكى أنه ليس قوقعة ، وإنما كل لا يتجزأ .

(نجيب محفوظ : حياته وأدبه « ص ٢٣ - نيل فرج - الهيئة المصرية العامة للكتاب)
إذن ، لقد توضح الأمر ، فرحلة القراءة بدأت فى السنة الثالثة من المدرسة الابتدائية مع القصة البوليسية التى دخل عالمها السحرى عن طريق صديق مدرسته (المفضل) ، أما بداية رحلته مع تفتح (وعيه) السياسى بقراءة محاضر جلسات مجلس النواب وتعليق سعد زغلول عليها فكانت فى السنة الأولى الثانوية ، ومن فرط (حماس) نجيب محفوظ ، واهتمامه بالوعى والنضج السياسى ، (أسبغ) على تلك البداية (دوراً) ليس لها ، حين جعل منها بداية رحلته مع القراءة ، وبالتالي دخوله عالم الادب ، فنسب لها (فضلاً) ليس فيها ، حتى تكون ركيزة رحلته الأدبية (سياسية) بالأساس ، رغم ما فى هذا (الحلم) من تناقض يتنافى مع واقع الأمور .



إذن ، كيف تطورت قراءات نجيب محفوظ بعد ذلك ؟ ...

أوضح نجيب محفوظ نواحي هذا التطور في أكثر من حوار ، حين قال : « بعد القصص البوليسية تعلقت بالمنفلوطى ، وكان مصطفى لطفى المنفلوطى هو المدرسة الإلزامية لجيلنا كله » (« مجلة الآداب » يوليو ١٩٧٣) . « وما أدراك ما المنفلوطى وأثره الخطير في تهذيب النفوس ، ومع المنفلوطى وبعده ، كنت أقرأ مترجمات الأهرام ، وهى روايات تاريخية في الأغلب لبول كين وتشارلز جارفيس وغيرها . . . كانت تُنشر مُسلسلة في جريدة (الأهرام) ثم تجمع في كتب بعد ذلك » .

وبعد ذلك تأتى مرحلة البقظة على أيدي طه حسين ، العقاد ، سلامة موسى ، المازنى ، هيل ، وبعد فترة أسهم فيها تيمور ، وتوفيق الحكيم وبجى حقى . . . أنا أسمى هذه المرحلة مرحلة التحرر من طريقة التفكير السلفية ، وطريقة التذوق السلفية ، والتنبه إلى الأدب العالمى والنظر إلى الأدب العربى الكلاسيكى نظرة جديدة ، مع الإطلاع على نماذج أشبه ما تكون بالأمثلة للقصة والأقصوصة ، وتلخيصات لأشهر المسرحيات العالمية . ثم جاءت أمثلة المسرحية المؤلفة على يد توفيق الحكيم «

(مجلة « الكتاب » يناير ٦٣)



والآن ، ماذا تمخض عن تلك القراءات عند نجيب محفوظ ، بعد (إدمانه) عليها ؟ ...

لقد أدخلته القراءة إلى عالم الفن السحرى ، فبدأ أولى محاولاته فى (الكتابة) وقد عبر عن ذلك بقوله : « جاءت هذه البداية بطريقة تلقائية . فمن قراءة الروايات تولدت رغبة قوية عندى فى كتابة مثل ما أقرأ ، من غير هدف بعيد أن يصبح الإنسان قصاصاً . ومع مرور الأيام أصبحت رغبة ثابتة ظلت تقوى بتقدم العمر ، وبالتقدم فى الثقافة بجميع فروعها الأدبية والفنية والعلمية .

وفى فترة التجارب ، كبت الكثير مما لم يطلع عليها أحد - وهذه التجارب الساذجة بدأت سنة ١٩٢٦ » .

(حوار مع نجيب محفوظ حول القصة - ملحق « الزهور » -

مجلة الهلال - سبتمبر ١٩٧٦)

فكيف بدأ نجيب محفوظ الكتابة ، في فترة التجارب تلك ؟

أوضح نجيب محفوظ ذلك بأنه : « بعد قراءة الرواية كنت أعيد كتابتها في جوّها الأصلي بعد أنت تكون قد رسخت في ذهني . فإذا كانت الرواية تدور أحداثها في إنجلترا أو في أي مكان آخر . كنت أكتبها كما هي بنفس الشخصيات مع تعديلات بسيطة . . . طبعاً مع ملاحظة الإضافات التي أضيفها من حياتي ، ومن علاقاتي وخناقاتي مع الأصدقاء . ثم أكتب على غلاف الكشكول تأليف : نجيب محفوظ ، أختار اسماً لناشر وهمي » - هكذا أعاد كتابة روايات سير ريدر هجارد ، وتشارليس جارفيس ، و(النظرات) و(العبرات) للمنفلوطي . وبعد أن قرأ (الأيام) لطفه حسين ألف (الأعوام)؛ روى فيها قصة حياته على طريقة طه حسين (انظر حواراته المنشورة في مجلة الكاتب - يناير ٦٣ ، « نجيب محفوظ يتذكر » : جمال الغيطاني ، مجلة فصول يناير/ مارس ١٩٨٢) .

أما الهدف من ذلك فكان « الاستمتاع » ، فالكتابة : « مثل أي نشاط فكري يحدث لذة وإشباعاً من خلال عناء معين . ومن أجل ذلك انجذبت إليها ، لأنها شيء لذيد يُشبع عندي جانباً ما ، وقد مارستها قبل أن يكون لي في الحياة هدف ، سواء أكان أخلاقياً أم اجتماعياً أم غير ذلك » .

ويبقى أن : « الدوافع أو الظروف التي كانت وراء هذا الاهتمام لم تكن أكثر من توافر وقت فراغ من أربعة أو خمسة أشهر في العطلة الصيفية ، كنت أقضيها في القراءة وفي هذا النوع من التأليف المزيف » (مجلة فصول : يناير / مارس ٨٢) .

ولتوقف قليلاً أمام هذا الشكل من (الكتابة) ، محاولين تحليل أبعاده ، لتفهم مدلوله . أول ملمح له يكشف أن عملية الكتابة كانت تتم (بعد قراءة الرواية) . أي أن نجيب محفوظ - كقارئ - يكون قد انتهى من قراءة الرواية ، وقام ببناء (عالمها المتخيل) الذي سبق أن شاده الكاتب ، وذلك ببناء الحوادث التي تؤلف الرواية ، وإجراء عمل (تأويلي) لبناء السمات الشخصية لأبطال الرواية ، وذلك من خلال أفعالها ، سواء تم ذلك بشكل مباشر أو غير مباشر ، ثم قام أيضاً ببناء نظام الأفكار والقيم التحتية للنص (رؤية الرواية) .

ولعل ما يعنيه نجيب محفوظ بترسخ الرواية في ذهنه ، أنه قد قام بتشيد بناء الرواية الخيالي ، حتى استقر في ذهنه ، وفقاً لزمان ومكان أحداثها (جوها الأصلي ، سواء أكانت الرواية تدور أحداثها في إنجلترا أو في أى مكان آخر) ، ولكن يجب أن نعى - أيضاً - أن كل قارئ (يبنى) العمل وفق تكوينه الخاص بكل ما ترسخ في نفسه من أفكار وخبرات وثقافة ، وأيضاً وفق المحيط الثقافي للمجتمع الذى يعيشه ، فكان منطقياً أن يُضيف نجيب محفوظ إلى العمل من حياته ومن علاقاته ومن خناقاته مع الأصدقاء .

لذا فإن نجيب محفوظ حين كان يُعيد كتابة أى رواية بعد قراءتها ، فإن هذه (الكتابة) ما هى إلا قراءته الخاصة لها . لقد كان لدى نجيب محفوظ بحسه التلقائى مفهوم (حديثاً) لعملية القراءة . . (كما فسرها الناقد والمفكر الفرنسى ترفتيان تودروف في مقاله « القراءة بناء ») . إنه انجذاب طبيعى وفقاً (لموهبته) الكامنة ، ولّد لديه رغبة قوية لكتابة مثل ما يقرأ . كان تحركه - إذن - لا إرادياً ، حتى يضع قراءته (مكتوبة) على الورق . فكان (يستمتع) بهذا النشاط الغريزى (الذى يُحدث لذةً واشباعاً من خلال عناء معين) . .

لكن (فترة التجارب) تلك كما ستأها ، أو القراءات المكتوبة كما أطلق عليها ، كشفت - من أحد الجوانب - موهبته الروائية الدفينة ، كما ساعدت من جانب آخر - على إكسابه (النفس الطويل) فى الكتابة ، ولعلها كانت عاملاً حاسماً فى تفضيله الفن الروائى عن القصص القصيرة .

إذن إذا كانت القراءة قد كشفت لنجيب محفوظ ، منذ وقت مبكر ، عن استعداد طبيعى لممارسة كتابة الرواية ، فلماذا لم يحسم اختياره ، ويتفرغ لها ؟ . .

لعل الأجابة تكمن فى المفاهيم السائدة فى ذلك العصر التى أثرت على اختياره والتى عبر عنها نجيب محفوظ فى سياق حوار له ، وهو يتحدث عن قراءاته . . « قرأت أيضاً للمفكرين ، وكان المفكرون هم الذين يحظون بالاهتمام فى هذه الفترة : طه حسين ، العقاد ، وغيرهما » . « كان الإحترام للفكر : للمقالات ، للنقد ، للعرض ، وليس

للقصة» («نجيب محفوظ يتذكر» : ص ٦١) ، « وكان الفن في هذا الوقت نوعا من الترف يرتاح فيه المفكر قليلاً ثم يواصل بعده عمله الفكرى . . ولم يكن هناك من كرس حياته للأدب من الشخصيات المحترمة في هذا الوقت » (مجلة الآداب - ص ٣٧ - يوليو ١٩٧٣) .

وقد أرجع نجيب محفوظ اهتمامه بالجوانب الفكرية أيضاً إلى اهتمام أساتذة الجيل بها : « المعروف أننى مع بداية المرحلة الثانوية أخذت أهتم بعالم الفكر الفلسفى والأدبى . . وكان اهتمامى بالفلسفة مقدما على كل اهتمام آخر ، ربما لأن أساتذة الجيل الذى تعلمت الاهتمام بالفكر إبان شهرتهم كانوا أقرب إلى الفكر منهم إلى الفن مثل طه حسين وعباس محمود العقاد وسلامه موسى ، فقد قدموا لنا أفكاراً ومناهج فكرية أكثر مما قدموا لنا نماذج أدبية .

وحتى الأدباء والشعراء الذين وجهونا إلى الاهتمام بهم كأبى العلاء والمتنبى وابن الرومى يغلب عليهم الطابع الفكرى » (مجلة الكاتب : يناير ٦٣) .

عامل آخر ساعد فى تحول نجيب محفوظ إلى الاتجاه نحو دراسة الفلسفة ، عبّر عنه بقوله أنه : « بعد أن بدأت أقرأ المقالات الفلسفية للعقاد وإسماعيل مظهر وغيرهما ، وبدأت قراءتى تتعمق ، تحركت فى أعماق الأسئلة الفلسفية ، وجدت أن هذه هى همومى وخيل إلى أننى بدراستى للفلسفة سأجد الأجوبة الصحيحة ، خيل إلى أنى سأعرف سر الوجود ومصير الإنسان » («نجيب محفوظ يتذكر») .

كما : « أن الفلسفة كانت أفيد لى من الناحية المادية ، فقد كنت طالبا متفوقا ، والماجستير بعدها الدكتوراه ، ثم أصبح استاذاً فى الجامعة لا أعانى شيئا مما يعانى به المشتغلون بالأدب فى بلادنا » (مجلة الكاتب : يناير ١٩٦٣) .

والآن ، إذا أردنا أن نوجز الأسباب التى حولت اختيار نجيب من الأدب أو الرواية إلى الفلسفة أو المقال ، نجدها تتدرج تحت اتجاهين رئيسين : الاتجاه الأول عام يتعلق بالمفاهيم السائدة ونظرة المجتمع إلى إعلاء شأن الفكر واعتبار الفن نشاطا أدنى . أما الاتجاه الثانى فيرتبط بنجيب محفوظ نفسه على المستوى الروحانى أو المادى ، حتى

انتهى نجيب محفوظ إلى القول : « كان الجانب المحترم في الحياة الأدبية هو المقال ، أما القصة فغير محترمة ، ولهذا كنت لا أفكر في التفرغ للأدب . . للقصة » («نجيب محفوظ يتذكر» : ص ٦١) .

هكذا ، وأد نجيب محفوظ التلقائية الطبيعية ، التي تنحو نحو الكتابة الأدبية الروائية ، ورغم أنه كان متفوقا في الرياضة والعلوم ، كان المقروض أن يختار في نهاية دراسته الثانوية أن يكون طبيبا أو مهندسا ، إلا أنه اختار قسم الفلسفة بكلية الآداب ، وقد عبّر نجيب محفوظ عن هذا الموقف العنيد بقوله : « بالطبع والذى صُدم ، وعندما قوبل بإصراري ، قال لي : ادخل الحقوق مثل ابن عمك وابن عمك ، لتتخرج قاضيا أو مستشارا . لكن أي قاض ؟ إنني أريد سر الوجود » («نجيب محفوظ يتذكر» ص ٦٢) .



تركزت قراءات نجيب محفوظ خلال المرحلة الجامعية في أغلبها على النواحي الفلسفية ، ولاقتناعه العقلي الشديد بالاتجاه الفلسفي ، بدأ ينشر مقالاته الفلسفية والفكرية بدءا من اكتوبر عام ١٩٣٠ ، حتى تخرج عام ١٩٣٤ (بلغ مجمل ما نشره في تلك الفترة ٢٧ مقالا ، شغلت الفلسفة منها عشرين مقالا) . ثم سجل بعد التفرغ موضوعا للماجستير مع الشيخ مصطفى عبد الرازق عن التصوف في الفلسفة الاسلامية . ثم إذا بموهبته الأدبية الكبيرة تصارع كي تحتل مكان الصدارة . وهو يقول عن ذلك : « بدأت اكتشف في نفسي الميل إلى الكتابة الأدبية ، وهو ميل قديم كنت قد هجرته وحسبت أنني شفيت . وفي احوام ٣٥ ، ٣٦ ، ١٩٣٧ كتبت القصص بجانب المقالات ، وأخذت أصارع نفسي في سبيل التخصص ، في صراع أليم مرير انتهى بانتصار الأدب . فهجرت كتابة المقالات ، وتركت رسالة الماجستير بعد أن قطعت فيها شوطا لا بأس به ، وأيقنت أن قلبي لن يسير بعد ذلك إلا في الأدب » (مجلة الآداب - يولية ١٩٧٣) .

ولكن ، لنلاحظ أن نجيب محفوظ بدأ فعلا كتابة القصة قبل الأعوام التي ذكرها ٣٥ ، ٣٦ ، ١٩٣٧ ، وحتى ندقق كلمات نجيب محفوظ على الواقع فعلا ، لننظر إلى إجمالي ما نشر من مقالات في الفلسفة أو الفن أو ما نشر من قصص خلال السنوات بدءا من عام ١٩٣٠ حتى عام ١٩٤٦ ، وهو ملخص تم اعداده عن ملاحق تفصيلية لمقالات وقصص نجيب محفوظ التي نشرت في تلك الفترة ، أوردها د . عبد المحسن طه بدر في نهاية كتابه « نجيب محفوظ : الرؤية والأداة (١) » - (١٩٧٨) :

سنة النشر	المقالات		قصص قصيرة	مجموعة «عيس الجنون»
	فلسفية	فنية		
١٩٣٠	٢	—	—	—
٣١	٣	—	—	—
٣٢	—	—	١	—
٣٣	٤	٥	—	—
٣٤	١١	٢	٧	—
٣٥	٩	—	١	—
٣٦	٢	١	٣	—
٣٧	١	—	٦	٢
٣٨	—	—	١٢	٢
٣٩	—	—	١١	٨
٤٠	—	—	٥	٢
١٩٤١	—	—	٨	٤
٤٢	—	—	٧	٢
٤٣	—	٣	٦	٢
٤٤	—	١	١	—
٤٥	—	٣	٣	٢
٤٦				
الإجمالي	٣٢	١٥	٧٣	٢٤

يلاحظ أن المقالات الفلسفية بدأ اهتمام نجيب محفوظ بها في نهاية المرحلة الثانوية حتى أنه نُشرت له مقالتان في عام ١٩٣٠ قبل التحاقه بكلية الآداب ، ثم بدأ هذا الاهتمام يتصاعد متسقاً مع تركيز اهتمامه على الجانب الفكري والفلسفي حتى بلغ ذروته خلال العام الأخير من دراسته الجامعية وفي العام الذي تلاه وهو يعد رسالة الماجستير، ثم بدأ ينحسر حتى نشر مقالتين خلال عام ٣٦ (ربما كانا من بقايا نشاط عام ١٩٣٥) ، كما كان المقال الوحيد الذي نشر عام ١٩٣٧ مقالا سبق نشره عام ١٩٣٤ ، أى أنه حسم اختياره للأدب عام ١٩٣٦ . أما بالنسبة لمقالاته الفنية فقد بلغت ذروتها عام ١٩٣٣ ، وكانت عن أنطون تشيكوف في الأدب الروسى ، ومسرحية « الخال فانيا » لتشيكوف أيضا ، و « عمد المجتمع » لهريك ابسن ، مولير ، و « آيات النهضة : ميكائيل انجلو ، بما يعكس توجهها نحو الفنون عامة ، والآداب بشكل خاص ، ثم توقف نهائيا عن كتابة المزيد منها ، وإن قدّم بابا ثابثا في « الأيام » نشر فيه مقالاته عامى ٤٣ ، ١٩٤٤ ، ثم أنهى مقالاته عام ١٩٤٥ بثلاث عن التصوير الفنى فى القرآن ، ورأى فى الترجمة ، والقصة عند العقاد ، ليتوقف بعدها نهائيا .

أما بالنسبة للقصة القصيرة فقد بدأ اهتمامه بها خلال دراسته الجامعية ونشر أول قصة له عام ١٩٣٤ ، لكن اهتمامه بها تصاعد خلال عام تخرجه من الجامعة ، وبلغ ذروته خلال عامى ٣٨ ، ١٩٣٩ بعد أن حسم اختياره للأدب . ثم استمر ينشر ما يكتب حتى توقف نهائيا عام ١٩٤٦ ، بعد أن بلغ إجمالى ما نشره خلال تلك الفترة ٧٣ قصة (منهم قصة « الشر المعبود » التى قام بتعديلها ونشرها ثانية عام ١٩٣٩) .

والملفت للنظر هنا ابتداء هو توقف نجيب محفوظ تماما عن كتابة القصة القصيرة بعد فترة استمرت أكثر من عشر سنوات . وبذا يصبح التعليل المنطقي المقبول ، أن نجيب محفوظ لم يجد نفسه فى القصة القصيرة ، لذا توقف ولم يكمل المسيرة ، حتى جاءته بعد ذلك بشكل طبيعى فى الستينات فعاد إليها ، ولعل همة الأساسى كان متحولاً نحو الرواية . وانظر إلى نجيب محفوظ وهو يسوق مبرراً آخر : « أول قصص قصيرة كتبها لم يكن الدافع إليها فنياً ، ولكن عجزى عن نشر الرواية جعلنى أتلى بكتابة القصة القصيرة » . (« نجيب محفوظ : حياته وأدبه » - نبيل فرج) كما أنه أضاف مبرراً آخر

لإقباله على كتابة القصة : « وجاء وقت قبلت فيه الأقصوصة فأنصرفت إلى كتابتها ، ونشرها ، وإن لم أمتنع في الوقت نفسه عن كتابة الرواية » (مجلة المصور - عدد خاص) ، ثم أضاء جانباً هاماً في حديثه إلى مجلة « فصول » - عدد خاص عن القصة القصيرة - حين قال : « بخلاف ما قرأت عن فن الرواية لم أقرأ إلا القليل عن فن القصة القصيرة ، بل وقرأته في سن متأخرة . كذلك ليس في مكتبي من مجموعات القصص العالمية إلا القليل . وأكثر ما قرأت في المجلات . ومن عجب أنه كان لي صبر بلا حدود في قراءة الروايات رغم طولها ، ولا صبر لي على قراءة قصة قصيرة » . كما اعترف نجيب محفوظ للناقد أحمد محمد عطية في كتابه « مع نجيب محفوظ » قائلاً : « سأصرح لك بسر . . لقد بدأت كتابة القصص القصيرة متأثراً بقصص محمود تيمور والمازنى ومرجمات محمد الباعى القصصية . وعندما عدت إلى كتابة القصة القصيرة لم أكن متأثراً بأحد من كتاب القصة القصيرة ، وكنت أكتب القصة القصيرة بروح الرواية ، فكل قراءاتي في الروايات وأقلها في القصص القصيرة » .

وهذا ما أكدته نجيب محفوظ بعد ذلك في كتاب « نجيب محفوظ يتذكر » حين قال : « أما القصة القصيرة التي نشرتها قبل ذلك فقد كان معظمها قصصاً قصيرة عبارة عن ملخصات لروايات قديمة لم تنشر » .

وقد تم اختيار أربعاً وعشرين قصة من تلك القصص المنشورة إضافة إلى أربع أخرى لتكون مجموعة قصص « همس الجنون » ، التي يرد تاريخ نشرها في ثبت أعماله عام ١٩٣٨ ، وبطبيعة الحال يعتبر تاريخ هذا النشر مستحيلاً ، لأنها تتضمن أكثر من عشرين قصة نشرها في مجلات بعد هذا التاريخ ، وبذلك يصبح الأقرب للمنطق أنها نشرت عام ١٩٤٥ أو بعده ويبرر نجيب محفوظ ذلك في « نجيب محفوظ يتذكر » حين يقول : « الذي اختار مجموعة « همس الجنون » هو المرحوم عبد الحميد جودة السحار ، لم أكن أريد أن أنشر هذه المجموعة . كنت نشرت قبلها الروايات التاريخية الثلاث والقاهرة الجديدة وزقاق المدق ، وجاء لي قول لي : لماذا لا تُصدر مجموعة قصصية ؟ قلت له : أي مجموعة الآن . . لقد فات أوانها . أنا لم أكتب القصة القصيرة بهدف كتابة القصة القصيرة » .

« السحار أصر على إصدار مجموعة قصصية ، أعطيته عددًا هائلًا من المجلات ، مجلات لا أذكر عناوينها ، ولكنه عندما لاحظ أنى مستاء ، قال : إذن نكتب تاريخ كتابة القصص الحقيقى ، متى طلب منك الزيات أن يصدر لك مجموعة قصصية . قلت عام : ١٩٣٨ . قال المرحوم السحار : إذن اعتبر هذه المجموعة أول كتبك ، سنكتب عليها ١٩٣٨ ، ولهذا لا يدرى القارئ أن « همس الجنون » نشرت لأول مرة بعد ظهور زقاق المدق ، وليس عام ١٩٣٨ ، كما هو مكتوب فى قائمة مؤلفاتى التى نجدها فى كل كتاب ، كنت أخشى أن يحدث نشرها صدمة كبيرة » .

ولعل تلك الكلمات كانت ردًا على الدكتور عبد المحسن طه بدر الذى كان أول من تنبه لهذا اللبس ، ولكن جانبه الصواب تمامًا فى تقييم قصص المجموعة ، والأقرب للمعقول حين يريد الناقد تقييمها أن يسترشد بمنطق نجيب محفوظ حين قال فى حوار مع عادل ناشد (مجلة « الحرس الوطنى » - أغسطس ١٩٨٧) : « إذا أردت أن تحكم على هذه المجموعة لابد أن تضع فى اعتبارك أنها كتبت كلها فى الثلاثينات ، والقصة كما تعلمناها فى تلك الفترة ، سواء من المؤلفات المحلية أو المترجمات العالمية ، هى الشئ الغريب والمثير . وكانت المصادفات فى هذه الفترة تلعب دورًا هامًا ، سواء فى المسرح أو السينما أو القصة المصرية . فستطيع أن تقول إنها جزء من عقلية كانت سائدة فى ذلك الحين ، وطبعى أن الكاتب يتأثر بما هو كائن » .



إذن ، ولج نجيب محفوظ عالم القراءة بالصدفة ، حين استعار قصة بوليسية من صديق طفولته فى المدرسة الابتدائية . تفتح على أثرها أمامه عالم الفن السحري ، فتدفقت موهبته تلقائيًا معبرة عن نفسها فى قراءات (مكتوبة) . وكان المفروض أن (يختار) نجيب محفوظ الفن تبعًا لذلك ، لكن معطيات المجتمع الخارجى التى كانت تعلل من شأن (المفكرين) ، وتعتبر الفن درجة أدنى أو محطة للراحة ، إضافة إلى افتتانه بعالم (الفكر) واقتناعه بالجانب المادى المريح الذى تضمنه وظيفة أستاذ الجامعة ، حولت اتجاهه - بعناد - نحو الفلسفة التى درسها بكلية الآداب ، منفذًا مشروع (المفكر) ، فبدأ نشر العديد من المقالات والقصص القصيرة ، لكنه بعد أن

أنهى دراسته الجامعية وسجل لإعداد رسالة الماجستير ، عادت موهبته الكبيرة تفرض وجودها ، وتحتل مكان الصدارة مرة أخرى ، فكان حتماً له - وهو المؤمن بالتخصص - أن يتسلح بدراسة الأدب بانتظام ، من خلال برنامج مكثف للقراءة الأدبية المتخصصة ، للتعرف على الأدب العالمى . .

فكان منطقياً أن يتوقف نجيب محفوظ ، بعد أن حسم اختياره ، عن كتابة المقالات الفلسفية اعتباراً من عام ١٩٣٧ ، لكنه استمر يكتب القصة القصيرة - إلى جانب نشاطه الرئيسى فى إبداع الروايات - حتى توقف تماماً عام ١٩٤٦ ، لأنه لم يجد نفسه فيها .

١. المرحلة الفرعونية

اعتباراً من عام ١٩٣٧ ، بدأ تكثيف اهتمام نجيب محفوظ بالرواية . وانظر لإجابته حول سؤال عن السبب في اختياره للشكل الروائي بعد بدايته بكتابة القصة القصيرة والمقالة : « قد يكون لذلك أكثر من سبب . فمن الطبيعي أن يبدأ الكاتب تجاربه بأشكال يمكن إنجازها في وقت قصير ، وبمحاولات لا تستعصى على النشر ، ولو في المجلات والصحف . . وقد يكون السبب أن الإنسان لا يعرف نفسه إلا بعد تجارب متعددة ، هذا إلى مزايا الرواية الفنية . فالحق أنها من حيث الإمكانيات تتضمن امكانيات الأقصوصة والمقالة والمسرحية والشعر ، أي أنها تتسع لكل تعبير أدبي .

في الرواية نجد اللحظة أو الموقف الواحد اللذين تمتاز بهما الأقصوصة ، وفيها نجد التحليل والنقد كما في المقالة ، ونجد الحوار والموقف الدراماتيكي كما في المسرحية ، وفيها تتسع للتعبير الشعري والخيال الشعري ، إن وجد الاستعداد لها ، كما في الشعر . بل إن في الرواية إمكانيات الوسائل التعبيرية الأحداث منها كالإذاعة والسينما . وبينما نجد في كل شكل فني مجالاً محدوداً للتعبير لا يستطيع الفنان أن يتجاوزه ، فإن الرواية لا حدود تحددها . . فهو شكل فني لا نظير له .

(مجلة « الآداب البيروتية » - يونيو ٦٠) .

هنا إقبال على اختيار « الرواية » لاتساع رقعة مزاياها ، ولتضمنها العديد من الأشكال الأدبية الأخرى . ثم انظر إليه وهو يعدد قيود تلك الأشكال ليتهاي إلى اختيار

الرواية ، وذلك في حوار له - كتاب « الرؤى المتغيرة في روايات نجيب محفوظ » : عبد الرحمن أبو عوف - « عندما تشرع في كتابة أقصوصة ، تصطدم بقيود يفرضها حجم العمل الأدبي الذي بين يديك فيحدد ذلك نمط السير وطريقته ، قالب لا يجوز أن يخرج عنه . وعندما تشرع في كتابة مسرحية تشعر بقيود أشد يحددها المسرح نفسه والجمهور . أما عندما تشرع في كتابة رواية فإنك لا تشعر مقدما بقيود يفرضها زمان أو مكان . فالمكان قد ينحصر في متر مربع ، وقد يشمل العالم والكون . أما بالنسبة إلى الزمان فباستطاعتك أن تملكه بدءا من ساعة وحتى الأبدية . ولكن الحرية لا تعنى القوضى أو السهولة ، بل على العكس من ذلك فإننى أعتقد أنك بقدر ما تحظى من حرية بقدر ما تعاني من مسئولية . . فالرواية باب مفتوح ، كله إغراء ، ولكنه يقود إلى الهلاك إذا لم تعتصم بمسئوليتك الذاتية » .

ثم يستطرد موسعا من مجالها : « الرواية شكل عجيب من حيث إنه يحوى جميع الأشكال الأدبية ، بل والفنية ، مثال ذلك أن المسرحية إذا حوت لمحة روائية عند ذلك هيا ، ولكن الرواية قد تحوى المسرحية والشعر والموسيقى والفن التشكيل . .

ومن هنا يمكننى القول ، بأن الرواية هى أفضل أداة للتعبير فى أى عصر يسمح للأدب بحرية النفس والحركة » .

نحن - هنا - إزاء قناعة كاملة بفن الرواية ، لذا لن نندهش إذا ما طالعنا ذات الرؤى بين ثنايا الجزء الثالث من الثلاثية « السكرية » وهو يعقد مقارنة بين المقالة والقصة (الرواية) : « المقالة صريحة ومباشرة ولذلك فهى خطيرة ، خاصة وأن الأعبى محملقة فيها ، أما القصة فذات حيل لا حصر لها ، إنها فن مكر ، وقد غدت شكلا أدبيا شائعا سوف يتزعزع الإمامة فى عالم الأدب فى وقت قصير ، ألا ترى أنه ما من كبير من شيوخ الأدب إلا وهو يثبت وجوده فى مجال نشاطها ولو بمؤلف واحد ؟ » .

إذا كان هذا هو إيمان نجيب محفوظ وتوجهه ، فكيف وضع إيمانه موضع التنفيذ ؟ .



كانت أول رواية كتبها نجيب محفوظ بعنوان « أحلام القرية » ، وكان يظن أن الروايات تكتب هكذا مادامت من الخيال ، ولتبعه وهو يستعيد ذكراها : « كنت في أجازة ، وخطر لي أن أكتب رواية ريفية ، فكتبتها ، وأنا لم أزر الريف في حياتي ، ولذا أخذت الرواية مصيرها الوحيد . وهذا ينطبق على السؤال الماضى فيجب أن يكون لدى الروائي معرفة كاملة بالواقع الذى يكتب عنه » (كتاب « مع نجيب محفوظ » : أحمد محمد عطية) .

كان هذا هو الدرس الأول للروائي نجيب محفوظ ، أن يكتب عما يعرف ، خاصة بعد أن رفض سلامه موسى نشرها بعد قراءتها .

والآن ، لننظر إلى نجيب محفوظ وهو يشير إلى الحافظ الذى أرشده إلى منبع خبرة رواياته الأولى : « لقد كانت الوطنية المصرية متأججة في ذلك الوقت . وكان هناك مدح حقيقى للفرعونية ، وهو مدح كانت له مبرراته الموضوعية إذ كان العصر الفرعونى هو العصر الوحيد المضىء في مقابل عصر المهانة والانحطاط الذى كنا نعيش فيه وقتها ، مهانة الاستعمار الإنجليزى وسيطرة الأتراك معا » (مجلة « الآداب » - يوليو ٧٣) .

لذلك بدأ مرحلة الدراسة والاعداد والتجهيز ، أى التخصص في العصر الفرعونى : « كانت كل هذه الموضوعات من التاريخ الفرعونى ، وبسببها حضرت محاضرات قسم الآثار في الجامعة المصرية بعد الظهر ، ودرست تاريخ مصر الفرعونية بأكمله دراسة وافية توشك أن تكون دراسة متخصص . وعزمت على كتابة هذا التاريخ في روايات ، مثلما فعل جورجى زيدان أو والتر سكوت » .

ثم أوضح نجيب محفوظ في ذات الحوار - المنشور بمجلة « الآداب » : يوليو ٧٣ - : « والحقيقة أن هناك نوعان من الروايات التاريخية . . النوع الأول تعيدك فيه الرواية إلى التاريخ بكل تفاصيله وطقوسه وكأنها تردك إلى الحياة فيه ، أو تبعث الحركة في أوصاله الهامدة . .

أما النوع الآخر فإنه أقرب للنوع الثانى ، لأننى لم أكتب القصة التى يحاسب عليها الكاتب تاريخياً ، وربما لهذا السبب اخترت فترات تاريخية مليئة بالتفاصيل حتى تتيح

المجال أكثر للخلق» ولذلك قال نجيب محفوظ : « أعددت بالفعل أربعين موضوعا لروايات تاريخية رجوت أن يعتد بي العمر حتى أتمها . وكتبت ثلاثة منها بالفعل هي (عبث الأقدار) و (رادويس) و (كفاح طيبة) ، وبقي ٣٧ موضوعا جاهزة للكتابة . (مجلة « الكاتب » - يناير ١٩٦٣) . في حين أنه في حوار آخر أجرى معه بعدها بعشرة أعوام في مجلة « الآداب » (يولييه ٧٣) أشار إلى ما بقي من موضوعات جاهزة هي خمس وثلاثين . فهل يرجع الأمر إلى خطأ في التسجيل ، أم إلى النسيان ؟ ١ .

المهم هنا هو تقييم نجيب محفوظ لهذه الروايات الثلاث : وانظر لرأيه أولاً في حوار أجرى معه في يونيو ٦٠ ، ونشر في مجلة « الآداب » ، حين قال : « قصصى التاريخية من النوع الرومانسى فمن الطبيعي أن نميل في مطلع حياتنا إلى الرومانسية . وبعد ذلك غلب على الاهتمام بالواقع فانتزعتنى من الرومانسية . ومن الممكن جدًا معالجة الحاضر من خلال الماضى ، بل الحق أن رادويس وكفاح طيبة : قصدهما الحاضر أكثر من الماضى .

وقصة توماس مان التاريخية عن « آل يعقوب » هي دراسة للموقف الإنسانى الراهن من خلال التاريخ . ويبدو ذلك أوضح من القصص الفلسفى الذى يتخذ من التاريخ مناسبة ليس إلا لتصوير الحاضر ، مثل كاليجولا لكامو ، وأوديب لجيت ، وأكثر مؤلفات الحكيم الفلسفية ، وبعض مسرحيات باكثير ورواياته التاريخية . وأنا لا استبعد أن أعود إلى التاريخ . . فكثيراً ما تستعصى علينا دراسة حاضرننا لسبب أو لآخر .

ثم أضاف نجيب محفوظ بعداً فلسفياً لتلك الروايات ، حين قال : « ينحيل إلى أنه حتى الروايات التاريخية لا تخلو من فلسفة . ثمة قدر منها فى (رادويس) وقدر آخر فى (عبث الأقدار) . . حتى الاسم نفسه له مدلول فلسفى ما . . وقبل أن أنشر هذه الروايات كتبت عدداً من القصص القصيرة ، كانت فيها خطوط فلسفية كثيرة . . وكانت فى بعضها مجموعة من القضايا الفكرية الواضحة . . ولم تخل من هذه الخطوط والقضايا روايات المرحلة الفرعونية . . صحيح أنها تناقصت بشكل تدريجى حتى

اختفت تماماً في (كفاح طيبة) . . وهذا يدل على أن الذي كان يحتل اهتمامي في هذه الفترة أساساً ، والذي كان يسيطر على بؤرة الوعي والشعور هو المسألة الوطنية ، والعاطفة الوطنية ومشتقاتها . . ولهذا تراجعت بقية القضايا الأخرى ، وإن لم تختف نهائياً ولم تمت .

ثم أشار إلى جانب آخر ، حين قال : « وقد فسر أحد النقاد العرب (كفاح طيبة) على أنها نوع من اليوتوبيا ، وعلى أنني كنت أحلم بتنقية يوتوبياى المصرية من الأتراك أساساً وليس من الإنجليز . وكانت هذه أول مرة يشير فيها ناقد إلى أنني كنت أعمل ضد سيطرة الترك المتمثلة في السراي ، لأن أغلب النقاد العرب فسروا هذه الرواية باعتبارها ضد المستعمر الإنجليزي وحده . ولكن الهكسوس كانوا أشبه ما يكونون بالترك وليس بالإنجليز . وقد أعجبتني هذه الإشارة أو هذا التفسير إلى أقصى حد . لأننى حقيقة كنت أغل ضد الإنجليز وضد الأتراك على السواء ، بينما كنت أكتب رواية فرعونية خالصة لا دخل فيها للإنجليز أو الأتراك . . »

ولتوقف هنا قليلاً ، فإذا كان سلامة موسى قد نشر أول رواية فرعونية لنجيب محفوظ وهى (عبث الأقدار) عام ١٩٣٩ ، ثم نشر عبد الحميد جوده السحار روايته الثانية (رادوبيس) عام ١٩٤٣ ، ثم نُشرت روايته الثالثة (كفاح طيبة) عام ١٩٤٤ . فلماذا توقف نجيب محفوظ عن استكمال مشروعه الكبير ، بالنسبة لبقية الروايات الفرعونية التى سبق أن أعد موضوعاتها بشكل متخصص ؟ . .

لقد رأينا - فيما سبق - أن نجيب محفوظ كان يجرب اتجاهها يقتنع به - عقلياً - كل الإقناع ، فيمضى فيه بقوة حتى مداه الأخير ، فإذا أحس أنه لا يجد ذاته في هذا الاتجاه ، فإن جذوة الاندفاع سرعان ما تخبو ، إثر صراع ضارٍ محتدم ، لتشاقل خطاه تدريجياً ، حتى يتوقف في النهاية ، في حين يتصاعد اتجاه آخر - في ذات الوقت - قوياً جباراً يتصارع مع الاتجاه الأول ، حتى تدين له السيطرة التامة في النهاية .

إن نجيب محفوظ من الشخصيات التى تستنفر قواها وراء هدف محدد يطمح إلى تحقيقه . إنه يريد هذا ولا شيء سواه ، تدفعه رغبة عارمة في النبوغ والتفوق ويحركه إيمان جارف بأهمية التخصص . حدث له هذا من قبل مرتين : الأولى حين تحول من

الفلسفة إلى الأدب ، والثانية حين تحول من المقال والقصة القصيرة إلى الرواية ، التي أصبحت حلم حياته الوحيد ، فأقبل عليها بكل قواه ، بعد أن اختار ما يقرب من أربعين موضوعًا من العصر الفرعوني ، كتب منهم ثلاث روايات ، تحفزه القضية الوطنية والكفاح ضد الإنجليز والأتراك ، ثم توقف عن إكمال برنامجه المخطط ، أو كما عبّر عنه : « فجأة ماتت الرغبة في الكتابة الرومانسية التاريخية » . . . وإذا هو يقف حائرا إزاء ما حدث « هذا مالا أستطيع له تفسيراً . . . كنت ككاتب تحت يدي مادة أطول من عمري » ، « كانت لدى موضوعات عن الرعامسة والتحامسة وحتشبسوت . . . وكنت أدخر موضوعًا اعتبره هامًا جدًا عن أخناتون » (استفاد منه بعد ذلك بسنوات طويلة في رواية « العائش في الحقيقة » التي نشرها عام ١٩٨٥)

وأخيرا ، يجتهد نجيب محفوظ في أن يجد تفسيرًا لهذا التحول ، وذلك في حوار الموسع في مجلة الآداب - يولية ١٩٧٣ - حين قال : « وإذا حاولت أن أفسر معك السبب الذي دفعني إلى تنحية الموضوعات التاريخية ، فإنني أقول إنه يبدو أنني وجدت أن التاريخ قد أصبح عاجزا على أن يمكّتي من أن أقول ما أقوله . . . كنت قد قلت عبره جوهر الموضوعات التي أردت أن أقولها . . . خلع الملك والحلم بثورة شعبية وتحقيق الاستقلال ، ويبدو أنني بعد ذلك كنت سأدخل في عصر الامبراطوريات ، بينما كنا نعيش في الواقع في عصر المهانة . . . ولو فعلت ذلك لكان علي أن أكتب روايات تاريخية من النوع الأول الالتزام فيها بالتاريخ - لا من النوع الثاني القريب إلى نفسى . . . »

هكذا تلمس نجيب محفوظ سببين لتحوله من الموضوعات التاريخية إلى الموضوعات الواقعية ، بأنه استفد أغراضه الوطنية من التاريخ الفرعوني ، وكان استمراره يعني الالتزام بشكل روائي يحافظ على وقائع وتفاصيل التاريخ كما هي ، وهو ما لا يفضل ، لأنه يرغب في توظيف وتنمية قدراته الروائية . كما أضاء نجيب محفوظ ملامحا من ملامح نظيره الفنى الضارب بين ثنانيا رواياته الفرعونية الثلاث ، حين قال في ذات حوار مجلة « الآداب » : « ظهرت النزعة الفلسفية في هذه الأعمال الأولى بالقدر الضئيل الذي يسمح به الموقف . كانت الوطنية هي البؤرة الأساسية ، ثم ظهرت برفقتها نزعة الإصلاح الاجتماعي ، وخاصة في رواية (كفاح طية) ، حيث قلت إن أحسن حينما

استرد أرض مصر من الهكسوس أخذ يوزع الأرض على الفلاحين . . . فحققت بذلك نوعاً من المزج بين مدينتي الفضلى والتاريخ ، فالتاريخ لا يقول لنا إن أحسن قد وزع أرضاً على الفلاحين . . . لكن المدينة الفاضلة التي كنت أحلم بها كانت تنهض على فكرة كون الأرض ملكية عامة يزرعها الفلاحون ، ويعطون الدولة قدرًا من غلتها .

وقد حاولت أن أمزج بين مدينتي الفضلى والتاريخ عندما كتبت هذا الموقف غير الثابت تاريخياً ، وبعد (كفاح طيبة) أخذت نزعة الإصلاح الاجتماعي تغلب .

إذن ، في الوقت الذي كان فيه نجيب محفوظ يحقق فيه مشروعه الروائي (الفرعوني) الضخم مستهدفاً أغراضاً (وطنية) بالأساس ، كان هناك اتجاه (اجتماعي) آخر قد بدأ يتسلل ببطء إلى أعماله حتى سيطر في النهاية .

أما النتائج التي ترتبت على هذا التحول فقد حددها نجيب محفوظ - في ذات حوار مجلة « الآداب » - حين قال : « إن مجهوداً كبيراً ضاع كذلك في دراسة الفلسفة . بل إن مجهود الفلسفة عاش في نفسي واستفدت منه ، أما التاريخ فلا . والغريب أن التاريخ فقد سحره كلية بالنسبة لي . كانت نحىء على فترات أود لو استرحت فيها في قصة تاريخية ، ولكنني لم أستطع » .

ولعل هذا التحول كان حافزاً لنجيب محفوظ حتى يستكشف أبعاد ذاته ككاتب ، حين استطرد : « إنني أذكر أن ثمة تقسيماً يقسم الأدباء إلى أدباء الفعل الماضي وأدباء الفعل المضارع وأدباء المستقبل ، وعندما تأملت نفسي وجدت أنني من أدباء الفعل المضارع ، من أدباء الحاضر ، لأحب الكتابة عن الماضي ولا يستهويني التنبؤ بالمستقبل » .



٢. المرحلة الواقعية

تسلل الاتجاه (الاجتماعى) إلى آخر روايات المرحلة التاريخية « كفاح طيبة » ، ولعله كان إيذاناً بهجر التاريخ والماضى والتحول إلى الواقع المعاش أو الحاضر . وانظر إلى حوارهِ - المنشور بمجلة « الآداب » : يونيو ١٩٦٠ - حين قال : « بدأت بالوطنية فى الوقت الذى شغل ذهنى بالقضية الوطنية ، وساقنى ذلك إلى مصر الفرعونية باعتبارها القومية المصرية ، تلا ذلك اهتمام واضح بالأفكار الاجتماعية ، الشعور بالاضطهاد الاقتصادى والسياسى كما ترى فى القاهرة الجديدة - خان الخليلى - رفاق المدق - بداية ونهاية ورواية أخيرة تمثل فى « الثلاثة » .



ولكن ماهو (الأسلوب) الفنى المناسب للتعبير عن هذه المرحلة الواقعية ؟ . . .
أوضح نجيب محفوظ مبررات اختياره أو تفضيله للأسلوب (الواقعى) فى العديد من الحوارات :

« عندما بدأت الكتابة كنت أعلم أننى أكتب بأسلوب أقرأ نعيه بقلم فرجينيا وولف . ولكن التجربة التى أقدمها كانت فى هذا الأسلوب . وقد تبينت بعد ذلك أنه إذا كانت لى أصالة فى الأسلوب فهى فى الاختيار فقط . . . لقد اخترت الأسلوب الواقعى ، وكانت هذه جرأة ، ربما جاءت نتيجة تفكير منى . ففى هذا الوقت كانت فرجينيا وولف تهاجم الأسلوب الواقعى وتدعو للأسلوب النفسى . والمعروف أن أوربا

كانت مكتظة بالواقعية لحد الاختناق . أما أنا فكنت متلهفا على الأسلوب الواقعي الذي لم نكن نعرفه حينذاك . الأسلوب الكلاسيكي الذي كتبت به كان هو أحدث الأساليب وأشدّها إغراءً وتناسبًا مع تجربتي وشخصي وزمني . وأحسست بأنني لو كتبت بالأسلوب الحديث سأصبح مجرد مقلد .

(جريدة «الجمهورية» - ٢٨ أكتوبر ١٩٦٠)

هنا (اختار) نجيب محفوظ الأسلوب الواقعي عن اقتناع لأنه يناسب تجربته وشخصه وزمنه ، رغم أن هذا تجاوزته أوربا تماما . .

- « في عهدنا كانت المفاضلة بين الأسلوب الواقعي والرومانسي الذي كان سائدًا في أوربا ، أي رؤية الخارج من خلال الذات ، أو الخارج من خلال الخارج ، أو موقف وسط . ولم يكن هناك اختيار بالمعنى الحقيقي لأنه ليس هناك اختبار حرّ في الفن ، أي كوني أريد أن أقدم قطاعات من مصر لم يكن في ذلك اختيار ، فقد فرضت نفسها على أماكن معينة ، يجب التخلص منها بالتعبير الفني كما يقولون . كان أسلوب تقديمها هو الأسلوب الذي يعبر عنها من خلال خلق جديد لا يشوه كيونتتها ، وإلا فإنك لم تقدمها . ولذلك وجدت أن الصورة التي قدمتها بها هي أنسب شيء للموضوع الذي حركها ، ليس أي أسلوب آخر » (مجلة « الطليعة » القاهرية - يناير ١٩٧٣)

لقد تقدم نجيب خطوة على طريق توضيح مفهومه السابق للاختيار . هنا (واقع) خارجي فرض نفسه على الفنان ، ألحّ عليه ، فكان حافزًا له على (الإبداع) ، فاختر نجيب محفوظ الأسلوب المناسب للتعبير عنه . .

- « عندما بدأت الكتابة كنت أطرح هذا كله ، وأنهج منهجا واقعا . . في الوقت الذي كنت أقرأ أعنف الهجوم على الواقعية . كان الأدب العالمي الحديث قد تعرض للواقع عبر مئات الأعمال ، ثم انكفأ إلى الداخل ، إلى تيارات الوعي واللاوعي ، وما وراء الواقع . لكن بالنسبة لي ، وللواقع الذي أعبر عنه لم يكن قد عولج معالجة واقعية بعد حتى أقدم على استخدام الأساليب الأدبية الحديثة التي كنت أقرأ عنها وقتئذ . .

« كيف أغوص إلى واقع لم يوصف في ظاهره ولم ترصد علاقاته ؟ . .

المهم أن يدرك الكاتب الأسلوب المناسب للتعبير عن موضوعه وعن نفسه ، وكان مما يزيد الأمر صعوبة أننا نفتقد التراث الروائي في الأدب العربي ، وكنت أعمل في أرض شبه خالية ، وعلى أن اكتشف بنفسى وأمهّد أيضاً . لكننى الآن أعتقد أن إدراكى كان سليماً .

(« نجيب محفوظ يتذكر » : جمال الغيطانى)

إذن ، كان (اختيار) نجيب محفوظ للأسلوب الواقعى اختياراً ضرورياً ، لمناسبه لموضوعه ، وحتى يمهّد الأرض البكر ، ويضع الأساس لاستكشاف (الواقع) ، لأن الأسلوب الواقعى حلقه فى سلسلة تطور فنى مرّت بها أوربا ، حتى وصلت إلى الأساليب الحديثة .

وأخيراً ، يضيف نجيب محفوظ لمسة جديدة - فى حوار معه ، مجلة الهلال : عدد تذكارى يناير ١٩٧١ - حين قال : « أما قصتى مع الأساليب الفنية فأرى فيها نبض تجربتى الشخصية واختارها ، أو هى التى تختارنى بحسب الأحوال والمقامات ، وأذكر أننى كتبت « زقاق المدق » بالطريقة التى كتبها بها ، وأنا على علم بجويس وكافكا وبروست » .



هكذا توالى إبداعات نجيب محفوظ فى تلك المرحلة : « القاهرة الجديدة » (١٩٤٥) ، « خان الخليل » (١٩٤٦) ، « زقاق المدق » (١٩٤٧) ، « السراب » (١٩٤٨) ، « بداية ونهاية » (١٩٤٩) ، ليختتم تلك المرحلة بالثلاثية التى أنجزها فى إبريل ١٩٥٢ .

تبدت فى روايات تلك المرحلة (الخبرات) التى عرّكها نجيب محفوظ : قفى رواية « القاهرة الجديدة » ظهرت آثار دراسته للفلسفة ، وقد أوضح نجيب محفوظ هذا التأثير فى سياق إجابته حول سؤال فى حوار - نشر بمجلة « الفكر المعاصر » : سبتمبر ٦٨ - قال فيه : « أنا لم أتوفر على نقد نفسى بالقدر الذى يكفى لإجابتك . . . غير أن بعض أساتذة الفلسفة لاحظوا أنى أنهج منهجاً ديكارتياً فى بعض مؤلفاتى ، أى أنى أقيمها

على أساس الشك في كل شيء ، ثم أصل عن طريق الجدل إلى الحقائق وقد أشاروا في ذلك إلى « القاهرة الجديدة » بوجه خاص .

كما تجلى تأثير التحولات السياسية التي يمر بها المجتمع في غالبية روايات تلك المرحلة ، وانظر إلى إجابته على صبرى حافظ حول تصوير شخصياته داخل الأماكن المغلقة ، بينما كان المفروض أن يحقق الإنسان في عالم فنى تعتبر السياسة محورها الأساسى في الخارج في المجتمع العام - في حوار نشر بمجلة « الآداب » : يولييه ١٩٧٣ - حين قال : « . . في السياسة لا نستطيع أن نحقق نفسك في الخارج إلا في جو صحى . . وهذا الذى يتحقق في الخارج لا بد أن يكون متمرداً أو ثائراً بفكر في قلب الانظمة حتى يفرض روحه ووجهة نظره ورؤيته . . خذ مثلاً جمال عبد الناصر . . كان لابد له من القيام بثورة حتى يحقق نفسه في الواقع الخارجى . ولكن ليس الجميع يملكون هذا . . وإذا كنت مواطناً عادياً فكيف تحقق نفسك في عالم السياسة ، في ظل نوع من الحرمان العام .

أما في فترة ما قبل ١٩٥٢ فإنه لو أُحترِم دستور ١٩٢٣ لكانت الحياة السياسية في مصر قد سارت في خط طبيعى وتطورت تطورها الصحى . . حلت أجيال محل أجيال ، وأحزاب جديدة مكان الأحزاب التى تستنفد غرضها وسياستها وهكذا . . إن الوفد مثلاً كان قد انتهت رسالته عام ١٩٣٦ ولكنه عاش حتى عام ١٩٥٢ . كل هذه الحياة كانت مفتعلة بفضل أعدائه وبفضل غياب المناخ الطبيعى ، لقد ظل الوفد لأن الجمهور علق عليه آماله لحياة أمله في الأحزاب الحاكمة . . والواقع أن الوفد لم يحكم بسبب الإقالة ، ولكنه عاش بسبب هذه الإقالة ذاتها . وكانت كلها حياة مفتعلة . ولكنه قبل ١٩٣٦ كان من رابع المستحيالات القضاء على الوفد إلا إذا قتلت الشعب المصرى روحياً قتلاً تاماً . لقد كان الوفد محامى الشعب الذى وكله في قضيته وتمسك به حتى يكسب له القضية أو يخسرها . ولم يكن من الممكن أن تنتهى علاقته بمحاميه قبل أن يكسب له القضية أو يخسرها .

وما يؤكد هذه الملاحظة ، ولكن بطريقة عكسية ، أن الذى حقق نفسه في الخارج كان يفعل ذلك بطريقة ملتوية ، مثل محبوب عبد الدائم في (القاهرة الجديدة) . لقد

حقق محبوب نفسه في الخارج لكن انظر ماذا كان الثمن ، والشبيه الآخر به حيدة في (زقاق المدق) حققت نفسها وطموحاتها هي الأخرى في الخارج . . لكن ما أفدح الثمن ! لقد تحقق الاثنان عن طريق الدعارة . . والغريب أن تحقيق الذات في الخارج بعد ذلك التاريخ كان يتم بطرق مشابهة . . .

وانظر لتأثير ثورة ١٩١٩ التي عايشها طفلا ، في إبداعات تلك المرحلة ، وهو يتحدث عن الثلاثية - في مجلة « العربي » : أكتوبر ١٩٩١ - حين قال : « أنا لم أكن أؤرخ للثورة ذاتها كأحداث . . أما الثورة ، فإنها أهم أحداث حياتي » ، « وهي تعيش في أعمالي إلى الآن . . ولكنها في الرواية كانت تهمني كفنان ، يعني كيف ترى عائلة (السيد عبد الجواد) أحداث الثورة وتختلط بها ، وكيف يتغير وجدانها مع الثورة رجالا ونساء دون أن يشعروا ، لقد تغيروا في السلوك والمواقف وفي العلاقات وفي كل شيء . هذا ما كان يهمني كفنان » .

ثم انظر إليه وهو يوجز ما يعبر عنه كل جزء من الثلاثية - كتاب « نجيب محفوظ : حياته وأدبه » : نبيل فرج - حين قال : « بين القصرين » تعبر عن تحول مجتمع أو يقظة مجتمع من سباته على دق ثورة ، « قصر الشوق » : تبرز فيها العوامل الطبقيّة كعامل من عوامل إفساد هذه الثورة ، وفي « السكرية » : تتجدد ثورات مع دخول شباب جديد إلى المسرح . . وانظر إليه أخيرا ، وهو يقيّمها فنيا - في كتاب « نجيب محفوظ يتذكر » - حين رأى أنها : « قادمة من عصر كلاسيكي ، ومتوغلة في عصر رومانتىكي ، ومتجهة إلى عصر تحليلي ، وفيها تلاقى الشرق والغرب » .

كما برز في هذه المرحلة عنصر جديد ، هو قدرة الأعمال الأدبية على التنبؤ ، خاصة مع رواية « بداية ونهاية » التي بين نجيب محفوظ جوانبها - « الرؤى المتغيرة في روايات نجيب محفوظ » : عبد الرحمن أبو عوف - حين قال : « الغريب أنني كتبت رواية (بداية ونهاية) سنة ٤٦ / ٤٧ ونشرتها سنة ١٩٤٨ ، وبعد الثورة كنت أجلس مع الناقد أحمد عباس صالح وكان يجللها نقديا لي وكانت في تحليله كأنها نبوءة بما حدث ، وأنا أصفيت إليه وظلمت أقارن بين ما يحدث فحصل لي ذهول للتطابق » .

وأضاف مدعماً رأى الناقد الكبير : « أتذكر بخصوص هذه الرواية - بداية ونهاية - أننا كنا حاضرين لجنة تابعة للمؤتمر الاسلامي ، عندما كان السادات رئيسه وكان فيها يوسف السباعي وخالده محي الدين وطه حسين ، وعندما سلمت على السادات بصفته رئيس اللجنة ضحك السادات وقال : أنا قرأت بداية ونهاية . وقال كيف تجعل الضابط حسين يتحرر ، ده إحنا الضابط ده » .

وقد حاول نجيب محفوظ أن يتلمس تعليلاً لهذه الظاهرة - في كتاب « نجيب محفوظ يتذكر » - حين قال : « الثورة عند الأديب تبدأ في قلبه أولاً ، وفي تفاعله مع الناس ثانياً . تبدأ في إحساسه بالنبوءة الطبيعية الذي لا أعتقد أن فنانا يستحق هذا الاسم خالٍ منه ، لأن الفنان الأصيل كالحَيوان ، كالمصافير والفيلة والنسور التي عندما تحسّ بخطر مُحْدَق تصدر بالفريرة أصواتاً خاصة للملأ أن خطراً ما آت ، والفنان إذا لم يكن عنده هذا القدر من الإحساس العام الذي يجعله ويجعل أدبه في مستوى النبوءة متضمنة دعوة إلى هذا الاتجاه أو ذاك ، تكون أجهزته كلها معطلة أو مختلة . إن الفنان في الواقع لا يتنبأ ، وإنما يحسّ الرؤيا ، رؤيا الواقع » .



كان إبريل ١٩٥٢ ، هو الشهر الذي انتهى فيه نجيب محفوظ من كتابة (الثلاثية) ، وأصبحت - في ذات الوقت - بداية لأحلك فترة توقف فني خاضها الكاتب في حياته ، لأنها استمرت خمس سنوات حتى عام ١٩٥٧ ، وتعتبر من حيث النوع ، امتداداً لفترات التوقف الثلاث السابقة ، حيث كانت الموضوعات موجودة ، بينما كان الدافع إلى الكتابة مفقوداً . . أما الموضوعات فكان أمامه سبعة موضوعات لروايات أخرى في نفس الاتجاه الواقعي النقدي ، وهو يقول عن ذلك - في حوار بمجلة « الكاتب » : يناير ٦٣ - « وأذكر أنني عرضت هذه الموضوعات على عبد الرحمن الشقراوى وبعض زملاء الأدباء ودهشوا لأنى لم أكتبها ، فما أكثر الذين بدأوا بعد الثورة ينقدون في أعمالهم الأدبية مجتمع ما قبل الثورة » .

ثم عاد في حوار آخر في مجلة « الآداب » - يولية ١٩٧٣ - ليرسم ملامح هذه

الموضوعات: « كانت أمامي سبع موضوعات شبه مكتملة ، خطوطها واضحة ، وشخصياتها متبلورة ، ولكنى تركتها . . لقد وجدت أمامي الموضوع والمادة ولكنى افتقدت الانفعال لكتابتها فتركتها » .

من هذه الموضوعات التي شجعه عبد الرحمن الشراوى على كتابتها موضوعاً لرواية بعنوان « العتبة الخضراء » التي قال عنها - في مجلة « العربي » : أكتوبر ١٩٩١ - « كانت على النمط القديم ٢٤ ساعة في ميدان العتبة الخضراء ، على طريقة روايه جويس « يوليسيز » ، لكننى كنت أراها من زاوية تقليدية وكنت أريد كتابتها من نفس الزاوية ، أوسعت لها كثيراً ، وأرتنى القاهرة من زوايا لم أتوقعها . . من الفجر إلى الفجر التالى ، ولكن الرؤية تغيرت ، فتوقفت . . » .

والآن ، ماهى الأسباب التى برز بها نجيب محفوظ هذا التوقف ؟ ! . .

أول الأسباب كان وراء توقفه أيضاً بعد ثلاث روايات من المرحلة التاريخية ، وربما كان شخصياً ، حين صنف الكتاب ، واعتبر نفسه من أدباء الحاضر وذلك حين قال فى كتاب « نجيب محفوظ : حياته وأدبه » : نبيل فرج : « أنا أومن بأن أى نقد لغير الحاضر هو تأييد مقنع . وقد خلقت معارضا لا مؤيدا . ولكل إنسان مزاجه ، ومن طبعى أننى إذا شعرت بالراحة والانسجام مع الأشياء كففت عن الإنتاج » .

وقد أوضح نجيب محفوظ فى حوار آخر : مدافعا عن نفسه ، أو مبرراً عدم نقد مجتمع (الحاضر) ، أى مجتمع مابعد ثورة يوليو فى ذلك الوقت حين قال : « لعل المجتمع الجديد لم يكن قد تبلور بعد ، حتى أتخذ منه موقفاً واضحاً ، فى حين كنت أكتب من قبل عن مجتمع واضح الملامح أسطر سيطرة كبيرة على تفاصيله » .

(مجلة « الطليعة » - يناير ٧٣) .

والسبب الثانى يرتبط بقيام ثورة يوليو وما نتج عنها من تحول وتغير بالمجتمع القديم ، لذلك نجد أن نجيب محفوظ قد رتب على قيامها عدداً من المبررات ، وانظر اليه وهو يقول فى كتاب « نجيب محفوظ : حياته وأدبه » : « إن الثورة قامت فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، حققت كثيراً من أحلامنا أول ما جاءت ، وإن تحقيق الأحلام بالنسبة

للكاتب يزهد في الكتابة ، « وهل لأن مجتمعا باليا في مصر كان يزول بفعل الثورة ، وهذا المجتمع هو الذي كنت أنقذه ، وبعد زواله وجدت أن النقد مثل عدمه ؟ ، كما أنى في الفترة الأولى ، أى ما قبل الثورة ، كنت أكتب من موقف غير المنتمى إلى المجتمع الذى أكتب عنه ، بخلاف الفترة التالية .

وربما اتخذ نجيب محفوظ هذا المسلك ، ليكون بمثابة « التقية » أو درءا للشبهات ، كما أشار د . شاکر عبد الحميد (مجلة « العربى » - مايو ٨٩)

والسبب الثالث يرتبط بالجانب الفنى ، وقد تناول نجيب محفوظ في هذا المجال أربع زوايا مختلفة ، الأولى في كتاب « الرؤى المتغيرة في روايات نجيب محفوظ » : عبد الرحمن ابو عوف ، حين قال : « إن الرواية التى كنت أكتبها حتى الثلاثية ، هى الرواية بمعناها وشكلها التقليديين . وهذا النوع من الرواية لا يستقيم أمره إلا في مجتمع ثابت ، مستقر ، وواضح الملامح ، لا في مجتمع يتعرض للتغير في كل لحظة .

أما الزاوية الفنية الثانية ، فهى تعكس خشية الفنان من تكرار نفسه في أعماله الفنية ، وقد أوردها في حوار الموسع بمجلة « الطليعة » - يناير ١٩٧٣ - حين قال : « كانت كل الروايات الموجودة عندي ما هى إلا استمرار لنقد المجتمع القديم . فلم أجد مبررا لنقد شيء أصبح جثة ، وقد تبع الملل من الموضوع ملل من الشكل ، فشعرت بخوف من التكرار .

أما الزاوية الفنية الثالثة ، فقد جاء نجيب محفوظ على ذكرها في كتاب « نجيب محفوظ يتذكر » حين قال : « ربما كانت الثلاثية هى السبب ، إذ يمكن القول إننى أشبعت خلالها رؤيتى ولكننى لا أستطيع الجزم بذلك .

أما الزاوية الفنية الرابعة ، فتكشف طبيعة التحول الفنى المواكب لتحول المجتمع ، وقد أوضحها نجيب محفوظ في حوار معه - جريدة « المساء » ٥ فبراير ١٩٥٨ - حين قال : « إن الظروف التى دفعتنى إلى الكتابة قد تغيرت من أساسها ، ونتيجة لذلك شعرت بفراغ ، لعلّه مؤقت ، ولعلّه نوع من الاستجهاام والاستيعاب لإسلوب جديد في الكتابة ، ولعلّه النهاية .

هنا يتضح أن هناك جملة أسباب تكمن وراء توقف نجيب محفوظ طويلا في أعقاب الانتهاء من الثلاثية ، أولها يتعلق بطبيعته الخاصة التي اكتشفها في أعقاب المرحلة التاريخية ، وأكد هذا التوقف وجودها ، وهو أنه من أدباء (الحاضر) ، الذين يرتبطون بشدة بالمجتمع الذي يعيشون فيه . والسبب الثاني مرتبط ومرتب على الأول ، لقيام ثورة يوليو ٥٢ وزوال مجتمع (الماضي) الذي عرّكه جيدا ، وسطوع مجتمع جديد لم تبلور ملامحه بعد ، والسبب الأخير يتعلق بالجوانب الفنية وارتباط عمله باستيعابه لطبيعة المجتمع الذي يكتب عنه ، ورعبه الأكبر من تكرار نفسه ، وربما تصاعد هذا الإحساس في أعقاب استنزاف الفنان في عمل كبير كالثلاثية ، حقق فيه كل ما يطمح إليه من الأسلوب الواقعي ، لذلك يكون التوقف والصمت محاولة من الفنان الصادق لتلمس ملامح المجتمع الجديد الذي يتشكل ، واستنفار قواه لبلورة أسلوب جديد يناسب هذا التحول ، وهو ما تحقق فعلا في روايته العملاقة « أولاد حارتنا » ، ولعلّ هذا هو ما دعاه إلى القول - في كتاب « نجيب محفوظ : حياته وأدبه » : « كما أن الإصلاح لا يتوقف ، فإن تناقضات المجتمع لا تتوقف كذلك ، فبعد فترة من الزمن يتعامل الإنسان مع تناقضات جديدة في المجتمع الجديد ، ويعود إلى الشعور بالهوة التي تفصل الواقع عما يجب أن يكون ، فيشحن قلمه ، ويدخل في المعركة » .

أما رواية « أولاد حارتنا » التي عاد بها نجيب محفوظ ثانية إلى عالم الإبداع ، فهو يرى أنها : « أدخلتني عالما جديدا ، وطريقة جديدة في الكتابة » (مجلة « العربي » - أكتوبر ١٩٩١) . وأنه : « من الممكن اعتبارها رواية تقوم على أساس فكرة فلسفية ، والذين رأوا فيها هذا يقولون إنها محاولة لإقامة الاشتراكية والعلم على أساس لا يتخلو من صوفية . وأعترف لك أن هذه الفكرة لم تخطر ببالى بمثل هذا الوضوح أثناء كتابتي الرواية » .
(مجلة « الكاتب » - يناير ١٩٦٣) .

* * *

ويبقى هنا أن نتساءل عما فعله نجيب محفوظ خلال فترة توقفه الطويلة تلك عن الإبداع ؟ ...

قال نجيب محفوظ عن تأثير تلك الفترة وما فعله فيها - مجلة « الثقافة الجديدة » :
إبريل ١٩٨٨ :

« أحسست لأول مرة أن يتابع الإبداع قد جفت ، وأن حياتى كأديب انتهت ، فالتجّهت إلى السينما حيث مارست كتابة السيناريوهات للأفلام ، وكانت فترة غريبة فى حياتى كلها » . بل إن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد ، حين قال - فى كتاب « نجيب محفوظ يتذكر » - « ذهبت وسجلت نفسى فى النقابة وأصبحت أعمل مع أى مخرج ، توقفت عن كتابة السيناريو مرة أخرى عندما عُينت مديراً للرقابة ، وكنت متعاقدًا على سبعة سيناريوهات ، وكان ذلك عام ١٩٥٩ » .

هذا هو نجيب محفوظ ، الدؤوب ، المؤمن بالتخصص ، المتفرغ للعمل الذى يؤديه ، حين أحس أن فترة التوقف تجاوزت علامات الخطر ، وامتدت إلى عالم الأدب الأثير الذى وهبه حياته ، اندفع إلى عالم السيناريو ، ليعمل كمحترف ، فسجل نفسه فى النقابة . رغم أنه رفض أن يستمر سابقا بالعمل مع المخرج الكبير صلاح أبو سيف ، مبرراً اعتذاره بتفرغه للأدب ، وهو يحكى عن تلك الفترة فى كتاب « نجيب محفوظ يتذكر » فيقول : « فى سنة ١٩٤٧ ، صديقى فؤاد نويرة ، قال لى : صلاح أبو سيف عاوز يقابلك . فى هذه الفترة كانت لى عدة روايات آخرها زقاق المدق . رحى مع فؤاد ، كنا فى الصيف ، قابلنا صلاح أبو سيف فى شركة تلحيم السينمائية . قال لى : الواقع أنا قرأت لك عبث الأقدار وثبتت منها أنك من الممكن أن تكون كاتب سيناريو كويس ، قال لى : إن لديه قصة عنتر وعجلة قلت له : أنا ليس لدى أى فكرة عن الموضوع . قال : معلش ستعرف السيناريو ، فؤاد شجعنى على قبول العرض . حقيقة . . تعلمت السيناريو على يد صلاح أبو سيف . . المهم أنه طلب منى أن أعمل معه باستمرار ، لكننى اعتذرت لأننى متفرغ للأدب . وأود أن أقول لك إن السيناريو كتبته فى الفترات التى كنت أتوقف فيها عن الكتابة الأدبية ، ولو أنه عطلى لحظة واحدة لتركته بدون تردد » .

أما الحدث الآخر الهام الذى حدث خلال فترة التوقف تلك ، فكان زواج نجيب محفوظ ، وقد أضحى نجيب محفوظ أبعاد الحدث - فى كتاب « نجيب محفوظ يتذكر » -

حين قال : « تزوجت في عام ١٩٥٤ ، خلال توقفي عن كتابة الرواية في فترة اليأس الأدبي ، تزوجت وأنا سيناريست أكتب للسینما ، من الممكن أن يكون الفراغ الذي كنت أعانيه قد لعب دوراً كبيراً في دفعي إلى الزواج ، وإلا . . ما الذي كان يجفني من الزواج قبل ذلك ؟ إنه الأدب ، وهذا تصور خاطيء ، وتفصيله مكتوبة في يومياتي التي كنت أدونها يوماً بيوم ، ثم توقفت عن الاستمرار في كتابتها ، كنت أناقش نفسي في يومياتي ، هل أتزوج أم لا ؟ وكنت أقول إن الزواج سيحطم حياتي الأدبية ، وانتهيت إلى قرار برفض الزواج . فيما بعد ، بعد أن استعدت حياتي الأدبية واستأنفت الكتابة ، أعتقد أن حياتي الزوجية قد ساعدتني ، وليس العكس » .



■ الفصل الثالث ■

أساليب الكتابة

١- الكتابة بعد « اكتمال النضج »

والآن ، لتعرف على مراحل الأسلوب الذى كان نجيب محفوظ يبدع به روايات تلك الفترة .

أولا : البدء من فكرة :

تبدأ هذه المرحلة بالعثور على بذرة موضوع والتفكير فيه ، وقد عبرَ عن نقطة البدء هذه - فى حوار بمجلة « الآداب » : يونيو ١٩٦٠ - حين قال : « الرواية قد تبدأ من إحساس ما ، فكرة ما ، موقف ما . . ولكن قد يحدث ذلك قبل الشروع فى التنفيذ بأعوام : عام واحد ، عامين ، عشرين . . وقد يعاود الكاتب إحساسه أو فكرته أو الموقف فى أوقات متباعدة » .

ثانيا : مرحلة الاحتضان :

وخلال فترة التفكير تلك ، أو ما يمكن أن نطلق عليها مرحلة الاحتضان أو الحمل ، تبدأ ملامح العمل فى التبلور تدريجيا ، وقد تحدث نجيب محفوظ عن هذه المرحلة - فى مجلة « فصول » : يناير / مارس ١٩٨٢ - حين قال : « الحقيقة أنى ما أمسكت بالقلم لا كتب رواية إلاّ وكانت متبلورة فى ذهنى : الشخصيات والأحداث والبداية والنهاية ، وكل ذلك يكون مسجلا فى فهرست » .

أرجو أن تشرح لنا فكرة هذا الفهرست ؟ . .

«عندما أقرر مثلا أن أكتب عن شخصية فإننى أتصورها فى موقف من المواقف . وقد يكون أول تصور لموقفها هو ختام الرواية ، وقد يكون جزءا فى الوسط ، وقد يكون فى البداية . وما يحدث هو أنى أسجل جزئية حتى لا أنساها ثم تنمو جزئية أخرى تضاف إليها أو تدخل فى حياة هذه الشخصية شخصية أخرى ، وتظل تنمو وهى فى صورة غير منتظمة » .

ثالثا : مرحلة التخطيط :

هنا يحس الكاتب أن فكرته قد نضجت وتبلورت وأنها تطالب بالخروج . . عند ذاك يشرع فى عمل تخطيط عام يبين مراحلها ، وقد عبر نجيب محفوظ - فى مجلة « فصول » : يناير / مارس ٨٢ - عن تلك المرحلة وهو يتحدث عن المادة الضخمة التى تراكمت لديه فى مرحلة الاحتضان ، فيقول : « ثم أعيد ترتيبها حتى تصبح كيانا متكاملا » ، «وعندما أبدأ الكتابة أبدأ بتخطيط . هذا عن إعداد تخطيط للرواية قبل الشروع فيها » ، « وكلما كان العمل كبيرا أحتاج إلى تخطيط وإلا تاه فيه الكاتب » .

رابعا : مرحلة الكتابة :

وقد عبر نجيب محفوظ عن هذه المرحلة - مجلة « الآداب » - يونيو ٦٠ - حين قال : «إذا وصلت إلى مرحلة التنفيذ فإن المسألة تتحول إلى عمل يجب أن ينجز ، ولن ينجز إلا بالإرادة والصبر ، فلا أعرف دلال الإلهام ، وإنما أعرف أن على أن أجلس إلى مكتبى كل يوم . . ساعة أو ساعتين حتى أفرغ من العمل فى عام أو عامين ، وإن جاز لنا أن نحتمل دلال الإلهام فى قصيدة أو أقصوصة فمن غير الجائز ملايته فى عمل يحتاج إلى عام أو اثنين أو ثلاثة . . لنفرغ منه » .

ولكن أثناء التنفيذ تحدث بعض التحولات التى عبر عنها - فى كتاب « نجيب محفوظ : حياته وأدبه » : نيل فرج - حين قال : « كنت أبدأ بعد أن تتبلور فكرتها - الرواية - العامة وشخصياتها الرئيسية ، ومواقفها الهامة ، غير أن التنفيذ كان يأتى دائما بجديد أو يحور ويعدل ويضيف » . وقد أوضح نجيب محفوظ هذا (الجديد) فى - مجلة « فصول » يناير / مارس ٨٢ - حين قال : « ولا يعنى هذا أنى عندما أكتبها ألزم

بالصورة الأولى ، فكثيراً ما تصبح شخصية ثانوية مهمة جداً لأنها فرضت نفسها ، ويجوز جداً أن تتغير في النهاية . وكل هذه الاحتمالات موجودة » .

وبطبيعة الحال ، يعتبر « هذا المنهج ضروريا في الروايات الطويلة ، ذات الشخصيات المتعددة وإلا انقرط بناء الرواية » .

والآن ، لنأخذ مثالا تطبيقيا ، عن كيفية إبداع « الثلاثية » كما عبر عنها في كتاب «نجيب محفوظ يتذكر» :

أولا : البدء من فكرة :

« فكرة الثلاثية جاءتني على دفعات ، أستطيع تحديد اللحظات الاولى ، كنت أقرأ في كتاب عن اجرومية الرواية ، في الواقع أنا قرأت العديد من كتب فن الرواية ، أول ما تعرض له هذا الكتاب الرواية التي يسمونها رواية الأجيال ، أو رواية الأزمان التي تعرض أجيالا عديدة متوالية ، أعجبنى الشكل .

في هذه الأثناء أصدر طه حسين « شجرة البؤس » ، وجذبها قرية جدا من هذا النوع ، أقصد رواية الأجيال ، ولكنها قصيرة جدا إلى حد ما . .

سيطرت الفكرة على تماما . .

وهنا بدأت أقرأ الروايات الكبرى التي تعرض للأجيال ، قرأت « ملحمة أسرة فورسايت » لجولز ورثي ، و « الحرب والسلام » لتولستوي ، و « آل بودنبروك » لتوماس مان . وفي لحظة معينة شعرت أنني وصلت إلى نقطة معينة امتلكت فيها زمام الموضوع .

ثانيا : مرحلة الاحتضان :

« في السنوات التي سبقت الثلاثية كانت التفاصيل تتراكم من هنا وهناك ، من جلسة ، من حوار ، من سهرة . إن تسعين في المائة من شخصيات الثلاثية لها أصول واقعية بعضها من عائلتنا ، جيران أو اقارب » .

« بالطبع الشخصية الواقعية تنسى ، لأن الخلق يُجِيلها إلى شيء آخر ، الأصل في الواقع ينسى ، ولا يعرف تاريخيا إلا طبقا لتسجيلك أنت ، الأصل لا يهم » .

ثالثا : مرحلة التخطيط :

« كتبت الثلاثية وأنا في عنفوانى ، صبور ، جلد ، عمل كهذا كان يحتاج إلى صبر، إلى صفة ، لو أنك رأيت أرشيف الثلاثية ستدرك مدى ما أقول ، ما خططته من أجل كل شخصية . كل شخصية كان لها ما يشبه الملف ، حتى لا أنسى الملامح والصفات ، خاصة أننى أعمل فى كل سنة من أكتوبر إلى إبريل فقط بسبب مرض الحساسية الذى يصيب عيني ، كذلك التخطيط للرواية كلها بحيث تمضى فى بناء تناسك » .

رابعا : مرحلة الكتابة :

« كتبها فى أكثر من أربع سنوات ، بدقة ، جهد ، بنأى ، تحدونى الرغبة إلى أن أنهى شيئا جيدا ، ولم يكن صراعى مع اللغة قد بدأ بعد والذى واكب الأشكال الحديثة ، كنت أكتبها بأسلوب هادى » .



٢- بين التخطيط والتلقائية

حدد نجيب محفوظ شكل إنتاجه الأدبي في فترة ما بعد الانتهاء من رواية « أولاد حارتنا » - في كتاب « مع نجيب محفوظ » : أحمد محمد عطية - حين قال : « إن القصة القصيرة أنسب للمحظنة الحاضرة . وأحب أن أقول إنى كفت عن كتابة الرواية منذ الثلاثية لأن كل ما كتبه كأولاد حارتنا ذات منهج ملحمى ، وما جاء بعدها يعتبر من نوع القصة القصيرة الطويلة . فأنا لم أكتب رواية منذ الثلاثية » .

وقد فسرّ نجيب محفوظ مبرراته لتفضيل شكل القصة القصيرة في سياق استعراضه لمسيرته الأدبية وتطورها - مجلة « الفكر المعاصر » : سبتمبر ١٩٦٨ - حين قال : « الحق أنى بدأت بكتابة الرواية ، والقصة القصيرة . في وقت واحد تعذر على نشر الروايات ، ولكن القصص القصيرة نشرت . . . ولعلى لم أكتب القصة القصيرة في ذلك الوقت . . . إلا رغبة في النشر . . . ولذلك كفت عنها عندما يسرلى نشر الروايات . . .

ولكننى لم أكتب رواية بعد الثلاثية ، أى بعد عام ١٩٥٢ ، فأولاد حارتنا شكل أشبه بالملحمة منه بالرواية ، واللص والكلاب ، والطريق والشحاذ . . . إلخ . . . قصص قصيرة طويلة ، فضلا عن القصص القصيرة التى جُمعت فى كتب دنيا الله ، وبيت سىء السمعة ، وخمارة القط الأسود . . . وهذا يعنى أننى منذ ١٩٥٢ وأنا فى حالة استطلاع ومتابعة وتلفت وسط عالم سريع التغير . . . تعذر على مواجهته برواية . أى تعذر على الانعزال عنه مدة طويلة تكفى لكتابة رواية ، إذ أنه كان يدق على الباب كل

صباح وكل مساء ، فوجدتني أقدر على مواجهته ، ومتابعته بالأعمال المركزة القصيرة التي تناسب الرحالة لا الرجل المستقر . . . »

كما أضاف - في مجلة « الطليعة » (يناير ١٩٧٣) - : « أنا الآن في مجتمع جديد مازال يتشكل . فهنا عدم المعرفة والغربة ، فإذا شعر الفنان بهذين الأمرين يصبح الشيء الوحيد الثابت هو الذات » ، « ومن هنا كان تحولي للكتابة الواقعية ، لكن تغلب عليها الذاتية ، لهذا ظهرت في كتاباتي أساليب مثل مناجاة الذات واتجاهات مثل أدب الفكر . . أي أن العناصر مأخوذة من داخل الفنان وليس من خارجه » .

لنحاول الآن - أن نتفهم ما عناه نجيب محفوظ ، فبعد أن تحدّد اختياره في (الرواية) ، انساق وراء الرواية التاريخية (الماضي) ، لكن المجتمع الراهن حينذاك (الحاضر) كان يجذبه إليه ؛ لأن المجتمع كان ثابتا ومستقرا ، كانت الرواية (الواقعية) هي أنسب الأشكال للتعبير عنه . حتى إذا ما قامت ثورة يوليو ٥٢ ، وأصبح (التغير) هو السمة الملازمة للمجتمع ، لم تعد الرواية ممكنة ، لأنها لن تستطيع أن تلاحق التغير المستمر . بينما القصة القصيرة هي الأقدر على التعبير عن مثل هذه الفترات ، لذا عادت القصة القصيرة إلى نجيب محفوظ بشكل طبيعي فأصدر مجموعات : « دنيا الله » (١٩٦٢) ، « بيت سيء السمعة » (١٩٦٥) ، و « خمار القط الأسود » (١٩٦٩) . كما كانت القصة القصيرة الطويلة هي الشكل الآخر الذي استوعب تجربة تلك الفترة ، فأصدر منها « اللص والكلاب » (١٩٦١) ، و « السمان والخريف » (١٩٦٢) ، و « الطريق » (١٩٦٤) ، و « الشحاذ » (١٩٦٥) ، و « ثرثرة فوق النيل » (١٩٦٦) ، و « ميرamar » (١٩٦٩) .

وقد عقد نجيب محفوظ مقارنة بين الواقعية التقليدية (السابقة حتى الثلاثية) والواقعية الجديدة أو الواقعية (الفكرية) التي عكف عليها بعد « أولاد حارتنا » ، فقال : « الواقعية التقليدية أساسها الحياة فأنت تصورهما وتبين مجراها وتستخرج منها اتجاهاتها وما قد تتضمنه من رسالات ، وتبدأ القصة وتنتهي وهي تعتمد على الحياة والأحياء وملابسهم بكل تفاصيلها ، أما في الواقعية الجديدة فالباعث إلى الكتابة أفكار وانفعالات معينة تتجه إلى الواقع لتجعله وسيلة للتعبير عنها . فأنا أعبر عن المعاني

الفكرية بمظهر واقعي تماماً». (جريدة «الجمهورية» - ٢ مايو ١٩٦٢).

ثم قدم وجهاً آخر للمقارنة بين الاتجاهين من زاوية (الزمن) ، حين قال :
«الروايات الواقعية يكمن الوجدان وراءها والمعاشة ، فتكون حركة الزمن فيها تلقائية وتبرز بالضرورة . أما الروايات الأخرى فيكمن وراءها فكرة ، والفكر لكى يتضح لابد أن يثبت أو يسكن . إنك تسعى إلى توضيح رؤية فتكون كمن يسعى إلى تصوير لقطة ولابد من تثبيت موضوع اللقطة لكى تحصل على صورة واضحة . . . أما فى الروايات الواقعية فانت كمؤلف تعيش الأحداث والوقائع وتحولات الشخصيات . . . فلا بد أن تُبرز هذا الإحساس بحركة الزمن ، أو بالزمان الاجتماعى أو التاريخ ، دون أن تشعر به فى الكتابة» (مجلة «العربى» - أكتوبر ١٩٩١) .

نخلص مما تقدم إلى أن حركة التغير المستمر فى المجتمع يناسب التعبير عنها القصة القصيرة أو القصة القصيرة الطويلة ، التى تغلب عليها التأملات الفكرية أو الفلسفية التى لا تحتاج إلى إسهاب ، ولا يجب أن ننسى هنا تأثير تجربة السينما على إنتاجه من حيث « الإيقاع السريع ، والتركيز » كما يجب أن نعى أن هذا النوع الأدبى يُتيح الفرصة لاستخدام (الرمز) ، وقد أوضح نجيب محفوظ وظائفه - مجلة « الفكر المعاصر » :
سبتمبر ١٩٦٨ - حين قال :

« الرمز فى الفن له أكثر من وظيفة . . . قد نلجأ إليه إذ يكون أيسر من المواجهة ، وقد نختاره كبديل موضوعى للأصل ليكتشفه القارى بنفسه ويُعيد خلقه فتتشله بذلك من الابتذال والروتين ، وأهم من ذلك عندما نُلجّح علينا موضوعات لا نسيطر عليها السيطرة الكافية ويكون قصارى جهدنا أن نقرب منها لا أن نحيط بها . وأحياناً يختصر الرمز صورة واسعة فى لحظة عابرة ، ما كنا نصل إليها بالمباشرة إلا فى عمل كبير حريص دون ضرورة لذلك . . . » .



كان منطقياً - فى هذه الفترة - أن يتحرر نجيب محفوظ من أسار مراحل كتابة الرواية الواقعية (الأربع) ، وقد عبر عن (تكنيك) الكتابة - فى مجلة « فصول » : يناير /

مارس ١٩٨٢ - حين قال : « الواقع أنى كتبت الروايات التى تبدأ بحديث ، والتى تبدأ بشخصية ، والتى تبدأ بفكرة . والأمر هنا ليس أمر تخطيط . فأنا لا أقول إنه يجب البدء بفكرة أو بشخصية . والمسألة لا تخرج عن كون المرء يعيش حياته ، وفيها يعرف الناس والأحداث قبل أن يعرف الأفكار . ومن علاقة المرء بالأحداث والأشخاص ، وما يمكن أن تثيره في نفسه من اهتمام ، أو دهشة أو ما إلى ذلك ، يعتقد ، أو يقرر ، أنها تستحق الكتابة عنها . والنتيجة واحدة ، فإذا بدأنا بحديث ، لا بد للشخصية أن تلعب دورا ولا بد في النهاية أن تؤدي إلى فكرة . وإذا بدأنا بالفكرة فلا بد من خلق الأشخاص المناسبين لها ، وكذا الأحداث المناسبة لها . وهناك من يقول إننا لو بدأنا من الحياة سعيا إلى الفكرة فإن ذلك أعظم طبيعية ، لأن السبيل الآخر فيه شيء من التكلف . وليس هذا القول صحيحا ، فالتكلف يأتي من العجز لا من الأسلوب .

وقد نبدأ من الفكرة ونأتي الرواية طبيعة تلقائية للغاية إذا ما أتقنا اختيار الأشخاص والأحداث ، بحيث لا تظهر الفكرة بصورة مكشوفة ، فتظهر وكأنها شيء متكامل وطبيعي ، نمثلنا فيه الأحداث والأشخاص بصورة طبيعية ، تتفاعل مع الحياة » .

إذن ، تكنيك كتابة هذا النوع الأدبي يجمع بين التخطيط والتلقائية ، أو كما عبر عنه - في مجلة « الثقافة الجديدة » : أبريل ١٩٨٨ - حين قال : « جربت نوعا ثانيا من الكتابة . . أن يكون لدى الفكرة العامة وبعض المعالم والأجواء ثم أقوم بالعمل بناء على هذه الفكرة ، وهذا يحدث غالبا في الروايات الأقصر من ناحية الطول » .



علق نجيب محفوظ على انطلاقه من فكرة في بعض قصص مجموعته « دنيا الله » مثل : « الخوف » ، و « جريمة متصف الليل » ، و « حنظل والعسكري » - مجلة « الآداب » : يوليو ١٩٧٣ - فقال : « إنني أعترف بالفعل أنه كان هناك في هذه القصص تأمل من هذا النوع . . فلما أنها كانت قصصا مرحلية تعد جزءا من النشاط السياسي ، ولما أن يكون فيها شيء يستمر بعد انصرام الموقف والمناسبة . وهذا تستطيع أنت أن تحكم عليه بنفسك عندما تقرأ هذه القصص الآن . . وإحدى هذه القصص ، وهي قصة (الخوف) أحدثت لي مشاكل جمة في حياتي وجرت على المتاعب . وتدهش إذا

قلت لك إنها قصة واقعية . . فقد كان ثمة ضابط اسمه أبو زيد أدب فتوات الحسينية بهذا الشكل الذى صورته القصة ، ويعرفه أهل العباسية جميعا . وكان الأمر فى حاجة إلى بعض التنويع فى الأحداث بحث ينطبق هذا الضابط الواقعى مع الضابط الذى جاء يلعب نفس الدور فى حياتنا . لكن يمكن أن/تقرأ هذه القصة بعيداً عن هذا الرمز ؟ . . نعم لأنها تناقش مشكله عامة هى مشكلة الثورة على السلطة المستبدّة . ثم ما أن يجلس الثائر على الكرسي حتى يتحول إلى تقمص الاستبداد الذى ثار عليه . إنها تتحدث عن طبيعة إنسانية ، وتكشف نوعاً من الثوار هم فى أعماقهم مستبدون كالذين يحاربونهم . . وعلى العموم فإن الحكم على هذه الأشياء كلها متروك للناقد . فبعد أن زالت ظروف هذه القصص يمكن لمن يقرأها الآن أن يحكم . ولا أنكر أن هذه فترة كنت أخطط فيها قبل كتابة القصة بهذا الشكل .

وفى سياق إجابته حول سؤال عن مدى الارتباط بين الشخصيات الواقعية والشخصيات الروائية التى ظهرت فى أعمال تلك الفترة . أجاب نجيب محفوظ ، متخذاً من إبداع رواية « اللص والكلاب » مثالا ، فقال : « الواقع الحقيقى بالنسبة لى تستطيع أن تضعه بين قوسين . . إنه لا يهمنى فى ذاته . فلت كاميرا كلما صادفت شخصية ظريفة صورتها . لكن لماذا أختار سعيد مهران مثلاً ؟ الواقع أنى أعانى من انفعالات وأفكار بطريقة تلقائية وبدون خطة محددة ، ثمة أشياء تسعدنى وأخرى تتعسنى . ونتيجة علاقتى وتعاملى مع الواقع تكون عندى انفعالات وأفكار . . وهذا المخزون هو الذى يبقى عندى . والكتابة بالنسبة لى هى نوع من إعادة التوازن . .

«لماذا هزنى محمود أمين سليمان مثلاً ؟ - سفاح الاسكندرية الذى طاردته العدالة ، واهتم الرأى العام بأخباره عام ١٩٦٠ - أنا أذكر أن أحد رواد ندوة (كازينو اوبرا) قال لى إنك ستكتب عن هذا الرجل يا نجيب . كانت قد حدثت لى (هوسة) . . والدوامه التى فى نفسى ، أحسست أن هذا الرجل هو الفرصة التى تتجسد عبرها الانفعالات والأفكار التى كنت أفكر فيها بينى وبين نفسى ، دون ان أعرف كيف سأعبر عنها . . العلاقة بين الإنسان والسلطة . . وخالفه . . ومجتمعه . لقد اهتمت بقصة محمود أمين سليمان ، ودفعنى هذا الاهتمام إلى أن أكتب عنه . . وأول ما يلفت النظر هو

كيف أكتب عنه . . لقد وجدت فيه شيئاً حياً وكأنه جزء من نفسى . ولما كتبت عنه فعلاً لم أكتب قصة محمود سليمان . ولكن قصة فلسفية إنسانية وجودية عبرت عن أشياء فى داخلى كانت تصرخ طلباً للتعبير عنها . .

« ومنذ أن بدأت كتابة القصة ، لم يعد لمحمود سليمان وجود . وإنما الموجود هو سعيد مهران . . رجل يخرج من السجن وكأنه يخرج من رحم أمه . يبحث عن العقيدة ويبحث عن الانتهاء ويواجه كل ما فى العالم من شر وخير . . ويموت فى الأرض الخراب . . هذا شخص جديد غير محمود سليمان ، والفرق بين سعيد مهران ومحمود سليمان ، يعطيك مثلاً على الفرق بين الواقع الفنى والواقع الحقيقى . . فأنا لم أؤرخ لمحمود سليمان ، ولم أرو تفاصيل حياته ، فالأدب يحض أساساً على العنصر الذاتى ، ولا ينفصل عن جوهره مهما كان موعلاً فى الواقعية ، لا تتصور أديباً يعبر عن الناس كما هم فى الواقع ، لأن الأديب يكتب من أجل إشباع حاجات فى صدره هو ، وإلا ما كان فيما يكتبه صدق أو حقيقة . إنه مثل بناء ، يُشيد المبنى بحجارة مأخوذة من جبل . . هذه الحجارة لا تأخذ فى المبنى الشكل الذى كانت عليه فى الجبل بأى حال من الأحوال . . فما يهم البناء هنا ، ليس تصوير الجبل ، وإنما يأخذ الحجر ويظل يُغير فيه حتى يتوافق مع صورة البناء الذى صمم والذى يريد أن يستخدم هذه الحجارة فيه . ويحدث فى كثير من الأحيان أننى أنسى الاسم الحقيقى لصالح الاسم الروائى وليس العكس . . فعندما أعرف شخصاً ويدخل ضمن نسيج أى من رواياتى . . ثم يباعد الزمن بينى وبينه وأقابله ، أقول فى نفسى . . نعم هذا هو رؤوف علوان أو على الجنيدى - الأسماء الروائية - وأنسى اسمه الحقيقى فى أغلب الأحيان . »

وقد أرجع نجيب محفوظ أسلوب (التعبير الذاتى) الذى استخدمه فى رواية « اللص والكلاب » إلى عدم توافقه مع العالم الخارجى . وانظر لكلماته - فى مجلة « الطليعة » (يناير ٧٣) - حين قال : « فى سن متأخرة عندما وجدت نفسى فى شبه حصار وغير متوافق مع العالم الخارجى وجدت نفسى أرجع باختصار إلى ما نسميه التعبير الذاتى ، وإنى أنتج أنواعاً مختلفاً عن الإنتاج الأول فى الدرجة إن لم يكن فى النوع ، كما حدث فى اللص والكلاب . »

٢. الكتابة من نقطة الصفر

بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، حدث (التوقف) الخامس لنجيب محفوظ ، لم يكن لديه موضوعات أو أفكار ، ولكن كان لديه (دافع) لا يقاوم للكتابة . وقد عبر عن هذه الحالة - مجلة « الثقافة الجديدة » : ابريل ١٩٨٨ - بأنها : « تختلف تماما ، حيث تكون رغبة الكتابة قوية وحالة « الهياج » التي تسبق عملية الإبداع موجودة ، لكن لا تكون هناك أى موضوعات » . .

« يحدث لدى حالة من « الهياج » للكتابة ، وأشعر برغبة شديدة في ممارسة الإبداع ، لكنى لا أجد عندي أى موضوع »

التوقف هنا - فعلا - مختلف . إنه توقف يشابه الشلل (النفسى) الناتج عن صدمة رهيبية مفاجئة . إنها أزمة عدم فهم ، ونقص (المعرفة) ، وعدم قدرة على الاستيعاب وانظر إلى تعقيبه في مجلة « المصور » (٢١ اكتوبر ١٩٨٨) حول لجوئه إلى الغموض والأحاجي في فترة النكسة ، حين قال : « نحن حتى الآن لم نعرف كل شيء عن ٥ يونيو . . وذات مرة صورت حالى . . في قصة قصيرة من خلال شخص في حلوان جالس في المحطة ، غفل ، وكان يحب فتاة يراها كل يوم في المترو وصحبا من غفلته على « زبطة » ووجد فتاته مقتولة ، لأى سبب قتلت ؟ لا يعرف . . هذا كان حالاً » .

أما مبرر التوقف (الفنى) فقد أورده - في مجلة « الآداب » (يوليو ١٩٧٣) - حين قال : « قبل عام ١٩٦٧ كانت التأملات الفلسفية هي الغالبة لدى . لكن بعد الأزمة

ماتت هذه النزعة وهذا موقف طبيعي ، فليس معقولا أن يكون وطنك في هذه الحالة وتفلسف أو تتأمل . كما أضاف في حوار - نشر بمجلة « الفكر المعاصر » : سبتمبر ٦٨ - أن : « ٥ يونيو حدث لا يمكن أن يمر دون أن يترك أثرا لا ينسى . . . ومن أمثال هذه الأحداث تبدأ عادة حياة جديدة سواء في المجتمع أو في الفن . . . » .

والآن ، ماهو (الحل) الذي لجأ إليه نجيب محفوظ ، للتخلص من مأزق (التوقف) ، وإشباع رغبته للكتابة ؟ ! . . .

كان الحل هو الكتابة من نقطة الصفر .

أما (الحالات) التي كان يلجأ فيها إلى هذا النوع من الكتابة ، فقد أوضحها في عدد من حواراته :

« أحيانا أبدأ كتابة بعض الروايات من الصفر . بمعنى أنني عندما أبدأ الكتابة لا يكون في ذهني أكثر من الرغبة في الكتابة ، فلا موضوع ولا مضمون ولا حدث ولا شخصية . وفي هذه الحالة فإن الكلمة الأولى هي التي ستؤدي إلى الثانية ، فإذا بدأت بكلمة « خرج فلان من بيته . . . » قاله وحده أعلم بما يأتي بعدها » .

(مجلة « فصول » : يناير / ١٩٨٢)

« أقدمت على الكتابة من الصفر فأسعفني ذلك كثيرا . غير أنني لا أقدم إلا إذا وجدت في النفس نشاطاً وأريحية ورغبة في الخلق »

(مجلة « فصول » / عدد خاص عن القصة القصيرة) .

« جربت طريقة ثالثة ، حيث لا يوجد لدى سوى انفعال . . . انفعال مبهم غير واضح . ثم أبتدى كيفما أتفق من نقطة الصفر ، وفي هذه الحالة لا يكون في ذهني شيء محدد . حيث أنني لا أعرف ما الذي سوف يكون عليه السطر التالي » .

(مجلة « الثقافة الجديدة » - إبريل ١٩٨٨)

« اعتدت أخيراً أن أبدأ من قليل ، وأحياناً من لا شيء ، ولعل تفسير ذلك هو توفر الإتصال مع عدم توفر الوضوح في الرؤية » .

(مجلة « الفكر المعاصر » - سبتمبر ٦٨)

إذن ، هنا (شروط) لهذه النوعية من الكتابة : ضرورة توفر الإتصال ، والرغبة في الكتابة ، ووجود نشاط وأريحية في النفس ، وانفعال غير واضح .

وهنا - أيضاً - قد ينتهى العمل إلى لا شيء ، وقد يتوقف ليعود إليه بعد حين . . .
« وربما وقفت طويلاً في فراغ ، وخير ما أفعل أن أتركها فتحدث في النوم أمور كثيرة .
وإذا لم تحدث مزقتها » .

(مجلة « فصول » - عدد خاص عن القصة القصيرة)

لكن الشيء الوحيد الذى يضمنه نجيب محفوظ أنه : « لا يبدأ عملاً جديداً قبل أن ينهى عمله الأول » .

(انظر « مجلة الفكر المعاصر » - سبتمبر ٦٨)

والآن ، ماهى (الأهداف) التى تحققها هذه الطريقة ؟ . . .

عبر نجيب محفوظ عن تلك الأهداف في عدد من حواراته :

« والحقيقة أن التجربة كلها اكتشاف يؤدي إلى اكتشاف يؤدي إلى آخر حتى تنتهى الرواية ، وقد تنتهى إلى شيء نرتاح إليه النفس ، وقد تُمزق » .

(مجلة « فصول » - يناير / مارس ٨٢)

* « هذه هى الأعمال الوحيدة التى دخلت عليها بانفعال وبلا موضوع . كأنّ واحداً يحاول أن يكتشف عن طريق الكتابة موقفه ، ولا يكتشفه مسبقاً » .

(مجلة « الآداب » - يوليو ٧٣)

* « عندما يكون الكاتب متفعلاً بالإلهام ، وبلا موضوع محدد ، أى يُنفذ موضوعاً قصيراً : قصة قصيرة أو قصة قصيرة طويلة أو رواية قصيرة مركزة في بطل أو بطلين ، وفى رأى أن الكاتب لا يلجأ إلى المنهج الأخير إلا إذا غامت الرؤية ، اضطربت الأحوال وانتفى الاستقرار فيصبح العمل الفنى كشفاً عن مجهول ، لا تعبيراً عن معلوم مستقر » .
(« نجيب محفوظ : حياته وأدبه » نيل فرج)

• « كانت أغلب هذه التجارب أو كلها تنتمي إلى هذا النوع من الكتابة الذي أبدأ فيه من « درجة الصفر » . بمعنى أنه لم يكن هناك تخطيط مسبق لشكل الكتابة . وكان القصة نفسها هي التي كانت تعبر عما بداخل من صراعات مختلفة » .

(مجلة « الثقافة الجديدة » - إبريل ١٩٨٨)

• « لذلك كانت التجارب التلقائية كلها قصصاً قصيرة أو مسرحيات من فصل واحد . وهذه التجارب ألجأ إليها من باب الاسترواح أحياناً عندما أكون منغمساً في كتابة موضوع طويل مرتب مخطط . لأن التلقائية عندي نزعة ، ولكنها عند الآخرين مذهب ومدرسة لا يجيدون عنها » .

(مجلة « فصول » - يناير / مارس ٨٢)

إذن تحقق هذه الطريقة (كشف) عن موقف الكاتب المجهول ، أو تعبر عما (بداخل) الكاتب من صراعات مختلفة ، أو قد تصبح سلسلة مترابطة من الاكتشافات ، وقد تكون محطة (راحة) خلال موضوع طويل مخطط .



• أشار نجيب محفوظ في حوار في مجلة « الطليعة » (يناير ٧٣) إلى ارتباط هذا النوع من الكتابة بما يحدث في المجتمع ، حين قال : « في زمن أكثر تأخراً عندما وجدت أن العالم الخارجي فقد كل معقولة ، وجدت نفسي أكتب قصصاً من نوع « تحت المظلة » وماتلاها ..

« وإذا فما يسمونه بالتكنيك أو ما يسمونه بالأسلوب الفني ما هو إلا الصورة الحتمية الوحيدة التي تبرز في نفسك وتعيد خلقه .. هذه هي أصالة الفنان » .

وقد كتب نجيب محفوظ بهذا الأسلوب مجموعات « تحت المظلة » ، و « حكاية بلا بداية ولا نهاية » ، و « شهر العسل » ، و « الجريمة » ، وأجزاء أخيرة من « رأيت فيما يرى النائم » .

وعن مسئوليته ككاتب عن عدم انعكاس قضية الصراع العربي الإسرائيلي في

رواياته . قال في (كتاب «مع نجيب محفوظ» : أحمد محمد عطيه) : « إن الحقيقة أن دخول الكاتب العربى على المسألة الصهيونية ممكن أن يكون من أكثر من باب . .

«يوجد باب مباشر ، والحقيقة أن هذا لا يتأت إلا لكاتب خاض التجربة أو اكتوى بنارها عن قرب مثل : غسان كنفانى . .

« لكن الصراع بيننا وبين إسرائيل ليس مسألة إحتلال أرض أو حرب أو لاجئين فحسب فهو صراع حضارى مصرى . ومن هذا المنطلق فإن كل ما يكتب عن إيجابيات أو سلبيات العالم العربى يدخل فى القضية من الباب الآخر وهو الباب غير المباشر فعندما مهاجم أى سلبية ، فأنت تعد العربى للحياة والصراع ضد العدو . .

«وأنا أُلجأ إلى معالجة القضية على مستوى تجريدى ، كما فعلت فى « تحت المظلة » . .
«أما المعالجة الواقعية فهي صعبة لأننا لا نعرف الواقع معرفة تامة » ، « فيجب أن يكون لدى الروائى معرفة كاملة بالواقع الذى يكتب عنه » .



كما برزت خلال تلك المرحلة « القصة الحوارية » ، والتي حاول نجيب محفوظ تفسير ظهورها من خلال عدد من الحوارات :

* « الواقع أن المسألة تطورت . إن قصصى بدأ يغلب عليها الحوار ، ومن ثم بدأ التحول للمرحية ، وربما لأن هذه فترة متناقضات وأنسب شىء لها الحوار . وأعدده تحولاً إلى المسرح مع الاحتفاظ بالكتابة القصصية . وقصصى الجديدة كلها فى شكل حوار مسرحى . وحجمها أكبر من القصة القصيرة (اطلعت على القصة الجديدة نافذة فى الدور الخامس والثلاثين) » .

(كتاب «مع نجيب محفوظ» : أحمد محمد عطيه)

* « إن المجتمع المتغير باستمرار لا يغرى بوصفه ، بقدر ما يغرى بالتفكير فيه . والتفكير فى المجتمع وتطورات ، يقودنا إلى ما يمكن تسميته بالأدب الفكرى . ففى الأدب الفكرى لا يكون البطل هو (الشخص الخاص) المحدد - إذا صح التعبير - وإنما البطل هنا الشخص العام ، الذى هو الإنسان فى قضايا الكلية والرئيسية . وهذا

(الإنسان العام) لا يصلح للرواية التي تقوم على الوصف والسرد ، وإنما يصلح للقصة التي تقوم على التفكير والحوار . . . وهو ما أطلق عليه اسم : القصة الحوارية .

« القصة الحوارية التي أكتبها تعتمد أصلاً على الحوار في عرض الأفكار والمواقف . وهي غير المسرحية ولا يمكن تقديمها على المسرح كما هي (أى بدون إعداد مسرحي خاص) ، ولعل السبب الرئيسى في تسلل الحوار وغلبته على السرد في القصة ، هو الجدل الذى يدور في المجتمع المصرى في السنوات الأخيرة نتيجة لتوالى الأحداث والمتغيرات المتناقضة سياسياً واجتماعياً ، عقب عام ١٩٦٧ .

« الخارطة العريضة للعالم ، مناقشة أساسيات وجوده ومصيره ومستقبله . وهذا يفرض بالتالى تبدلات أساسية على الرواية شكلاً ومعنى » .

(كتاب « الرؤى المتغيرة في روايات نجيب محفوظ » : عبد الرحمن أبو عوف)

* « هذه القصص هي التي حددت شكلها وفرضته على فرضاً . . . وقصصى الحوارية التي تحدث عنها اقتضتها طبيعة تجربتى في الكتابة والتطور الطبيعى لها » . . .

« أحب أن أقول - أولاً - إننى كتبت للمسرح وما أسميه بالحواريات تحت إلهام اللحظة التاريخية التي نعيشها الآن . . . ومعنى هذا أننى لجأت إلى الحوار والنقاش لأشارك فيها يحدث ولأقول فيه رأياً . . . ثم - وهذا لا يقل أهمية - لأواكب الأحداث السريعة المتغيرة بهذه الأعمال القصيرة » .

« إننى - فعلاً - فى أعمالى الأخيرة أنشد درجة من التجريد في التعبير لأصل إلى دلالة إنسانية عامة . . . فأنا أبدأ من الواقع لا من أفكار مجردة » . « وأنا أجنح - الآن - إلى التجريد في التعبير لأحقق التعبير عن الإنسان والإنسانية أكثر من التعبير عن هذا أو ذاك من الأفراد أو المواقف . . .

والتعبير بالتجريد هو وحده يمكن الكاتب من أن يقول في قصة أو حوارية قصيرة - كحارة العشاق - مضمونا ومعنى ما كان يتيسر التعبير عنها إلا من خلال رواية أو ملحمة أو مسرحية طويلة » .

(مجلة « الهلال » - فبراير ١٩٧٠) .

واضح - طبعاً - أن كلمات نجيب محفوظ ، التي أشار فيها إلى غلبة الحوار على القصة ، بما يعنى بدأ تحولها للمسرح ، كانت في بداية مرحلة هذه النوعية من القصص ، ولم تكن ملامحها قد تبلورت بعد وتمخضت عن تعبير « حواريات » (انظر أيضاً لقصة « نافذة في الدور الخامس والثلاثين » التي عرضها على الناقد وهي بعد مخطوطة ، لنجدها بعد ذلك ضمن مجموعته الثانية في هذه المرحلة وهي « شهر عسل »).

كما يتضح أن قصص الحواريات جاءت نتاجاً طبيعياً ، لمواجهة تغيرات المجتمع وتناقضاته بالتفكير فيها والمشاركة بالرأى فيما يحدث ، داخليا وخارجيا ، وهو في هذه النوعية من القصص يتعامل مع الإنسان في قضاياها الكلية والرئيسية ، ويلجأ إلى التجريد ، لأنه يتيح له التعبير بشكل مكثف ، عن الإنسان والإنسانية .

وقد بلغ نجيب محفوظ الذروة في قصة « هنر لولو » التي قال عنها : « وأعتقد أنني اهتمت فيها - وفي مثيلات لها كتبها بعدها - إلى شكل يوفق بين القصة من ناحية ، والحوار من ناحية أخرى ، وأنه يحقق لي الرضا التعبيري المنشود » .



بعد الحواريات كتب نجيب محفوظ رواية « المرايا » ، فكانت إيذانا بعودته إلى التوازن والتعود على الواقع الجديد ، وأن يصدر عليه أحكامه ، ثم كتب بعد ذلك رواية « الكرنك » ، نقداً لسليبات عهد عبد الناصر وخاصة تعذيب البشر ، وقد عبّر عن رأيه في كتابتها - في مجلة « الآداب » يوليو ٧٣ - حين قال : « إن لدى استعدادا لأن أكتب قصة من هذا النوع خدمة لرأى أحترمه ، ولظروف سياسية أمارس دوري فيها . . حتى لو قُدر لهذه القصة أن تموت فور انتهاء المناسبة التي كتبت عنها ومن أجلها » .

عاد نجيب محفوظ إلى البساطة الأسيرة في رواية « حكايات حارتنا » ، وحين قامت حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، توقف بعدها عن الكتابة لمدة سنة ، ثم استأنف العمل ، ولعلها كانت وقفه لمراجعة الذات ، وتفهم المتغيرات الجديدة التي استشرت في المجتمع في أعقاب الحرب .

ثم كتب « قلب الليل » (١٩٧٥) ، و « حضرة المحترم » (١٩٧٥) ، ليصل إلى ملحمة العظيمة « الحرافيش » (١٩٧٧) ، التي قال عنها - في كتاب « نجيب محفوظ يتذكر » : « استغرقت في كتابتها سنة ، وفكرت فيها حوالى سنة ، واستغرقت في كتابتها سنة أخرى ، وكانت دفقة خيال ، لا يحتاج إلى جهد مثل الذى احتاجته الثلاثية . العمل الواقعى هو الذى يحتاج إلى رصد ، وتجميع ، أما وقت الحرافيش فكان ملموماً .

* * *

٤ . نداء القلب

مع بداية السبعينات ، بعد أن تجاوز نجيب محفوظ ثلاثة أنواع من الكتابة الإبداعية . . هي : الكتابة بعد اكتمال النضج ، بين التخطيط والتلقائية ، والكتابة من نقطة الصفر ، حين امتد كل نوع منها حقبة زمنية ، طالت أحيانا وقصرت أحيانا أخرى ، لكنها في جميع الأحوال ، كانت مواكبة للتغيرات والتحولات الخارجية التي حدثت في المجتمع ، معبرة - في ذات الوقت - عنها أفضل تعبير .

هنا ، كانت خبرات الكتابة المتنوعة قد تراكمت في أعماق الفنان الكبير ، وانفكت طلاسمها ، وانفتح أمامه مكنوز أسرارها ، فتداخلت عوالمه ما بين الذات والمجتمع والعالم ، وانعكس ذلك على نتاجاته الأدبية ، فجاءت متنوعة ، متباينة ، بين القصة القصيرة ، الحوارية ، والمرحلية ذات الفصل الواحد ، وامتدت طولا إلى القصة القصيرة الطويلة الاجتماعية ، التاريخية ، الذاتية ، وانتهت إلى الملحمة .

والآن ، لننظر إلى تطور وتبلور خبراته من خلال زوايا مختلفة : دائرة الاهتمام ، التكنيك ، الشكل الروائي ، والالتزام .

* دائرة الاهتمام :

* « المرء عندما يكون صغيراً فليس لاهتمامه حدود ، لأن كل شيء جديد بالنسبة له ، لكنه عندما يكبر ، وتتكون لديه فكرة عن الدنيا وعن الوجود ، فإن القليل هو الذي يهمه . وهذا هو السبب الذي من أجله نمر بأوقات أو نمر بنا أوقات لا نجد فيها ما نكتبه » .

(مجلة « فصول » : يناير / مارس ٨٢)

* « التجارب الأولى عندما بدأنا الكتابة ، كنت لا أنجيل مطلقا أنى سأصل إلى نقطة معينة ولا أجد عندها ما أكتبه ، لماذا ؟ لأن كل ما أراه جدير بالكتابة ، كان ذلك يبدو مستحيلا . لكن بعد التقدم في العمر ، واكتساب رؤية وخبرة ، يبدأ الكاتب في انتقاء موضوعات معينة تتفق مع رؤيته . من هنا قد يمضي سنوات وهو لا يجد ما يكتبه » .

* « في فترة بدائية قبل ذلك ، كانت كل حادثة تستحق أن تكتب ، الآن كم من الحوادث تمر بي وتستحق أن تكتب من وجهة نظري » .

(من كتاب « نجيب محفوظ يتذكر ») .

* « أيام كنت صغيرا ، كانت كل قصة قصتي ، لأن كل ما يثير دهشتي فهو لي ، أما الآن فلا . . . فأنا لا أريد إلا ما يناسبني » .

* « كلما كبر المرء ضاقت دائرة اهتماماته ، وهكذا حتى يؤول اختياره إلى شيء واحد » .

(مجلة « فصول : يناير / مارس ١٩٨٢)

هنا ، نلاحظ أن دائرة اهتمام نجيب محفوظ في بداياته كانت بلا حدود ، لأن كل شيء كان جديدا ، مثيرا للدهشة ، جديرا بالكتابة . ولكن مع التقدم في العمر ، وما يصاحبه من خبرات ورؤى عن الدنيا والوجود ، يبدأ في انتقاء موضوعاته ، لأن القليل هو الذي يهمه ، ويناسبه ، حتى يؤول اختياره إلى شيء واحد . وانظر إليه وهو يطور تجربة حياته - في كتاب « نجيب محفوظ يتذكر » - حين يقول : « الحياة بالنسبة لي لها معنى وهدف . . . إن تجربتي الأدبية كلها مقاومة للمبث ، ربما أشعر بدبيب عيث ، لكنني أقارمه ، أعقلنه ، أحاول تفسيره ، ثم إخضاعه . بعض أبطال الحرافيش ، يدون وكأن حياتهم ضاقت عثا ، لكن في إطار العائلة الكبيرة لم تكن عثا » .

وقال أيضا - في ذات الكتاب : « الحياة من حولنا تبدو قاسية ، حياتنا الشخصية في واقعنا المحلي ، تبدو أحيانا عثية ، بالضغط . . . عيث اجتماعي كما تقول ، لا معقول واقعي . . . لا يضع العيث إلا بانتصار من نوع معين يرد الثقة إلى النفس . . »

« إننا نعيش حتى الآن إحباطات داخلية منذ أن وعينا ، مجرد أن نتنفس نجد من يجثم على أنفاسنا ليكنمها ويفسد حياتنا ، وهذا فظيع . . لذلك لن نجد نعمة الانتصار الأولى التي كانت في جيل ثورة ١٩١٩ ، نفس هذا الجيل وصلت إليه الإحباطات ، لكنه تذوق الانتصار . بدأننا نرى وهذا الجيل يتحطم ، نعم . . يتحطم . أنا بدأت أقرأ الصحف في سنة ١٩٢٦ كان عمري أربع عشرة سنة ، كانت الثورة قد هدأت ، وبدأت التنازلات ، ثم الإحباطات ، ثم القمع ، واستمر ذلك . . أتيت لنا التنفس بعد ١٩٥٢ ، ولكنه سرعان ما انعكس الوضع ، وهكذا . .

على أى حال أعترف لك بأننى سقطت في العبث لدقائق بعد هزيمة يونيو، صحيح أن المقاومة بدأت ، لكن كان هذا الوضع يبدو عبثاً فظيماً .

هنا - أيضاً - توصل نجيب محفوظ ، عبر رحلة حياته الطويلة ، إلى نفس طريق الخلاص الذى توصل إليه كبار الكتاب والمفكرين من قبل . وانظر إليه في مجلة «الحرس الوطنى» ، وهو يقول : « طريق الخلاص لا يأتى إلّا من داخلنا . ومجرد إحساسنا بغموض المعنى وسحره هو في حد ذاته دليل على قربنا من جوهر الدين ، ولا تنس أن سعيد مهران بطل « اللص والكلاب » لم يجد الخلاص عند الشيخ جندى » .



• التكنيك :

• « العدو الأكبر للفن هو التقليد الأعمى . والتكنيك رؤية حضارية تتمثل في كل شىء كالملابس والمساكن . فأكثر المساكن جمالاً في مصر لا يمكن إلّا أن يكون من الطابوق وليس من الأسمنت المسلح ، ولأن هذا هو النمط الذى يناسبنا ، ونستطيع أن نعيش في مبنى على النمط الفرنسى ، لكننا لا نشعر بالرضا » .

« النمط الفنى يتبع القانون نفسه . وأنا أحدث عن ثقافتى الخاصة ، حيث قرأت المونولوج الداخلى والتعبيرية والرمزية . لكن أياً منها لم تكن مناسبة أو صالحة للتعبير عن تجربتى الخاصة . ولم أكن أستطيع أن أكتب « رفاق المدق » من بدايتها ضمن أى إطار رمزى أو تعبىرى ، فهذا غير منطقى ولن يكون مفهوماً » .

« في أوروبا لا يظهر أى نمط أدبي جديد إلى الوجود قبل أن يكون النمط السابق له قد بدأ بالاضمحلال » .

أنا أكتب وفق النمط الذى يلائمنى » .

(مجلة « الأقلام » - ملف خاص - ما يو ١٩٨٩)

* « الكاتب مطالب بالآ يقع في حبائل الإيهار دون قيد أو شرط ، وإنما هو مطالب بأن يجعل من مضمون علمه وشكله وحدة لا تتجزأ ، وبأن يُعلى صوت الأصالة » .

(من كتاب « نجيب محفوظ : حياته وأدبه »)

* « هناك قالب موجود ، ومن حق كل كاتب - إذا كان هذا القالب صالحا - أن يستخدمه .. »

« وكما يوجد المجددون ، فإنه يوجد أيضاً المجددون ، فالذى بدأ الكتابة « بتيار الوعى » ، لم استطع أن يمنح أثرا فنياً خالداً ، بينما استطاع أن يفعل ذلك من قام بتقليده من بعده . وهنا يمكن أن يأتى معيار التفرقة ، الذى ينصب أساسا على مشروعية الابتكار والخلق والإبداع .. »

« وأنا أعتقد أن الجديد فى العمل فعلا هو صاحبه ، فالذى يكتب يجب أن يكون هو نفسه مهما استعار لفنه من القوالب والأشكال ، ذلك أن الأديب إن لم يكن هو نفسه ، يكون قد حكم على أعماله بالاندثار والضياع » .

(مجلة « الثقافة الجديدة » - إبريل ١٩٨٨)

* « وإذن فما يسجونه بالتكنيك أو ما يسمونه بالأسلوب الفنى ، ما هو إلا الصورة الحتمية الوحيدة التى تبرز فى نفسك وتعيد خلقها ، وهذه هى أصالة الفنان » .

(مجلة « الطليعة » - يناير ١٩٧٣)

هنا يتضح أن التكنيك (أو الأسلوب الفنى) هو رؤية حضارية . لذا يجب أن يستوعب الفنان هذه الأساليب أو القوالب الفنية ، ولكن يجب أن يكون حذرا فى استخدامها أو تقليدها للإيهار ، لأنها نشأت نتيجة تطور طبيعى فى بيئات مغايرة ، بل

يجب أن يدع (الإبداع) ينبع بشكل طبيعي من داخله وفق الأسلوب المختار . وهنا تكمن أصالته .



* الشكل الروائي :

* « عندما بدأت الكتابة كانت فكرتى أن فى فن الرواية ما هو صواب وخطأ ، مثل النحو تماما ، وأن هذا الفن أوروبى ، وإننى إذا كتبت الرواية الصحيحة فقد بلغت الغاية المنشودة . . وهناك كيفيات متعددة لكتابة الرواية : منها خروج المؤلف من الرواية ، أو دخوله فيها ، أو وجهة النظر ، أو ما إلى ذلك . ولأننى كنت مبتدئا فقد كنت ألتزم القواعد . أما الآن فلا أهتم بأى شىء من هذا إلا بالتعبير عن ذاتى بحرية تامة ، سواء إتفق هذا التعبير أو حتى تناقض مع القواعد ، فهى لا تعنى إطلاقا ، ولم تعد هذه القواعد فى نظرى إلا الأسلوب الذى يكتب به الكاتب ، أى ليس هناك قواعد ، ويصح جدًا أن يكون لى أسلوبى الذى أكتب به » .

(مجلة « فصول » - يناير / مارس ١٩٨٢)

* « الشكل الأوروبى للرواية كان مقدسًا ، بتقديم العمر نجد أن نظرتك تتغير ، وأنتك تريد أن تتحرر من كل ما فرض عليك ، ولكن بطريقة تلقائية وطبيعية . . نجد نفسك تبحث عن النعمة التى تستخرجها من أعماقك ، أيا كانت هذه النعمة ، سواء عادت بك إلى القديم أو قادتك إلى المودرنيزم ، أو عادت بك إلى الحدوتة » .

« بالنسبة لى فيما يتعلق بالثورة على ما هو أوروبى أو تقليدى ازدادت خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة ، أصبحت ثقتى فى نفسى أكثر . . أصبحت أبحث عن النعمة التى أكتب بها من داخل ذاتى أكثر . انجأه لى الحدوتة أحد معالم المرحلة . أخص بالذكر الحرافيش ، بعد الحرافيش حاولت أن استوحى عملا قديما هو ألف ليلة وليلة » .

« لكن يجب أن أوضح لك شيئا مهما ، وهو أن تقليد القديم مثل تقليد الحديث كلاهما أسر ، المهم أن تبحث عما يتفق مع ذاتك »

« الرواية الصحيحة هي النابعة من نعمة داخلية » .

(من كتاب « نجيب محفوظ يتذكر »)

« أنا أقول ليست هناك رواية « حقيقية » ورواية « وهمية » ، بل هناك رواية تنبع من القلب » .

(مجلة « الاقلام » - ملف خاص - مايو ١٩٨٩)

إذن ، في البداية اتخذ نجيب محفوظ الرواية الأوربية نموذجاً ومثلاً صحيحاً يحتذى ، وبتراكم خبراته ، ازدادت ثقته بنفسه ، مما ساعده على التحرر من أسار تلك الأحوال ، وراح يبحث عن (النعمة) التي تنبع من داخل ذاته ، وتتبع نداء القلب ، فهو الذي سيحقق له الرواية الصحيحة .

« التزام الفنان :

« اعتقد أن الأساس الذي يضمن النجاح للكاتب هو الصدق . . فالكاتب الاشتراكي ليس من الضروري أن يكون ملتزماً بالاشتراكية لتلحقه صفتها . بل يكفي أن يكون اشتراكياً لتظهر آثار اشتراكته فيها يعمل ، وهو ملتزم بالالتزام الأساسي والوحيد في الفن وهو الصدق . .

وهذا الأساس يُخرج الفن المفضل من نطاق الفن » .

(مجلة « الفكر المعاصر » - سبتمبر ٦٨)

« الميزة الخاصة تنبع من الأصالة والصدق ، حتى لو تعلمت على مدرسة معينة أو استعرت تقنية خاصة ، فلا بد أن يتغير هذا الاستخدام بدرجة ، وفقاً للملامح البيئية ومتغيرات أخرى كثيرة ، لعل أهمها شخصية الكاتب نفسه وطبيعة العلاقة التي تربط بينه وبين قارئه » .

« الأصالة في نظري هي شيء ضد التقليد . . الأصالة عندي هي أن يكون الإنسان ذاته بمعنى الصدق الفني » .

(مجلة « الثقافة الجديدة » - إبريل ١٩٨٨)

« لا يجوز أن يلتزم الفنان إلا بإحساسه ، فهو مرجعه ، وهو مرشده ، وفي هذا يتركز صدقه وإخلاصه . وعليه أن يسمع صوته الداخلي وينقذه دون أى اعتبار آخر ، فإن قال له قف وقف ، وإن قال له إلى الأمام تقدم ، وإن قال له إلى الوراء تقهقر » .

(من كتاب « نجيب محفوظ : حياته وأدبه » - نبيل فرج)

« أنا لا أهتم إلا بنض قلبي ، وعليه هو أن يهتم بأى مغزى شاء » .

(مجلة « فصول » - عدد خاص عن القصة القصيرة)

إذن ، ينبع التزام الفنان أساسا من داخله ، من إحساسه ، من قلبه ، بعد أن يهضم تقنيات المدارس الفنية المختلفة ، حتى إذا ما استعار تقنية ما ، فإنها سرعان ما تتغير وفقا للملامح البيئية ، كما تتأثر بشخصية الكاتب وعلاقته بالقارئ ، لتخرج تلقائيا بشكل طبيعى ، وبذلك يكون الفنان أصيلا ، صادقا فى عمله .



الباب الخامس

عاشق الفن والحياة

الفصل الأول : الفن حياة .
الفصل الثاني : رقيق الخبرة

■ الفصل الأول ■

الفن حياة

في حوار مع نجيب محفوظ بمناسبة عيد ميلاده الخمسين ، نشر بمجلة « المجلة » يناير ١٩٦٣ ، كان سؤال : « لقد عشت فترة طويلة من حياتك الأدبية بعيداً عن الشهرة ، ثم أصبحت من القلائل الذين يُجمع كل النقاد على تقديرهم ؟ » ، علّق نجيب محفوظ على هذا الرأي قائلاً : « في الحالة الاولى أقنعت نفسي بأن الفن حياة تُعاش لذاتها لا مهنة يجب أن يجنى الإنسان ثمرتها لأريح نفسي من تعب انتظار التقييم . وفي الحالة الثانية ازداد شعوري بالمسئولية والنقد الذاتى » .

هنا فُرق نجيب محفوظ بين موقعين : تجاهل النقاد لأعماله ، ثم إجماع كلمتهم على تقديره . واجه الحالة الاولى (بإقناع) نفسه بأن الفن حياة تُعاش لذاتها ، فلا يضطر إلى انتظار تقييم (الآخرين) الذى قد لا يجيء . أما في حالة اعتراف النقاد وإتفاقهم على تقدير أعماله فإن ذلك يزيد من إحساسه بالمسئولية ويُصعّد نقده (الذاتى) لتطويع أعماله والارتقاء بمستراها .

ثم عاد نجيب محفوظ في حوار أجراه معه فؤاد دواره - نشر في مجلة « الكاتب » يناير ١٩٦٣ - إلى إضاءة نتيجة أخرى ترتبت على موقفه الذى آمن فيه بأن الفن حياة ، حين قال : « أنعرف ما الذى جعلنى أستمروا ولا أياس . . لقد اعتبرت الفن حياة لا مهنة ، فحينما اعتبره مهنة لا نستطيع إلا أن تشغل بالك بانتظار الثمرة ، أما أنا فقد حصرت

اهتمامى بالإنتاج نفسه وليس بما وراء الإنتاج . . . كنت أكتب وأكتب لا على أمل أن ألفت النظر إلى كتاباتى ذات يوم ، بل كنت أكتب وأنا معتقد أنى سأظل على هذا الحال دائماً . . . أتعرف عناد الثيران ؟ . . . إنه خير وصف للحالة النفسية التى كنت أعمل بتأثيرها .

فى مواجهة تجاهل النقاد قد ينتهى كثير من المبدعين إلى التوقف عن الإنتاج والموت فنيًا . لكن نجيب محفوظ - كفنان كبير الموهبة - اتخذ موقفًا نفسيًا (مضادًا) لحماية ذاته ، حين (أقنع) نفسه بأن الفن حياة تعاش لذاتها ، فمنحه هذا الإيمان قدرة على الصمود والاستمرار ، حتى إذا ما جاء اعتراف النقاد وتقديرهم لأعماله ، لم يبحث فيه الغرور ، بل ضاعف من إحساسه بالمسئولية ، والاندماج أكثر داخل شرقة (إيمانه) الخاصة ، عاكفا على تطوير أعماله ، طامحًا إلى الكمال . . .



وفى عام ١٩٧٣ ، أى بعد مايقرب من عشر سنوات (ربما أتاحت له تلك الفترة إعادة تقييم موقفه وتفحص جوانبه والبحث عن جذوره) إذا به يكشف عن الأسباب الأخرى التى أوصلته إلى هذا الإيمان - فى حوار نشر بمجلة الآداب البيروتية فى شهر يوليو ١٩٧٣ - حين قال : « عندما اخترت الأدب كان اختيارًا حتميًّا . . . ولم ألبأ إليه كشيء بديل عن شيء آخر قد انصرف عنه إذا ما تحقق البديل الأساسى . كان اختيار حياة ، ولم يكن ثمة تردد ، وكان لابد من الاستمرار والمثابرة أيًا كانت النتائج . كان الأدب بالنسبة لى نوعًا من المسئولية . . . كالزواج الذى أنجب فيه الإنسان إبنًا ، وأصبح من المستحيل عليه أن يفصل عنه أو يتخلى عن أبنائه فيه . . . ثانيًا : إننى أقدمت على العمل الأدبى وآمالى فيه ليست كبيرة كآمال عادل كامل ، لذلك لم تكن الحية حادة بالنسبة لى . كانت علاقتى بالفن علاقة حياة وحب أشبه بالتصوف بحيث إنك تحبها ونرضى عنها سواء أكانت مجزية أم دونها جزاء على الإطلاق .

وإذا أردت أن تضيف لهذين السنين أنى كنت تلميذًا مجتهدًا ، وإنك تستطيع أن تنسبى للعمال الذين بنوا الأهرام وليس للمهندسين الذين اجتروا النار .

والآن ، إذا ما تفحصنا الأسباب التى أوردها نجيب محفوظ لتعليل اقتناعه أن الفن

حياة تعاش لذاتها - يجب ألا ننسى أن تجاهل النقد لأعماله سنوات طويلة كان الحافز الأول - فإننا سنقتنع - بسبب الاختيار الحتمي والاجتهاد الطبيعي ، لأن اختياره طريق الأدب لم يكن وليد الصدفة ، بل كان نتاج سنوات طويلة من الصراع بين الفكر والأدب حتى حسم أمره في النهاية (انظر فصل « رحلة القراءة والبدايات ») ، كما أن اجتهاده كان جزءاً من تكوين شخصيته بحكم ظروف نشأته واستعداده الطبيعي . ولكن لا بد أن نتوقف طويلاً أمام السبب الذي أرجع فيه (إيمانه) إلى أن آماله في الأدب لم تكن كبيرة ، لأن هذا الأمر منافي للحقيقة ، ويقف ضد طبيعة الفن . ولتنظر إلى موضع آخر من ذات الحوار السابق ، حين قدّم نجيب محفوظ تقييمه لتجربته الفنية حتى الخمسين من عمره ، والتي يمكن تصنيفها إلى اتجاهين رئيسيين لكل منهما تنوعتين : عامة ، وتطبيقية . الاتجاه الأول يعكس طموحه الفني إلى بلوغ المطلق والمستحيل ، جاء شقّه (العام) حين قال : « في الشباب المبكر كنت أريد أن أصبح شيئاً لا يقل عن شكبير ، فإذا قلت لي (جوته) أقول لك (وليه مش شكبير؟) . . » ، أما شقّه (التطبيقى) فقد أوضحه من خلال حديثه عن قصة نشرها بتاريخ ١٨ مارس ١٩٣٦ في المجلة الجديدة الأسبوعية : « لقد كتبت مرة أقصوصة تصور حياتى الأدبية خير تصوير ، وهى قصة (حكمة الحموى) بطلها أديب لا يريد أن ينشر قصصاً كثيرة عادية أو متوسطة ، بل يريد أن يترك عملاً واحداً ممتازاً يثق في أنه سيخلد بعده ، إنه يكتب قصة عن مغامرات صباه ، ويتركها مدة ثم يعود ليقرأها فيجدها أصبحت سخيفة تافهة وأن مغامرات شبابه أهم . ويكتب قصة عن مغامرات شبابه فإذا قرأها في رجولته وجدها وقد أصبحت سخيفة لا قيمة لها . . »

وهكذا حتى مرض وأحس بقرب نهايته ، فأحضر آخر مؤلفاته ، وقرأها ، وقال : لو عشت فستبدو هذه القصة أيضاً كسابقاتها فمزقها هي الأخرى ومات دون أن يترك وراءه شيئاً .

في هذا الاتجاه بدا طموح الفنان الحقيقي إلى الكمال وإلى المطلق والمستحيل ظامناً دوماً ، لا يرتوى ولا ينتهى أبداً . أما الاتجاه الثانى الذى بدأ فيه تأثير الزمن والخبرة والنضج الفنى ، بما ساعده على صقل نظرتة وأضفى عليها بعداً أكثر واقعية وتواضعاً

فظهرت تنويته (العامة) حين قال : « نعم ، لتحقيق ما أريده لنفسي في حياتي الأدبية ، ولكن على طريقة ذلك الرجل الذي تزوج وأنجب أولاداً سعد بهم وفرح رغم أن أحدهم أصبح كاتباً في الدرجة الثامنة والثاني لم يتم تعليمه ، والثالث طبيباً في الأرباب وهكذا . . ولكن هذه الحقيقة لا تقلل من حبه لهم وإحساسه بالسعادة بهم . نفسي الشيء ينطبق على مؤلفاتي دون أية محاولة للتواضع أو للتقليل من شأن رواياتي ، بل بمتهى الصدق والإخلاص » ، ثم كانت تنويته (التطبيقية) حين قال : « ويوم أخرجت روايتي الأولى (عبث الأقدار) كنت أظن أنني صنعت شيئاً عظيماً حقاً ، ومرة الأيام فإذا بي أراها « عبث أطفال » مش « عبث أقدار » ! .

هنا كشف نجيب محفوظ عن تفهم واع لدور الفنان كمبدع أو منتج للعمل الفني ، وتأرجحه بين الحلم والواقع ، بين ما يطمح إليه وما يتحقق فعلاً . وهي دورة نضج (خاصة) يصل إليها الفنان بعد رحلة معاناة عبر السنين من خلال تقييم ذاتي مستمر ، لكن هناك دورة أخرى يمر بها العمل الفني حين يفصل عن الفنان ويخرج إلى النور ، حيث تبدأ قراءة (عامة) تعيد تقييم العمل وفق معايير أخرى تتعلق بثقافة القارئ (أو الناقد) وتكوينه النفسي وخبراته المعيشية ، ومدى استيعابه لقوانين حركة المجتمع والعصر .

وبطبيعة الحال يبلغ الفنان أقصى درجات السعادة ، إذا ما لاقت أعماله قبولاً (خارجياً) من القراء ، واعترافاً بقدراته ومواهبه وما توصل إليه من النقد ، فيكون هذا النجاح حافزاً ودافعاً له على الاستمرار وتطوير إنتاجه .

ولكن ، ماذا يحدث إذا تأخر هذا الحكم أو التقييم أو الاعتراف الخارجى بأعمال الفنان ، علماً بأن كل ذلك مرهون بعوامل عديدة لا يد للفنان فيها ولا تأثير له عليها ، وهو ما حدث فعلاً مع نجيب محفوظ خلال سنواته الأدبية الأولى ؟ .

هنا نجد أن الفنان الكبير لا يستسلم إزاء أى عقبة تعترض طريقه ، فيضطر إلى البحث عن حل بديل يحفزه إلى الصمود والاستمرار . وقد وجد نجيب محفوظ قناته في اعتبار الفن حياة تعاش لذاتها ، فجند طاقاته بعزيمة جبارة لا تعرف الكلل ، لتحقيق آماله (الكبيرة) الطموحة التي لا حدود لها !



إذا كان منهج نجيب محفوظ أن الفن حياة ، وكانت تلك مبررات اقتناعه بهذا المنهج . لذا يصبح منطقيًا حين يقدم خلاصة تجربة عمره ، لبلوغه الخامسة والسبعين وقت إجراء الحوار - الذى ورد فى كتاب « الرؤى المتغيرة فى روايات نجيب محفوظ » للناقد عبد الرحمن أبو عوف - أن يكون منهجه المختار فى مقدمة المبادئ التى تبلورت خلال تجربة حياته . . وهذه المبادئ هى :

« المبدأ الأول : أنى جعلت الحياة الأدبية والفكرية حياة تحيا لا مهنة تمارس ، بمعنى أنها تحوى كل أهميتها فى ذاتها ، فمجرد أن أعيش مفتوح الحواس والعقل أقرأ أو أكتب ، هذه حياة وعمل وثمره فى الوقت نفسه دون النظر إلى نتائج خارجية . وهذا يعنى أنى ظلت أكتب كثيرًا حتى جمعت لى أعمالاً من غير نشر ، من غير أن أشعر برغبة فى التوقف ، لأنى لم أربط العمل بثمرته . وهذا جعلنى أصبر على تجاهل عملى لما خرج إلى النور فيها بعد بهدوء وسكينة . ولو كنت نظرت إلى الأدب كعمل وثمره كان تغير الحال .

المبدأ الثانى : موقفى من النقد المضاد . . قررت بإرادة من حديد أن أقرأها قراءة موضوعية ، كأنها عن شخص آخر وأن أستفيد منها بأقصى ما يمكن الاستفادة منها .

المبدأ الثالث : صمت ألاّ تسوء علاقة بينى وبين ناقد ما ، لأننى اعتبرت أن الناقد يقوم بواجب ، وأن الدخول معه فى معركة يصده ويضعب مهمته .

المبدأ الرابع : أن الكتاب يحمل عناصر حياته أو موته .

المبدأ الخامس : مراجعة أفكارى ومواقفى على قدر الطاقة وعدم الخوف من تغييرها مادام التغيير ينبع من اقتناع واستهداف للحق ، فأنا عاشرت وعشت فترات ارتفعت فيها إلى الذروة وأخرى هبطت فيها إلى الحضيض . وتكرر ذلك فى حياتى مرات ، فتعهدت بينى وبين نفسى ألاّ يهرنى النجاح فى الحالة الأولى ، وألاّ أستسلم لليأس فى الحالة الثانية .

بطبيعة الحال ، يستطيع القارئ أن يدرك أن تلك ليست (مبادئ) استظل بها نجيب محفوظ فى حياته ، بل إن ما اعتبره المبدأ الأول ماهر إلاّ منهج حياته الذى سار

على هديه حين جعل الفن حياة ، كما أن بقية المبادئ ما هي إلا نتائج تربت على إتباع ذلك المنهج .



والآن ، لو شئنا تلخيص كل ما سبق ، فإن نجيب محفوظ اتخذ من « الفن حياة » تعاش لذاتها » ، ويرجع ذلك إلى عدد من الأسباب : تجاهل النقاد - في البداية - لأعماله ، وأن اختيار الأدب حياة كان اختياراً حتمياً ، إضافة إلى اجتهاده الطبيعي ، وأن الفنان الكبير لا يستسلم إزاء أى عقبة تعترض مساره فيضطر إلى البحث عن حل بديل .

أما النتائج التى تربت على هذا المنهج ، فكانت : اكتساب القدرة على الصمود والاستمرار فى الإنتاج حتى تتجمع لديه أعمال من غير نشر دون أن يشعر برغبة فى التوقف ، وتفهم وظيفة النقد ومحاولة الاستفادة من النقد المضاد بقدر الإمكان ، بل امتد التأثير إلى اكتساب مزيد من التواضع والقدرة على مراجعة الذات واتخاذ الموقف المناصر للحق . أما أهم النتائج أيضاً فلعلها الفهم الجيد لطبيعة العمل الفنى ، لأن كل « كتاب يحمل عناصر حياته أو موته » ، فإذا كان المولود قويا فسيحيا ويعمر ويخلد فى الأرض ، ولن يهمه تجاهل النقاد أو مهاجمتهم له ، أما إذا كان العمل ضعيفاً هثاً ، فيكون مآله الموت إهمالاً ، إذ عند هبة أول ريح مضادة ، فسرعان ما تذروه فيضيع فى الأرض بدداً .



ترتب على إتباع نجيب محفوظ منهج « الفن حياة » نتيجتان هامتان هما : الأولى هى مقاومة إغراء أى عوامل خارجية تحاول إبعاد نجيب محفوظ عن منهجه ، لذلك رفض احتراف العمل كسينارست فى السينما ، رغم إغراء العروض الجيدة التى عرضت عليه ، باستثناء فترة التوقف الطويلة عقب انتهائه من الثلاثية والتى استمرت خمس سنوات . كما رفض نجيب محفوظ التفرغ للعمل فى الصحافة « خوفاً من الضياع » ، لأنه مجال مختلف ولم أعد نفسى له » ، وهو يذكر أنه قاوم إغراء آخر حين : « أرسل له مصطفى أمين - بعد أن قرأ إحدى رواياته وأعجب بها - عرضاً بأن يكتب قصتين

قصيرتين في الشهر مقابل أربعين جنيها ، وكان مرتبه في تلك الفترة من وظيفة وزارة الأوقاف ثمانية جنيها فقط . . لم يقبل ، مبرراً رفضه « و كنت في هذا الوقت مشغولاً بكتابة روايتي « زقاق المدق » . . وكان معنى كتابة قصتين كل شهر أن أخرج من الجوال العام للرواية » (من كتاب « نجيب محفوظ يتذكر ») ، لكنه أضاف تبريراً آخر - في مجلة « فصول » : عدد خاص عن القصة القصيرة حين قال : « فقد كنت ما زلت المحترف الهاوى معاً . ثم عدت إليها كما قلت عندما عادت هي لي » . . وكان يقصد بذلك عودة القصة القصيرة إليه في بداية الستينات .

أما النتيجة الأخرى فكانت « تنظيم الوقت » ، وقد عبّر عن مفهومه لتنظيم الوقت - في مجلة « المصور » : ٢١ / ١٠ / ٨٨ - حين قال : « الذي يخضع للنظام هو العمل . . الفكرة بعد أن تولد تنمو ، ثم تصبح عملاً » ، و « إذا أعطاني الإبداع ثمرته أحفظ بها وأنظمها في العمل في الوقت المتاح » .

أما مبررات « تنظيم الوقت » فكثيرة منها انقسام حياته بين الوظيفة والأدب ، حين عبّر عن أهمية الوظيفة له - في « الرؤى المتغيرة في روايات نجيب محفوظ » : « الوظيفة كانت في حياتي ضرورة لأنك تعرف أن الأدب في ذاته فقير ، وكلما تفتحت الأبواب أمام الأدب كان الغلاء يزيد ، فوجدت أن الوظيفة برغم قيودها تعطيني من الحرية ما لا يعطيه أي عمل آخر » ، كما أن « وضعت هذا مكتبي أن أرى بشيء من الوضوح جميع الأنظمة التي تتابع على مصر ، دون تأثير بأي ضغط من الخارج » .

مبرر ثانٍ أورده في مجلة « المصور » (٢١ أكتوبر ١٩٨٨) حين قال : « المسألة ليست ميكانيكية . . ولكنها جاءت نتيجة للتنوع وحب الحياة . . وعندما كنت تلميذاً كنت أحب الاجتهاد ، لأن الاجتهاد في حياتي كطالب من أسرة فقيرة يجب أن أنجح ويتفوق ، وأحب الرياضة والتفوق فيها ، وأحب أن أسمع أم كلثوم وعبد الوهاب ، وأحب أن أسهر مع الأصدقاء . . من أين أتى بالزمن الذي يتيح لي كل هذا ؟ » .

مبرر ثالث ذكره - في مجلة الفكر المعاصر : سبتمبر ٦٨ - حين قال : « لظروف خاصة (مرض عينه بالحساسية) وحتمية اقتصار موسم عمل الأدبي على الفترة ما بين

أكتوبر وإبريل من كل عام . ولم أعتبر ذلك خسارة مطلقة إذا أخذت من أشهر مايو ويونيو ويوليو وأغسطس وسبتمبر راحة نسبية ، واختلاطاً بالناس والأماكن . . . فنضجت خبرتى بالمكان الضيق الوحيد الذى عاشته على ظهر الأرض وهو القاهرة .

مبرر رابع أوضحه - فى كتاب « نجيب محفوظ يتذكر » - حين قال : « إن لم أنظم اليوم فسأفقد السيطرة عليه . لقد عودت نفسى على ساعات معينة للكتابة ، وفى البداية كانت روحى تستجيب أحياناً . . . وأحياناً لا ، ولكنتى مع الزمن اعتدت ذلك ، إننى أكتب عادة عند الغروب ، ولا أذكر أننى كتبت أكثر من ثلاث ساعات . وفى المتوسط لمدة ساعتين . أشرب فى اليوم الواحد خمس فناجين قهوة ، وأسهر حتى الثانية عشرة ليلاً ، وأكتفى بخمس ساعات نوم » .

أما أظرف المبررات . فقد ساقها - فى (كتاب نجيب محفوظ : حياته وأدبه) - ردًا على سؤال : لماذا التنظيم ؟ . حين قال :

« انظر باسبى . .

بعض الكائنات تسبح فى الماء . .

وبعضها يطير . .

وبعضها يمشى على قدمين أو أكثر . .

وكُلُّ مؤهل لما خُلِقَ له . والعبرة بالتأنيج » .

■ الفصل الثامن ■

رحيق الخبرة

١. قراءة في مجموعة قصص « صباح الورد » :
تنوع المصائر في دورة الحياة

قدم نجيب محفوظ في مجموعته القصصية، « صباح الورد » عصر عمره ، وخلاصة تجاربه ، وجزءاً من سيرة حياته الذاتية ، وسط رؤية متكاملة لدورة الحياة وحركة البشر فيها ، فالحياة قافلة لا تتوقف عن المسير ، مليئة بالمعائب الساخرة والمآسى الدامية ، التي تفاجيء البشر وتزعجهم ، وهي تمضي قاسية مرة ، أو مفعمة باللهفة والحسرة والإحباط ، ولكن يجب أن يعي البشر أنه لا حيلة مع الشيخوخة ، وتنكر الأيام ، وفول النسيان ، فلا بد إذن أن ينضم إلى ركبها كل حين مزيد من الذكريات الحميمة العزيزة الجميلة ، التي تطويها في ماضى بعيد . لم يعد يبقى منه شيء .

وحين يدور الزمن دورة جديدة ، تتكرر الحياة بصورة أو بأخرى ، لتلقى نفس المصير .. كيف حقق نجيب محفوظ رؤيته عن الحياة ؟ وما هو موقف الإنسان إزاءها ؟ .

المكان يحتشد بالشخصيات :

تتكون المجموعة من ثلاث قصص « أم أحمد » ، « صباح الورد » ، و« أسعد الله مساءك » . تظهر في مقدمة قصة « أم أحمد » شخصية امرأة (من عامة الشعب) قوية ، متحدية ، مناسكة ، صلبة (وكأنّ نجيب محفوظ كتب هذه القصة خصيصاً

لتكريمها ، أو إعلاء شأنها كنموذج يحتذى) . كما يتجسد المكان ، حارة قرمز بحى الحسين (حيث قضى نجيب محفوظ طفولته) ؛ بسرايا أسره الاربع (آل العمرى ، آل سعادة ، آل البنان ، آل المردانى) ، بشخصياتها الكثيرة ، التى التصق بعضها بطفولة الكاتب (فاطمة العمرى ، بنات آل سعادة الثلاث) ، أو التى تابع مصائر بعضها الآخر عن بعد .

أما قصة « صباح الورد » فتعكس على صفحاتها فترة صبا نجيب محفوظ ، التى قضاهها مع أسرته فى شارع الرضوان بالعباسية . هنا يتبع الكاتب مصائر خمس عشرة أسرة سكنت على جانبي الشارع ، محاولا أن يسلط أضواءه الكاشفة على حياة أشخاصها لإبراز مناحيها المختلفة ، والاقتراب من مسار حركتها .

وتبقى قصة « أسعد الله مساءك » ، ويرسم فيها الكاتب مصيرا فرديا ، سليبا ، لشخصية رجل بدأ مدلا ، اعتاد أن يأخذ من الحياة دون أن يعطيها ، ولم يناضل بإصرار - كأم احمد - ليحتل مكانا لائقا فى الحياة ، فعاش حياته إلى ما بعد الستين (على هامشها) ، لم يحقق له الحياة خلالها أمله الوحيد فى (الزواج) . وأخيرا بإيعاز مستمر من صديق له ، اقتحم الحياة ، فأسعد الله شيخوخته ، حين نال شرف الزواج من معشوقته القديمة .

يحتشد المكان فى هذه القصص بكم هائل من الشخصيات ، كما تحتشد الدنيا بالبشر ، حيث بلغ عدد الأسر التى تناولها هذه المجموعة إحدى وعشرين أسرة على النحو التالى : خمس أسر (قصة أم احمد) ، خمس عشرة أسرة (قصة صباح الورد) وأسرة واحدة (قصة أسعد الله مساءك) . مع مراعاة أننا استبعدنا أسرة راوى القصتين الأولى والثانية ، الذى توارى وراءه نجيب محفوظ تارة بشكل واضح (قصة أم احمد) ، أو تارة أخرى بشكل مستتر ، حين تخفى وراء شارع الرضوان وهو يحكى حكايات الأسر التى سكنت على جانبيه (قصة صباح الورد) .

هنا لابد أن يثور سؤال : لماذا قدم نجيب محفوظ هذا الكم الهائل من الشخصيات ، الذى احتشد على مسرحى الأحداث فى رفاق قرمز وفى شارع الرضوان ؟ .

والإجابة ضمنها نجيب محفوظ فى هذه القصص ، بوعى واقتدر . . لقد أراد أن يقدم للقارىء عصير عمره ، وخلاصة تجاربه عن الحياة فى مهد طفولته ومرتع صباه .

وربما بدا أمامه في تلك اللحظة خياران : أن يكتب رؤيته بإيجاز عن مهد طفولته وصباه ، ضمن رؤية كلية للحياة استمدتها من خبرات عمره المديد (أطاله الله) ، وذلك في إطار الشكل التقليدي المألوف للسيرة الذاتية ، كما جرى على ذلك العديد من الكتاب . أو أن يبرز حياة تلك الفترة من الزمان (بدءاً من ١٩١١) ، بكل ما احتشد به مسرحها من شخصيات ، وأن يدع الوقائع تتكلم ، ولا مانع أن يضيف لمحة هنا ، أو يضع انطباعاً هناك ، أو أن يرسم بسمة في مكان ثالث .

وكان لابد لنجيب محفوظ (الفنان) ، أن يختار الاتجاه الثاني ، فتخصصه ليس صناعة المقالات المنمقة ، وإنما هو فنان صادق يعث الحياة - بإبداعه - في الشخصيات حين يجعلها تعيش في مكان معين خلال زمان محدد ، ولكنه لم يكتف بذلك - ولو كانت كتابته هنا لأغراض الفن فقط ، لاكتفى - وإنما لأنه يهدف في الأساس إلى كتابة جزء من سيرته الذاتية ، يخصص به مكاناً وزماناً أثيرين لديه ، كان لابد له أن يتبع مصائر تلك الشخصيات ، عبر الزمان ، ليتوصل معها - وليوصل القارئ معه أيضاً بشكل فني مقنع - إلى رؤيته المتكاملة عن الحياة ، وحركة البشر فيها وما تجيش به من عجائب ومفارقات ومآسى ، تثير في البشر مختلف الانفعالات ، لكنها لا تعبا بمشاعرهم ، بل تظل سادرة في دورتها التي تتكرر بصورة أو بآخرى ، لتلقى في النهاية نفس المصير .

ولعل تتبع بعض النماذج يضيء ويبرز جوانب رؤية نجيب محفوظ ، التي تتناثر ظلها بين ثنايا هذه الشخصيات وتطورات مصائرها . .

فاطمة العمرى : ابنة أحد أعيان زقاق قرمز (قرد) أبوها ألا يزوجها قبل أن تبلغ الثامنة عشرة من عمرها (كان العرف أيامها هو الزواج المبكر للفتيات منذ الخامسة عشرة) وأن يزوجها من وكيل نيابة أو طبيب . وكان له ما أراد ، حين زوجها في الثامنة عشرة من عمرها إلى وكيل نيابة ، ولم يكن يعلم أنه (باختياره) هذا قد شارك في صنع مأساتها دون أن يدري ، فقد سافر زوجها وهو مستشار في رحلة قصيرة إلى سويسرا ، حيث قابل أحد أصدقاء صباه ، الهاربين من عبد الناصر ، والذي كان لا يكف عن مهاجمته ، وحين عاد من الخارج استدعى لسؤاله ، ثم لم يظهر له أثر بعد ذلك أبداً . . كانت زوجته تقول إنهم قتلوه ، ودفنوه وانتهى الأمر .

لقد (أراد) الاب أن يحقق لابته (السعادة) ، بأن يزوجه في سن مناسب من شخص (مختار) بعناية ، فيكون هذا (الاختيار) المحدد ، سبباً في كارثة محققة تحببها لها الأيام .

صغرى بنات (آل السكرى) : عشقت موظفاً بسيطاً وأصرت على الزواج منه رغم معارضة الجميع ، وأنجبت منه بكرياً جميلاً ، « لم يتصور المستقبل الذى ينتظره بمنحنى التاريخ ، وحين قامت ثورة يوليو مرت بآل سعادة بسلام ، بل حُلّ الوقف وأصبحوا أحراراً فى التصرف فى أملاكهم . وكان ذلك (الصبى الجميل) من الضباط الأحرار ، بل ومن المقربين أيضاً ، وأختير لوظيفة فى المخابرات ، وسرعان ما جرى اسمه على كل لسان ، واكتسب سمعة مخيفة ، لا تكون إلا للشيطان ! » .

وهنا يعلق راوى القصة (أو نجيب محفوظ) على ذلك بقوله : « جعلت أقارن بين ما يقال عنه من حقائق وأساطير ، وبين صورة صباه الوديعه الجميلة ، وأنساءه وأنعجب » .

محمد على (آل البنان) : كان أبوه من أتقى الأغنياء ، وأبرهم بالفقراء ، صاحب طاحونة ذو مظهر جذاب ، أنجب محمد (على كبر) ، (وقرر) أن يشعره بالرجولة قبل مجيئها ، فأخرجه من الكتاب بعد ستين ، ودفعه إلى العمل فى الطاحونة فى العاشرة ، وزوجه فى الخامسة عشرة . وحين قامت ثورة يوليو حُلّ الاب من سراياه إلى السجن ، لأنه كان عضواً فى كل البرلمانات الوفدية قبل الثورة ، ثم وضع تحت الحراسة ، فانفجر له شريان فى السجن ومات ، فانزوى محمد فى دعر مقيم . لكنه : « استرد نشاطه فى عهد السادات وعاونهُ الانفتاح ، فعوّض خسائره وضاعف ثروته ، بل وتردد اسمه فى صحف المعارضة باعتباره من وحوش الانفتاح .. فأى حياة وأى سخرية من عجائبها » .

شاكر عباس (آل المرادنى) : عباس المرادنى من كبار تجار الجملة فى العطارة ، وكان كريماً محسناً . أنجب ولدين فقط . قُتل أكبرهما فى مظاهرة ، وهو طالب بالزراعة العليا . وانتهت حياة الأب نهايةً مأساوية ، حين كان همّ بدخول شيكوريل ،

فأصابته رصاصة طائشة ، في معركة بين يونانين وقام الابن الأصغر شاكر الذى أصبح محاميا بتصفية تجارة والده ، وتزوج وانضم إلى الوفد ، وتجلّى نشاطه في الصحافة والبرلمان . . اعتقل في عهد ثورة يوليو أكثر من مرة ، وحين وضع تحت الحراسة ، هام على وجهه كالمجنون . ثم عاد ليظهر في عصر الانفتاح ، ليقفز إلى درجات خيالية من الثراء ، ويقال إنه عمل مرشدًا للمخابرات وقوادا ، فأمن المزيد من العصف . أما الظاهرة الغالبة عليه اليوم فهي التدين ، كأنها يكفر عن تناقضات حياته الحافلة بالآلم والذكريات الأسيفة .

وداد (آل مكى) : كان أبوها مطربا غير مجهول ، لكنه لم ينفق طعام الثراء الذى (حلم) به . تعرض أخوها الذى كان (يحلم) أن يكون طبيا ، لهجمة من الشرطة وهو في كلية الطب ، فأصيب برصاصة ، في بطنه ، مات على إثرها دون أن يحقق حلمه . أما أخته وداد ، فقد بلغت كمطربة قمة الشهرة والثراء . وهنا يعلق الراوى : « ويدور الزمن دورة أخرى . ويجيء الخريف بعد الربيع والصيف وتكرر المأساة التى يظنّ صاحبها أنه أول من يعانىها ، وقد امتد بها العمر حتى الثمانينات ، وحظيت بصحة حسنة ومال وفير ، ولكن لا حيلة مع الشيخوخة وتكرر الأيام وغول النيان »

سامح (آل شكرى) : ابن اسرة ثارت على التقاليد وتمردت على الزمن ، وهو يعبر عن ذلك لأصدقائه بأن : « الفارق بيننا حبال بعض التقاليد السخيفة هو أنكم تمارسونها رغم عجزكم عن الدفاع عنها . أما نحن فنرميها بكل شجاعة في صندوق القمامة » . تزوج بعد أن تخرج من كلية العلوم من مدرسة ، وأنجب أربع بنات وولد ، سمّاه « شكرى » وعاشت الأسرة حياة عصرية ، ثم التحق ابنه بكلية الطب ، وإذا به ذات يوم يفاجئ أبويه : « لماذا لا تصليان ولم تصوما قط ؟ ألسنا مسلمين ؟ » فذهلا ووجها ، وأيقنا أن ابنهما انضم إلى إحدى الجماعات الدينية ، حتى قذفتها الحياة بالمفاجأة الأخيرة ، حين قبض عليه بعد معركة دامية مع الشرطة بتهمة القتل ، حُوكم بعدها وقضى عليه بالشنق ونُفذ الحكم . وأسدل الستار على المأساة الدامية ، فإذا الأم : « تصلى وتصوم وتعلم أصول الدين في كتاب الديانة للمدارس الابتدائية » .

عبد الخالق (آل مراد) : هو الغصن الوحيد العارى في شجرة مورقة بالمجد والثراء ،

فعمه كان يوما مفتى الديار المصرية ، وخاله النائب العام ، وخال آخر من صفوة التجار عاش متفاخرا بأسرته ، متعلقا بأوهام اليانصيب ، الذى لم يكسبه أبدا . التحق بوظيفة صغيرة فى المعارف ، وحين أنجبت أخته ، تعلق (آماله) بولديها خاصة حين التحق أحدهما بالشرطة والثانى بالحرية . لكن الأول قتل برصاص الشرطة فى معركة بعد أن انضم إلى الإخوان ، وأما ضابط الجيش ، فقد ظهر أنه من الصف الثانى للضباط الأحرار عند قيام الثورة ، إلا أنه كان مغرورا ، ذاتى النزعة ، انتهى به الأمر إلى ورم فى المخ ، مات على إثره .

عندئذ سَلِمَ عبد الخالق بالأمر الواقع ، وتزوج من أرملة فى الخمسين ، وازداد تدبناً وأملأ فى الآخرة ، مات فى السبعين من فشل كلوى ، بعد حياة مفعمة باللهفة والحسرة والإحباط ، طاوية ذكرياتها البعيدة فى ماضٍ بعيد ، لم يكذب على من معاله شيء .

عبد المنعم (آل الكاشف) : أبوه من كبار مهندسى الري ، ذو مظهر عسكري صارم ، ابنه البكر عبقرى حصل على دكتوراه فى الكيمياء من إنجلترا ، ونال الابن الثانى دكتوراه فى الرياضة من إنجلترا أيضاً ، أما الأصغر ، فكان على العكس ، همه الأساسى هو الأكل خاصة « الكرشة ولحمة الراس » ، لذلك كان الخصام مع أبيه لا ينتهى ، فإذا طرده نام فى الحقول وحده . لكنه رغم همومه طيب القلب ، وقد حاول الانتحار ذات مرة ، ولما حصل على البكالوريا التحق بكلية الطيران الجديدة (ولم يعترض أبوه يأساً منه) ، وأظهر تفوقاً ، فسافر فى بعثة إلى إنجلترا ، وعاد متزوجاً من ألمانية ، والتحق بخدمة الملك فصار من المقربين ، فعلق أحد الأصدقاء ، « من الكرشة ولحمة الراس إلى سراى هابدين ، يالها من وثبة خرافية » ثم أنجب ابنه الوحيد ، وعندما قامت الثورة اكتفوا بإخراجه إلى المعاش ، غير أن أقران ابنه فى المدرسة عَيَّرُوهُ بأبيه وأبوا أن يعترفوا ببراءته ، حتى أصيب الصبى بإنتهار عصبي تطور إلى إدخاله مستشفى الأمراض العقلية ، ومازال مقيماً بها حتى اليوم . وبعد حرب أكتوبر هجرته زوجته الألمانية ، وعادت إلى بلدها . . . لكنه خُلِقَ حمّالاً للهموم والمصائب ، حتى كان نعبه ذات صباح ، فانضم إلى ركب الذكريات الحميمية العزيزة إلى القافلة التى لا تتوقف عن المسير .

جميل (آل العلوى) : هو الابن الأصغر لأسرة عريقة في الثراء والجاه ، جدهم
مذكور في الجبرتي بين النخبة الوطنية . شغل أخواه مناصب مرموقين في الحكومة
تزوجت أخته من موظفين كبيرين ، أما هو فوهب نفسه للرياضة واللهو ، حصل على
الابتدائية بطلوع الروح . حين مات أبوه ورث ثروة فاقتنى سيارة وعاش عيشة أعيان ،
وظل مثلاً نادراً لنبل الأخلاق وتقاء السرية ، لكن القمار أمسك به ، فصار هو جوهر
حياته . أصابته ذبحة صدرية في الخمسين ، ولما استرد صحته عاش حياته ، فهو : « لا
يخاف الموت ولا تزعبه فكرته وما نهمه إلا الساعة التي هو فيها » ، وفي الثانية والستين
جاءت النهاية . جاءت الذبحة ، ريباً متأخرة عن توقعاتنا ، ولكن مضاعفة لدهشتنا
وانزعاجنا .

زكى (آل كناشة) : هو ابن الشيخ محمد كناشة قارئ القرآن الكريم ، أمه فلاحه
له سبع أخوات متزوجات . له أخ وحيد ، ولفشلها في الثانوية ، وافق الأب على
التحاقها بمعهد الموسيقى الشرقية ، وبعد التخرج اشتغل الأخ الأكبر مطرباً بإحدى
الصالات وتزوج ، وعاش كأية . أما زكى فقد اشتغل مونوبلجست في صالة . . . ولم
تبشر حياته بقفزات غير عادية ، لولا أن أحبه سيدة غنية ، فدفعت به قصة الحب إلى
أغلفة المجلات الفنية ، وانتهى الأمر بالزواج ، ولم ينجب منها . ثم أنشأ من أموال
زوجته ملهى الفونتانا ، أجمل ملاهى شارع الألفى ، فصار من كبار أغنياء البلد ،
خاصة بعد أن ماتت زوجته ، فتزوج من راقصة ، شيد لها قصراً في الهرم . . . وكان
تنكره لأسرته ، ووالديه المسنين وأخيه إبراهيم ، وصمة في جبينه لا تُمحى أبد الدهر ،
وفجأة مرض مرضاً خبيثاً لم تحتمله زوجته فطلقها . « له من المال ما يمكنه من امتلاك أى
شئ ، وليس له من الصحة ما يمكنه من الاستمتاع بأى شئ . وانساق مع حظه ،
مع الهدف الوحيد الباقي له وهو الجنون » ، قدفع في تشييد قبره أموالاً كثيرة ، وكأنه أراد
الآ يريته أحد من الشامتين ، ثم مات ، فلم يحزن لموته أحد . . . « وقال صديق : لم
أعرف في حياتي من هو أقى منه » .

فأجاب صوت : الحياة نفسها تبدو أحياناً أقى وأمر .

ظلال الرؤية :

كما سبق يمكن بلورة أبعاد رؤية نجيب محفوظ - والتقاط ظلالها التي انتشرت بين تلك الشخصيات ، وظهرت بين انعطافات مصائرهما ، في النقاط التالية :

أولا : الحياة قافلة لا تتوقف عن المسير ، مليئة بالمعجائب الساخرة :

فقد يختار أب لابته زوجا معينا ، (ليضمن) لها (السعادة) فإذا اختاره يتسبب في شقائها (فاطمة - آل العمري) ، وقد يُربى أب أولاده على التفوق والنبوغ فيحقق اثنان طموحه ، وحين (يوقن) من فشل الثالث ، يوافق على اختياره اتجاهها معينا لمستقبله ، فإذا اختار الابن نقطة تحول في حياته ، فيعلو شأنه ، حتى يصير من المقربين من الملك (عبد المنعم - آل الكاشف) ، وقد تهدر (أحلام) أب في الثراء والشهرة ، وقد تبدد (أحلام) الابن في أن يكون طبيبا ، حين يموت في كلية الطب في أوج شبابه ، لكن أخته تبلغ قمة الثراء والشهرة والعمر المديد (وداد - آل مكى) ، وقد يمارس شاب النشاط السياسي الذي يرغبه ، ويصيب فيه نجاحا ، فإذا الثورة تعنتله أكثر من مرة ، وحين (يوقن) الضياع ، إذا بعصر الانفتاح يتشله ، فلا يكفى بتكوين ثروة خرافية ، بل ينحرف ليحقق (الأمان) لنفسه (شاكر - آل المرداني) ، وقد يكون طفل وديع جميل في صباه فإذا هو ينقلب شيطانا مريدا في رجولته (ابن صغرى بنات آل السكري) .

ثانيا : قد تزخر الحياة بالمآسي الدامية :

فقد يبلغ رجل مكانة اجتماعية عالية بعد طول فشل ومعاناة . فإذا الثورة تحيله إلى المعاش ، بسبب هذه المكانة ، فيجنّ ابنه الوحيد (عبد المنعم - آل الكاشف) . وقد يعيش رجل حياة متحررة من التقاليد ، فإذا بابنه الوحيد يتحول إلى النقيض (التطرف الديني) ، الذي ينتهي به إلى الإعدام شنقا (سامح - آل شكري) ، وقد يتفاخر رجل بياضه العريق ، ويعلق (آمالا) على ابني أخته ، فإذا بأولهما يموت صريعا ، وإذا الثاني مغرور ، ينتهي أمره بورم مفاجيء في المخ ، ثم الموت (عبد الخالق - آل مراد) . وقد تنتهي حياة أحد كبار التجار فجأة حين تصيبه رصاصة طائشة في مقتل ، مصادفة من معركة لا صلة لها إطلاقا (عباس آل المرداني) .

ثالثاً : يجب أن يتذكر البشر الموت ، وألا يضع منهم في خضم (النيان) ، لأنه جزء من دورة الحياة ، فكما تتوالى فصول السنة (يحىء الخريف بعد الربيع والصيف) ، لابد أن تتكرر مأساة الموت ، وإن امتدت الحياة بالبشر .

فقد يهب شخص حياته للرياضة واللهم والمقامة : حتى أصابته ذبحة صدرية وحين شفى منها ، عاود حياته السابقة (لأنه لا يخاف الموت) . وحين توقع له الجميع الموت ، إذا بظنهم يخيب ، ويزوره الموت بعد اثنتى عشرة سنة ، ففاجأ المحيطين به وأدهشهم لأنهم لم يكونوا يتوقعونه (جميل - آل العلوى) . وقد تصل سيدة إلى أعلى آيات الشهرة والثروة في حياة طويلة ممتدة ، ولكن لا حيلة مع الشيخوخة ، فالموت قادم لا محالة (وداد - آل مكى) .

رابعاً : بالموت ، ينضم إلى ركب الحياة كل حين مزيد من الذكريات الجميمة العزيزة الجميلة ، لأولئك الذين رحلوا ، وطواهم ماضى بعيد لم يعد يبقى من معاله شيء :

وقد تنجم المأساة ، حين يتنكر فرد لأسرته ، وهو في قمة غناه ، فإذا به حين يموت لا يحزن لموته أحد ، ويضيع ذكره مع الزمن (زكى - آل كناشة) .

موقف الانسان :

إذاً ، ماهو موقف الإنسان الصحيح ، الذى يجب اتخاذه إزاء هذه الحياة ؟ . . .
قدم نجيب محفوظ إجابته - فنياً - على مرحلتين - رسم في المرحلة الاولى منها نموذجين متقابلين أحدهما باهر ، يجب أن يقتدى به الإنسان ، والآخر سلبى ، يجب أن يتجنبه . النموذج الأول تمثله شخصية من بين أبناء الشعب هى (أم أحمد) ، والتي انتزعت لنفسها مكانا مرموقا بين أرقى سيدات زمانها ، وذلك بفضل قوتها الذاتية وصلابتها وشجاعتها وذكائها ومشاركتها في الحياة الاجتماعية والسياسية لعصرها (قصة أم أحمد) . أما النموذج الآخر (المرفوض) فهو منطو ، حالم ، عازف عن المشاركة في الحياة الاجتماعية أو السياسية ، مكثفيا بحلم قاصر على الوظيفة والزواج (قصة أسعد الله مضاءك) .

هنا يحضننا نجيب محفوظ على الاندماج والمشاركة ، وأن نتمسك بالكفاح والنضال كقيمة إيجابية في الحياة ، لكنه في ذات الوقت ، يرسم لنا بحذر ويقظة - في المرحلة الثانية - حدود حركة الإنسان التي لا يجب أن يتعداها ، وقد تم ذلك من خلال نفس النموذج / القدوة (أم أحمد) ، ونموذج آخر (والد الراوى) ، وأيضاً من استطلاع حركة مصائر شخصيات قصصه

هذه الحدود هي :

أولاً : مسائل الرزق والثراء ، هي من عند الله يؤتيها من يشاء :

فأم أحمد بخبراتها الفاتقة والعريضة بالبشر والحياة تعي جيداً أن الرزق والثراء من عند الله ، فعند حديثها عن « آل البنان » قالت : « كان أبوه يسرح باللبن على باب الكريم ، وفتح دكاناً صغيراً في الخرنفش ، وقامت الحرب فأمر الله بالثراء ولا رادّ لأمره » .

وهذا نفس ما أكدّه والد الراوى في حوارهِ مع صابر (آل مكى) ، حين رآه دائم النعمة والحزن ، حين قال له « صوتك ملبح ، والأرزاق بيد الله » فهذا الأب كان يحلم بالثراء والشهرة ، فلم ينلها ، بل نالتها ابته إضافة إلى عمرٍ مديد .

ثانياً : مسائل الإنجاب تخص الإرادة الإلهية وحدها :

فعندما أنجبت زوجة عباس (المرداني) ولدين ، ثم .. « انقطعت عن الحمل واحترار الأطباء فيه » .

- وماذا فعلت أنت يا أم أحمد ؟

- فعلت الكثير ولكن إرادة الله فوق كل إرادة .

هذا حدّ آخر ، فمسائل الإنجاب ونوعيته (ذكر / أنثى) ، رغم جهود البشر ، تظل رهن إرادة الله .

ثالثاً : التوفيق في الحياة الزوجية للأنثى ، والتوفيق إلى مستقبل مأمول للشباب ، هو أيضاً من عند الله :

فمع آل سعادة ، عندما كان الزوج عينه زائفة ، ويجرى وراء الخدمات والساقطات ، رغم أن زوجته بنت ناس وآية في الجمال ..

يتساءل الراوى : « وطبك المجرب يا أم أحمد ؟ .. »

- منع الطلاق ، ولكنه لم ينج من القدر ، وقد جربت سلطانه هانم الرشاقة ثم نفختها حتى فاقت زينب في الحجم ، ولكن المكتوب مكتوب »

لقد فهمت أم أحمد بذكائها وخبراتها حدود البشر ، فتوقفت عندها . وهناك من لم يفهم فكان سببا في مأساة ، تماما كذلك الأب الذى (أراد) أن يحقق (السعادة) لابنته ، فزوجها في سن مناسب ، ومن شخص اختاره لها بعناية (وكيل نيابة تدرج في الوظائف حتى صار مستشارا) فإذا (اختياره) بسبب كارثة محققة لها ، حين اختفى فجأة بعد عودته من سفره إلى الخارج (فاطمة العمرى) .

إذن ، يتلخص موقف الإنسان من الحياة ، طبقا لرؤية نجيب محفوظ ، أن عليه أن يناضل ويكافح بقوة وعزم وإصرار ، لبلوغ المكانة التى ينشدها ، مشاركا - فى الوقت ذاته - فى الحياة الاجتماعية والسياسية لعصره ، مع إيمان كامل ، بأن الموت حق ، وأن مسائل الرزق والثراء والإنجاب والتوفيق فى الحياة ، هى من عند الله . فإذا ما تناسى ذلك ، وانحرف للحصول على (الأمان) (شاكر - آل مردانى) ، أو تعلق بأوهام كاذبة عن الحظ أو تفاخر بالمجد والجاه (عبد الخالق - آل مراد) ، أو تشبث بقشور زائفة من حضارة الغرب (سامح - آل شكرى) . فلا بد أن تجبره الحياة بتطوراتها العنيفة ومآسيها المفاجئة ، على العودة إلى حظيرة الإيمان .. نائبا .. مستغفرا .



٢- قراءة في مجموعة « الفجر الكاذب »

بانوراما الحياة والموت

قدّم نجيب محفوظ في مجموعته القصصية « الفجر الكاذب » خلاصة تجاربه ، ورحيق خبراته ، ولمحات من سيرته الذاتية ، رأساً - من خلالها - بانوراما للحياة وهي ماضية بكل جلبتها ، كل مخلوق فيها ينطوي على سرّه وينفرد به ، يفكر فيها سيفعل أو يقول ، ويحلم بالنعمة التي سيجود بها القدر ، فيعشق من يعشق ، ويتزوج من يتزوج ، وينجب من ينجب ، وإذا السعادة تغيب الرعى حين حضورها ، وتراوغ بعد زوالها ، فيعرف الإنسان الحزن والألم . وإذا الزمن يتفشى مفعوله ، ويحتاج التغير كل شيء بقوة تفوق الخيال ، فيتذكر الفرد أيام طفولته التي مرّتها العذاب ، فإذا بها آية في الجمال بسحر الزمن ، ويتراجع الشباب إلى ركن الشيخوخة . ويعبث الزمن بوجوههم ، ويتشرّ غيرهم في كل مكان ، وينبسط أمامهم مصير ملء بكافة الاحتمالات في ذلك الليل البهيم ، وإذا الحياة تفجعهم بعجائبها الساخرة ومآسيها الدامية ، حتى يظن الإنسان أن الحظ وحده كان وراء من فاز فيها . وحين يفاجئهم الموت يتساءلون كالمألوف ، ولكن أى تساؤل يجدى مع الموت ، فهكذا هي الحياة ، تواصل دوراتها المعروفة في العطاء والموت والإقناء . .

ما هي أهم ملامح قصص المجموعة ؟ . . كيف جسّد نجيب محفوظ أبعاد رؤيته تلك ؟ وما هو موقف الإنسان إزاءها ؟

ملاحج عامة :

أولاً : « الفجر الكاذب » هي المجموعة القصصية قبل الأخيرة لنجيب محفوظ ، حيث صدرت في نهاية عام ١٩٨٩ ، وأكبرها إطلاقاً ، لأنها احتوت على ثلاثين قصة ، فلم يقترب من هذا الكم الكبير سوى مجموعته الأولى « همس الجنون » التي صدرت عام ١٩٣٨ حين اشتملت على ثمان وعشرين قصة . قد يرجع ارتفاع عدد ما تضمنته هذه المجموعة من قصص إلى أن نجيب محفوظ أضاف إليها أخريات ما كتب دون تمييز من ناحية المستوى الفني ، وهو ما ظهر جلياً في سبع من قصص المجموعة ، التي هي أقرب إلى الحادثة أو النادرة التي لم تختبر في معمل الفنان ، وهذه القصص هي : « في غمضة عين » ، « مرض السعادة » ، « النشوة في نوفمبر » ، « تحت الشجرة » ، « وصية سواق تاكسي » ، « العجوز والأرض » ، « الغابة المسكونة » .

ثانياً : ترتبط هذه المجموعة بوشائج قريبي مع مجموعاته القصصية السابقة ، في إطار امتداد وتكامل روافد عالمه الفني ، والأمثلة تفوق الوصف منها : أنه تعرض في مجموعته الثانية « دنيا الله » (١٩٦٣) إلى قضية الموت بقصة واحدة هي « ضد مجهول » ، ارتفعت هنا إلى ست قصص تعالج نفس القضية من زوايا مختلفة ، فالفنان يكتب في النهاية - صادقاً - عما يلحّ عليه ، ويشغل ذهنه أكثر ، ويؤجج خياله . أيضاً نجد قصة « يرغب في النوم » من مجموعته الأخيرة ، تنتمي أكثر إلى عالم قصص مجموعة « خمار القط الأسود » (١٩٦٨) ، حين يعود بطل القصة من قريته التي استقر فيها منذ خمس وخمسين سنة إلى مسرح شبابه في أحد أحياء القاهرة ، تحت إلحاح نداء خفي يدعوه . . « أذهب وانظر وافعل شيئاً لعله يجعل نومك أعمق » ، فإذا به يكشف أن البذرة التي زرعها في جنون شبابه في أسرة صديق (وهنا نجيب محفوظ لا يفصح بل يوحى فقط) قد أطاحت بتلك الأسرة ، فسار كالأعمى لا يرى ما بين يديه . . إنه الإنسان حين يحاول أن يتخفف من عبء معاناته أو آلامه أوقهره ، بالفهم أو الإصلاح

أو الانتقام ، فإذا بالمهزلة - لابد - أن تُتِم فصولا ، وإذا القدر يلطمه بقسوة بالغة ، فيؤوب بخسران مبین .

ولعل نفس تيمة التحذير من الدنيا الغادرة التي تتحرك وفق منطق خاص بها مجهول للإنسان ، والتي تبدت أكثر وضوحاً في مجموعة « التنظيم السرى » (١٩٨٤) ، ومثلت محوراً أساسياً فيها من ست قصص ، إذا بها تتسع رقعتها في مجموعة « الفجر الكاذب » لترتفع إلى سبع قصص .

ثالثاً : اتسمت قصص هذه المجموعة أكثر بالرؤى الكلية الشاملة للحياة والموت ، وهو ما تبدى من قبل في مجموعة « صباح الورد » (١٩٨٧) ، التي قدم فيها نجيب محفوظ جزءاً من سيرته الذاتية ، لما عايشه خلال طفولته وصباه وشبابه وشيخوخته من تجارب ، وما طرأ على المكان والبشر من تغيرات في إطار رؤى كلية للحياة ، وهو ما عمقه في هذه المجموعة أيضاً ، وكأنه يود أن يقدم للقارئ عصير حياته وخلاصة تجاربه عن الحياة والدنيا ، وموقف الإنسان وما يجب عليه أن يفعل ، حتى اقترب في إحدى قصصه البديعة تلك - وهي بعنوان « على ضوء النجوم » - إلى التقرير ، ليزف للقارئ خبراته بوضوح أكثر . . . وهي عن قافلة (الحياة) يسير أفرادها الذين يشتركون فيها وراء مرشد (الدين / الأخلاق / القيم) ، للوصول إلى واحة معينة في الصحراء (النجاح / السعادة) ، ومن يخمن المكان الذي يسعون إليه ، يفوز بالجائزة مهما كثر عددهم ، ومن يخالف التعليقات يُستبعد من السباق ، فإذا ثار المشاركون على المرشد وأعلنوا عصيانهم ، لما يعانون من عنت قواعد الانتظام في السباق ، كعدم شرب الخمر مثلاً ، فإنه يتركهم وحدهم في الصحراء ، فينقسمون إلى خمس فرق : « يتبسط أمامها مصير مليء بكافة الاحتمالات في ذلك الليل البهيم » .

في هذه القصة ذات الرمز الشفاف ، قدم نجيب محفوظ من خلال الراوى / المشارك (جماع ما يملك من قوة ومعرفة) حين قرر « حقاً إنه سباق يتطلب قوة في الملاحظة

وصلابة في الإرادة وصفاء في الذاكرة وتألقا في الدكاء بالإضافة إلى ما يحتاجه من شدة الصبر والاحتفال والشجاعة وضبط النفس وحسن السياسة مع مرشدنا الجبار.

أو ليس هذا ما نحتاجه كبشر ، كي ننال السعادة والنجاح في حياتنا الدنيوية ؟ .

بانوراما الحياة والموت :

تتكون قصص المجموعة من ثلاثين قصة ، يرسم نجيب محفوظ في أربع وعشرين منها ملامح الدنيا وصفاتها ، بينما يشغل الموت ست قصص منها ، كأنها بانوراما (نسبية) لرحلة الإنسان في الدنيا التي تتوزع بين حياة قصيرة على الأرض ، تواجهه فيها أحداث ، ويتعرض فيها إلى مغريات ومفاجآت ومتغيرات خلال بحثه عن النجاح والسعادة والثروة ، التي يمكن أن ينال منها السعادة الواقعية التي لا تخلو من حزن وألم ، إذا التزم بموقف معين ، شريطة ألا ينسى الجانب الآخر المتمم لرحلة الحياة ، وهو أن الموت (حق) كامن في قلب الحياة ، يتحين اللحظة المناسبة للبروز والانقراض .

قصص الحياة كاشفة لصفات الدنيا ، قصص الموت تضيء جوانبه المظلمة .
قصص الحياة تحذر وترشد ، قصص الموت تنبه وتقنع .
وفيما يلي تحليل للقصص وفق التصنيف السابق . .

يبحث البشر باستماتة عن (السعادة) الموهومة :

اشتمل هذا المحور على عشرة قصص . هنا طرح لقضية السعادة من زوايا مختلفة على حياة البشر ، فقد يقتنص شاب لحظات علاقة عابرة مع زوجة جاره ، ثم يهرب إلى الريف ليستقر هناك . لكن هذه اللحظات العابرة تنغص عليه صفو حياته ، فيعود إلى مسرحها القديم في شيخوخته أملأ في التخلص من معاناته ، فإذا به يكشف أن تلك البذرة التي زرعها في طيش شبابه ، أنبتت مأساة أطاحت بتلك الأسرة ، فسار

كالأعمى لا يرى ما بين يديه (قصة « يرغب في النوم ») . وقد تدعن فتاة يافعة لوضعها التمس - كما أذعن أبوها من قبل لمشيئة زوجته الجديد لتنجو من الكدر ، فيكاد عمرها يضيع هدرًا ، لولا هروبها بإيعاز من زوجة البواب ، وتزوجت ، فانتقلت من الطبقة المطحونة إلى طبقة مستقرة (قصة « من تحت لفوق ») . وقد يندفع رجل إلى قتل زوجته التي أحبها يوما ، بعد أن اكتشف أن حلم السعادة بالزواج منها قد تكشف عن عذاب مقيم (قصة « يوم الوداع ») . وقد يعيش رجل حياته بأكملها ، منعزلا عما يجري حوله من أحداث ، فلم تمته أحداث المجتمع بسيفها المسلط ، فإذا به بعد المعاش يذهب إلى طبيه ، لأنه يحس أنه غير سعيد ، لنكتشف أن له ابنين من صلبه مختلفين عنه قصة « مرض السعادة » . وقد يفقد أب ابنه الوليد وعمره ستان ، فيقاوم الرجل مصابه ، ليعيش سعادة واقعية لا تخلو من ألم ، بينما ابنه يكبر ويعمل مناديا للسيارات ويتزوج ، ثم تكون الذروة حين يلتقيان في المدينة الكبيرة مرتين ، دون أن يتعرف أحدهما على الآخر (قصة « في المدينة ») . وقد تتخدع ابنة الرابعة عشرة بالأعيب مدرستها الخصوصي ، فينالها في غيبة من وعيها ، وحين حاول أن يستغل فعلته في الزواج منها رفضته ، لتظل عانسا ، ثم يلتقيان بعد سنوات طويلة ، لترفض أن توضح له موقفها (قصة « عندما قال الليل لا ») . وقد يمارس عجوز الجنس في السبعين مع جارته الجميلة (ذات الأربعين) باختياره ، فينقلونه إلى غرفة الإنعاش غير نادم (قصة « النشوة في نوفمبر ») . وقد تُضَيِّع أسرة موعدا هاما للحصول على النعمة التي سيجود بها القدر ، لعدم صبر أفرادها (قصة « المرة القادمة ») . وقد لا يحتمل أفراد قافلة الالتزام بتعاليم المرشد خلال السباق فيثورون عليه ، لتركهم أمام مصير مليء بكافة الاحتمالات (قصة « على ضوء النجوم ») . وأخيراً قد ينجح رجل في حياته ؛ لأن أباه علمه أن يهتم بالعلم ، ليتطلع إلى الكمال في جميع الأحوال (قصة « رجل ») .

هنا نتابع الإنسان (ذكراً أو أنثى) في مختلف سنوات عمره ، يسمى جاهداً - لاقتناص لحظات سعيدة : رجل مع امرأة أو رجل مع صبية ، وحين يحاول أن يصلح

خطأه بعد سنوات ، تنجم عن محاولته مأساة - فقد يتولد عن هذا اللقاء طفل يُطرح
بالأسرة دون ذنب ، أو قد يتحول الحب إلى كراهية فيقتلها الزوج في لحظة غضب جامع
أو قد ترفض الصبية الزواج ممن خدعها ، و (تختار) أن تعيش عانسا . فإذا عنّ لإنسان
أن يعيش منعزلا ، لينأى عن حوادث الدهر ، أو قد تُدعن فتاة وأبوها لقوة الزوجة
الجديدة ، ليعيشا دون كدر ، فإن الدنيا لا تترك فردا في حاله ، فإذا المنعزل بنجب ولدين
من صلبه لا يسيران على دربه ، وإذا الابنة حين تهرب (مختارة) تنفذ حياتها وتزوج .
وقد تلطم الدنيا - دون معنى - شابا متزوجا بفقدان ابنه وهو في الثانية من عمره ، وحين
(يتقبل) ما حدث تفتح له الدنيا ذراعها ، وتمنحه سعادة واقعية لا تخلو من هذاب
والم . وقد ينال صجوز النشوة في شيخوخته (باختباره) بثمر فادح ، وقد نخسر أسرة أو
قافلة نعمة قادمة لعدم الصبر .

تتأب الحياة تغيرات حتمية في المكان خلال انقضاء الزمان :

تنقضى حياة البشر سريعا ، وكأنها تعادل مرور (نصف يوم) ، بين طفولة يتعلق
الطفل فيها بيد أبيه ، جاريا ليلحق خطاه في اليوم الأول للمدرسة . وحين يُغلق باب
المدرسة يجهش البعض بالبكاء ، لكن الامتسلا للواقع الجديد ، يسلم إلى نوع من
الرضا ، وحين دق الجرس معلنا انقضاء يوم العمل ، يودع (الراوى) الأصدقاء والأحبة
ويعبر البوابة (كمن يعبر عتبة الشيخوخة بعد انقضاء أيام العمل) . فلم يجد
أباه ، ويكتشف تغير كل شيء . ويأخذ صبي كواء بيده ليساعده على عبور الطريق
ليكتشف هو أن عمرا بأكمله قد انقضى ، كأنه نصف يوم (قصة « نصف يوم ») .

ثم يعكس نجيب محفوظ زاوية الرؤية ، فبعد تركيزه على حركة الزمن ، يركز هنا على
التغير الذى يجتاح المكان ، من خلال المزاوجة بين رحلة حياة بشرية وارتباطها بمقهى
« ذقن الباشا » فهو يتابعها طفلا من بعيد ، ثم يكسبه التوظيف وتقدم العمر حق
اقتحام المقهى ، فهو ضمن آخرين يحتلون مكان الشيوخ ، الذين يتزرون . ثم تنقضى

دورة جديدة من دورات الحياة ، فإذا هو يمضى مع الشيوخ ، لينبسط الشباب الجديد في كل مكان ، وخلال ذلك يرث المقهى الابن الأكبر من أبيه فيحافظ عليه ، حتى جاء الانفتاح فحول إلى سوبر ماركت ليضىء تطورا آخر حدث في (الخارج) حين يتحول رواد هذا المقهى إلى مقهى آخر هو مقهى الانشراح الخاص بالحرفيين ، الذين يذهبون إليه بسياراتهم الخاصة بعد أن انقلبت الأدوار ، فيمثل فيه قدامى الموظفين « الطبقة الكادحة الجديدة » (قصة « ذقن الباشا ») .

هكذا تنقضى حياة البشر على الأرض بسرعة . وكأنها رحلة نصف يوم (وهذا إحساس ذاتي ، فكان منطقيا أن يرونها بطلها) . لكن الحقيقة أنه خلال هذا الانقضاء السريع تمضى الحياة (الخارجية) بدورات أجيال البشر المتلاحقة ، حيث يتحول الأطفال إلى شباب ، والشباب إلى شيوخ ، لتتقضى حياة وتبدأ أخرى . لكنها لا تسير أبدا في اتجاه ثابت ، بل قد تتغير الأدوار أيضا حيث يثرى العمال ، ويتحول الموظفون إلى الطبقة الكادحة الجديدة (وهذا تقيم موضوعي ، فكان منطقيا أن تقدم القصة بضمير الغائب) .

أحلام الثراء تأتي على عكس ما نتوقع :

اشتمل هذا المحور على ثلاث قصص ، فقد يجب موظف ابنة حلاق ، وتتحداها مشاكل الخلو والجهاز والمهر . وإذا كل التحديات تختفى فجأة حين يعرض رجل أعمال على والد العروسة خمسين ألف جنيه مقابل الحصول على دكانه ، فيتحول الحلاق إلى مستثمر تشاركه ابته وخطيبها الموظف (ليشتميا) إلى طبقة طالما هاجمها من قبل (قصة « في غمضة عين ») . وقد يعيش رجل حتى السبعين صعلوكا ، يتعيش من معاش أمه حتى ماتت ، وتركت له منزلا قديما بحديقة واسعة مهجورة . وإذا بعصر الانفتاح يأتي فيعرض على الصعلوك نصف مليون جنيه لشراء البيت والحديقة ليبنى مكانها فندق ، فيبيع الصعلوك البيت ويقضى ليلته الأولى وهو (ثرى) في فندق بعد أن أكل حتى

الشعب ، فإذا بالموت يحاصره ، وإذا به يتساءل : « لم كانت المعجزة إذن ؟ » . . غير معقول . . غير معقول يارب » (قصة «خطّة بعيدة المدى») . وقد يبدأ زميلان العمل معا في سكرتارية وزير المعارف قبل الثورة ، وكان ينتظر أحدهما مستقبل لامع يتوّج بكرسى الوزارة بينما الآخر موظف محدود الصلات تعاهدا أن يساعد الأول الثانى إذا ما صار وزيرا . وإذا الثورة تقوم فتقلب التوقعات رأسا على عقب ، فانزوى الأول في الظل بينما ارتفع شأن الموظف ، وفي الستينات طلب الأول من الموظف مساعدته في نشر بعض الترجمات ليستفيد من مكافآت النشر ، فنصح البعض الموظف بالابتعاد عنه ، وفجأة اختفى الأول ، فحمد الموظف ربه . ثم جاء عصر الانفتاح فصار الأول مليونيرا ، وساءت أحوال الموظف فبحث عن زميله القديم حتى قابله ، فذكره بما جرى بينهما ، وأخيرا عرض عليه المليونير أن يعمل عنده سائق سيارة ، فتردد الموظف ثم قبل تحت إلحاح مطالب أسرته (قصة «أحلام متضاربة») .

هنا الثروة تأتى في اللحظة التى لا نتوقعها ، فقد يعانى موظف من ارتباطه بآبنة حلاق ، فإذا الحل لكل مشاكله يأتى من نفس السبب ، حين تهبط (الثروة) بسبب دكان أبيها . وقد يقضى عجوز حياة بأكملها صعلوكا لا يجد قوت يومه ، فإذا ثروة رهيبة تهبط عليه يوم وفاته . ثم يلور نجيب محفوظ رؤيته في قصة مركبة ، حين يقدم شايبين في مفتاح حياتهما فإذا المستقبل مشرق أمام الأول مظلم أمام الآخر . لكن تقلبات الزمن حين تقوم الثورة تقلب الصورة رأسا على عقب ، فإذا الأول ينزوى في الظل لتشرق شمس الموظف الثانى . لكن الحركة لا تتوقف ، فإذا انقلاب الانفتاح يحدث ليرتفع الأول إلى ذرى أصحاب الثروات العملاقة ، ويهبط الثانى إلى جحيم المعذنين ؟ !

الدنيا ذات مظهر مخادع لا تصنعنا ما نرتجى :

اشتمل على أربع قصص تتعلق (بالمظهر) البراق للدنيا ، الذى سرعان ما يتكشف عن عكس ما يرتجى الإنسان ، فقد يحب فرد ما أجمل بنات الحى ، لكن طيبا بتزوجها

لوفرة إمكانياته ، فإذا بها - بعد زواجها - تكشف عن إنسانة متسلطة ، فلا يجد الطبيب مفرا من الانتحار ، لضعفه عن مواجهتها ، وكان يمكن أن يكون المحب الأول هو الضحية لو تزوجها (قصة « ذكرى امرأة ») ، وقد يعشق شخص آخر زينب التى تزوجها على الصناديقى بعد مقتل زوجها بعام ، واتهم عامل قرن بقتله لأنه وجد محفظته ، وحكم عليه بالأشغال الشاقة . لكن العاشق السابق يشك فى الأمر ، لأنه شاهد زينب تتردد على منزل على الصناديقى مرتين خلال زواجها الأول فبرسل خطابا غفلا من التوقيع إلى الصناديقى ، موضحا أنه القاتل ومهددا بالانتقام ، ، وسرعان ما اختفى على ، وأشيع أنه هاجر إلى الخارج ، ومرضت زينب مرضا عصبيا لا شفاء له . . فلم يحصد العاشق سوى الخواء (قصة « خيال العشاق ») . وقد يعاصر أصغر الأبناء أباه العجوز وهو يتزوج جميلة فى العشرين فوق زوجته وأولاده ، ويتج عن هذا الزواج موت الأخ الأكبر فى السجن بعد الاعتداء على الأب الذى مات بعد ذلك مشلولا ، واستولت الزوجة (الجميلة) على ثروته . وإذا الزمن يمر ، فتقلب الأحوال : حين ترفع زوجة الأب قضية نفقة على الابن الأصغر ، الذى تيسرت أحواله ونجح فى حياته ، فيوضح له محاميه موقفها بقوله : « هى ضحية مثلكم ، حتى الثروة التى نهبتها دفعت بها إلى كارثة ، وهامى تتسول » ، ثم أضاف : « إنها امرأة حقيم تزوجت وطلقت مرات وهى فى عنفوان جمالها ، وفى كهولتها ، ووقعت فى غرام طالب نهبها بدوره ثم هرب » (قصة « القضية ») . وقد ينشأ أحد المتسولين على صورة الملك فى فترة ما قبل الثورة ، ولشدة الشبه يطلق عليه زملاؤه لقب « مولانا » . لكن رجال الأمن خشية أى ملامة فى المستقبل القوا (فاروق) الثانى فى سجن الطور . ثم قامت ثورة يوليو ، فكتب عنه كثير من الصحفيين حتى أفرج عنه ، ومثل دورا صغيرا للملك فى فيلم ما ، ونشرت صورته ، فاستبشر خيرا ، لكن خوفا من عطف الشعب عليه ، أخفوه إلى الأبد (قصة « مولانا ») .

هنا أربع قصص تعزف على تيمة (المظهر) الخارجى المخادع إزاء حركة الحياة . .

فأجل بنات الحى تمخضت عن زوجة متسلطة مدمرة أودت بحياة الزوج ، أو قد بفعل الزمن فعله (بجمال) زوجة استغلت عجوزاً في شبابها ، فإذا بشاب يستغلها في شيخوختها ، وإذا بها تنشد مساعدة أحد أبناء الزوج الذين سبق أن جنت عليهم) انظر لانقلاب الأدوار ، وكان نجيب محفوظ يحاول أن يقربنا من فكرة أنا ضحايا ما تفعله بنا الدنيا) ثم يرتفع إلى قمة سامقة ، ساخرة ، لتعميق رؤياه في قصة « مولانا »
فها هو شخص متسول ، صورة طبق الأصل من الملك (لاحظ التناقض الحاد بين موقع كل منهما في المجتمع ، رغم وحدة « المظهر ») . . . وبدلاً من أن يرفعه هذا الشبه إلى أعلى ، إذا به ينسب في سجنه فترة طويلة ثم في اختفائه إلى الأبد بعد ذلك ، وهو بين الفترتين يتعلق بخيوط الوهم ، حين يفكر : « أن الله لم يخلقنى على هذه الصورة إلا لحكمة بالغة ! »

وتسالى الأحداث في الحياة :

وتشكل هذه السمة خمس قصص (من أضعف قصص المجموعة ، بل من أضعف ما كتب نجيب محفوظ إطلاقاً) ، فقد يقتحم شاب أرضاً تابعة لمحلة ضنخ مياه ، كانوا يطلقون عليها (الغابة المسكونة) ، ليجد هناك مجموعة من شباب الحى يقتحمون مشاكل المجتمع السياسية ، فيشاركهم (قصة « الغابة المسكونة ») . وقد يختلف شاب وأخته ، لكنها يحرصان على الاستمرار في العيش معا (قصة « حوار ») . وقد يعبر سائق تاكسى عن وصيته بأنه : « إذا خاف كاتب لا يصح أن يزعم أنه كاتب » (قصة « وصية سواق تاكسى ») .

وقد يعود مسجون سياسى بعد سبع سنوات إلى المقهى ، ليكتشف أن الجميع هجروه لأن : « زمن المبادئ مضى وهذا زمن الهجرة » (قصة « تحت الشجرة ») وأخيراً قد يضيّع عجوز في الثمانين تحويشة عمره في قطعة أرض يزرعها على شاطئ النهر ويستقر فيها مع زوجته ، بعد أن أخلت الشرطة ببيتهم الأيل للسقوط ، لكن الشرطة

أيضا سرعان ما اقتلعت زرعه وطردته (قصة «العجوز والأرض») .

مهما قصرت الحياة أو طالت فالموت كامن يتعين الفرصة المناسبة :

شغلت هذا الملمح ست قصص ، فقد يواجه فرد الموت ، حالماً بإمكانية الانتصار عليه ، لكنه سرعان ما يكتشف أن هذا الحلم مجرد فجر كاذب لا وجود له ، يورث الجنون لمن يملكه (قصة « الفجر الكاذب ») . وقد يحاول آخر التهرب من مقابلة رسول الموت ، لكن كل محاولاته تفشل (قصة « الجرس يرن ») فإذا عكسنا الوضع وبدلاً من مطاردة الموت أو التهرب من رسوله ، يواجه عجوز في الستين الموت القادم - حين اكتشف وربما خبيثاً بالكبد - بالتسليم به كأي واقع آخر ، عند ذلك أحسّ بالسعادة ؛ لأنه كان يعمل من أجل الدنيا ولم يعد أسير قبضتها ، فأيقن أن « الموت صديق في ثياب عدو » (قصة « غداً تغرب الشمس ») . ومرة أخرى يتناول الموت من زاوية أخرى ، فإذا ما وضعناه في مكانه الطبيعي خلال رحلة الحياة ، فلا بد أن يأتي في نهايتها (قصة « الميدان ومقهى ») ، أو قد يتم التناول من جانب تأرجح الإنسان وصراعه بين نداء الدنيا وإغرائها ونداء الدين أو الأخلاق ، في مختلف مراحل الحياة (من طفولة وشباب وزواج واستقرار إلى خريف العمر) ، ليستقبل الموت مرحباً ، مدفوعاً بالشوق وحده (قصة « الهمس ») . وأخيراً يقتحم نجيب محفوظ آخر معقل لحسم قضية قبل الموت ، حين يرحل متخيلاً عالم ما وراء الموت (العالم الآخر) ليجده أجمل من الحاضر (قصة « فوق السحاب ») .

موقف الإنسان :

هنا لابد أن يثور نفس السؤال ، الذي سبق أن انبثق أثناء قراءة مجموعة قصص «صباح الورد» لنجيب محفوظ . . إذن ماهو موقف الإنسان (الصحيح) ، الذي يجب اتخاذه في مواجهة هذه الحياة ؟

هنا ، أيضاً ، تبرز إجابة نجيب محفوظ - فياً - على مرحلتين ، تماماً ، كما سبق أن

ضممتها مجموعته « صباح الورد » . لكن الجديد هنا ، أن نجيب محفوظ قدم هاتين المرحلتين ، مدعمتين بأسانيد قوية وحقائق دامغة ، ونصائح مخلصه ، استمدتها من خبرات حياته ورحيق عمره ، بما وسع منظور التناول ، وعمق آفاق الرؤية ، حتى أصبحت كالأتى :

المرحلة الأولى :

في مجموعة « صباح الورد » رسم نموذجين متقابلين أحدهما باهر ، يجب أن يقتدى به الإنسان ، والآخر سلبي يجب أن يتجنبه . النموذج الأول نمثله شخصية من بين أبناء الشعب هي (أم أحمد) التي انتزعت لنفسها مكانا مرموقا بين أرقى سيدات زمانها ، وذلك بفضل قوتها الذاتية وصلابتها وشجاعتها وذكائها ومشاركتها في الحياة الاجتماعية والسياسية لعصرها (قصة أم أحمد) . أما النموذج الآخر (المرفوض) فهو منطو ، حالم ، عازف عن المشاركة في الحياة الاجتماعية والسياسية ، مكتفيا بحلم قاصر على الوظيفة والزواج (قصة « أسعد الله مساءك ») .

في مجموعة « الفجر الكاذب » رسم النموذجين أيضا ، لكنه جعل النموذج الإيجابي رجلا ، وسمى القصة « رجل » إعجابا وتقديرا لما يجب أن يكون عليه النموذج الإنساني . هذا الرجل لم تعلمه الدنيا كأم أحمد ، بل استمد قوته من أن أباه علمه كيف يهتم باللعب ، كما يهتم بالعمل ، لينطلق إلى الكمال في جميع الأحوال (هنا إضافة أن خبرات حياتنا لا نستمدّها من الحياة فقط ، بل يورث بعضها أيضا) . هذا (الرجل) يرى أن : « الحياة لا تخلو أبدا من منغصات ، من حيث تتوقع أولا تتوقع ، المهم كيف تواجهها ، كيف تستوعبها ، كيف تطويها تحت جناحك ثم تمضي في سبيلك » ، وعندما فقد مجربته لم يستسلم ، فكان : « نضالا هائلا بين الألم والعمل ، وعلى ضوءه تكشف لي أن جوهر عزيمة لا يهزم ولا يستسلم » ، إنه نموذج قوى صلب ، تماما كأم أحمد . . أما النموذج السلبي فكان عجوزا أيضا (لأنه لا يعالج موقفا متجزئا ، بل

يقدم مصائر كلية) . وُلِدَ في بيت عز وجاء لأب من تجار القطن . وجد المنجى والمعتصم مما يتعرض له وطنه من عواصف وتقلبات في نصيحة أبيه حين قال له : « كن في نفسك تسلم ، ولا شأن لك بالآخرين » ، وقال له أيضا : « الإنسان الكامل كامل دائما وأبدا ، والكمال هو الكمال سواء في بلد مستعمر أو في بلد مستقل » ، فعكف على ذاته ينميها بالعلم والثقافة والفن ، فدرس الطب وحصل على الدكتوراه ، وصعد في الوظيفة إلى درجة وكيل وزارة ، وأنجب ولدين « تعذر عليه أن يصتبا في قلبه كما فعل أبوه معه » ، ولعلّ هذا ما أرتقه وهو في المعاش (بعد الستين) ، حين انتابته غشاوة (استمد منها نجيب محفوظ عنوان القصة « مرض السعادة ») ، ومضى يرفض العمد التي قامت عليها سعادته الموهومة .

هنا نموذجان يشدان الكمال : أحدهما مستوعب لحركة الحياة ، مناضل شديد البأس (كأم أحمد) ، يواجه أهواء الحياة ويستوعبها ثم يمضي في حال سبيله ، مستمدا سعادته (الحقة) من العمل والألم ، مؤمنا أن : « جوهر الإنسان عزيمة لا تهزم ولا تستسلم » . أما الآخر فقد حبس نفسه في قوقعة (كمال) ذاتية ، معزولا ، بعيدا عن تيارات الحياة الهادرة ، فكان حتما أن تتكشف له ذات يوم حقيقة سعادته المزعومة ، حين ينجب ولدين من صلبه لا يسيران على دربه .

هكذا يحضنا نجيب محفوظ على الاندماج والمشاركة ، وأن نتمسك بالكفاح كقيمة إيجابية في الحياة ، من خلال نموذجين متقابلين ، والجديد هنا أنه دعم اختياره بعدد من الحقائق متناثرة عبر قصصه المختلفة منها :

« زمان التراجع قد مضى وانقضى ولا عودة إلى جنة المأوى أبدا » .

« الحياة اقتحام وحذر ولا مجال فيها للهروب » .

« يجب أن بنعم الإنسان بنعمة الصبر » .

« لم يبق إلا الاعتماد على النفس » .

« ليس أمامنا إلا الاجتهاد والكفاح والصبر ، وليقتنص من يقتنص ما يتاح له وسط الغيوم من فرص الفوز والسعادة »

وأخيرا ، يجمع هذه الحقائق ويبلورها في تعريف جامع للحياة في (قصة « على ضوء النجوم ») :

الحياة : « سباق يتطلب قوة في الملاحظة وصلابة في الإرادة وصفاء في الذاكرة وتألقا في الذكاء بالإضافة إلى ما يحتاجه من شدة الصبر والاحتفال والشجاعة وضبط النفس ، وحسن السياسة من مرشدنا الجبار . . . » .

المرحلة الثانية :

لكن على الرغم من كل شيء يجب أن يعي الإنسان أن هناك حدودا لا يجب أن يتعداها وهو ماسبق أن أوضحه في مجموعة « صباح الورد » ، وأعاد تأكيده في مجموعة « الفجر الكاذب » :

أ : مسائل الرزق والثراء ، هي من عند الله يؤتيها من يشاء .

ب : مسائل الإنجاب تخص الإرادة الإلهية وحدها .

ج : التوفيق في الحياة الزوجية أو في الحياة عموما رهن بالمشيئة الإلهية . فإذا كانت تلك هي الحدود التي يجب أن يعيها الإنسان خلال حركته ، لذلك ينصحنا نجيب محفوظ (وهنا الجديد الذي أضافه في مجموعته « الفجر الكاذب ») :

« لا يجب معاندة المقادير »

« لا يجب أن يستسلم الإنسان للأشياء » ، بل يجب أن يوطن نفسه على تقبل قوانين الأشياء ، عندئذ بناجى في وحدته الرضا والسلام ، لأنه « ليست هناك سعادة مطلقة ، بل هناك سعادة واقعية لا تخلو من حزن أو ألم » .

ولذلك أيضا « يجب أن يرضى الإنسان بما يجري به الزمن » ، و « يجب التسليم بواقع الموت كأي واقع آخر ، عندئذ يظهر الموت صديقا في ثياب عدو ، فيعمل الإنسان من أجل الدنيا ، لكنه لا يعود أسير قبضتها » .



المحتويات

٥	* كلمة لا بد منها
١١	* الباب الأول : طفولة تفتتح
١٣	الفصل الأول : الموت في الرابعة
٢٢	الفصل الثاني : نشاط سياسي مبكر
٢٢	(١) ثورة ١٩ من بعيد
٢٨	(٢) ابن العم
٣٥	(٣) زعيم التلاميذ وأول مظاهرة
٤٧	الفصل الثالث : عالم الحارة
٤٧	(١) الوحدة والخيال
٥٨	(٢) خالدة الذكر
٦٥	(٣) من النافذة
٧٢	(٤) الحارة
٧٩	* الباب الثاني : صداقات الصبا
٨١	الفصل الأول : الهجرة إلى العباسية
٩٣	الفصل الثاني : زعيم جماعة أصدقاء العباسية
١٠٧	الفصل الثالث : صاحب الحلم المستحيل
١٢١	الفصل الرابع : الباحث عن المتعة
١٣٣	الفصل الخامس : رجل عمل

١٤٧	* الباب الثالث : المرأة في حياته
١٤٩	الفصل الاول : عشق الطفولة
١٤٩	(١) قمر
١٥٦	(٢) ثلاثة أقمار
١٦٣	الفصل الثاني : علاقات الصبا
١٦٣	(١) جميلة
١٧١	(٢) قطرة ندى
١٧٨	(٣) حنان
١٨٥	الفصل الثالث : الحب الخالد
٢٠١	الفصل الرابع : امرأة
٢١٣	* الباب الرابع : الحياة والإبداع
٢١٥	الفصل الاول : رحلة القراءة والبدايات
٢٣١	الفصل الثاني : اكتمال النضج
٢٣١	(١) المرحلة الفرعونية
٢٣٨	(٢) المرحلة الواقعية
٢٤٩	الفصل الثالث : أساليب الكتابة
٢٤٩	(١) الكتابة بعد « اكتمال النضج »
٢٥٣	(٢) بين التخطيط والتلقائية
٢٥٩	(٣) الكتابة من نقطة الصفر
٢٦٧	(٤) نداء القلب ...
٢٧٥	الباب الخامس : عاشق الفن والحياة
٢٧٧	الفصل الاول : الفن حياة
٢٨٥	الفصل الثاني : رحيق الخبرة
٢٨٥	(١) تنوع المصائر في دورة الحياة (صباح الورد)
٢٩٦	(٢) بانوراما الحياة والموت . . (الفجر الكاذب)

الدراسة في حياة عبد

عكرى المحمد بن علي ما تجسمته

سيرة جده خافه لكتابته "سيرة

ذاتية أربية" التي أُرهِجُوا

يتاح لي اس طالع عليا عندنا

يتفضل أهدا خد صفا و سيرة

وأكر الشكر وأرهِجُوا

الترفية التي أنت أصله

مكتبة
الكتاب
الكتاب



الدار المصرية اللبنانية